الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشعبيّة
وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ابن خلدون- تيارت-
كلية الآداب واللّغات
قسم اللّغة والأدب العربي

فرع: الدّراسات اللّغوية تخصّص: لسانيات الخطاب

مذكّرة مقدّمة لنيل شهادة الماستر الموسومة بـ:

مقوّمات الخطاب الدّعوي في كنف القرآن الكريم «تأمّلات حجاجية في سورة "ق"»

إشراف الأستاذة:

أ.د. فضيلة قوتال

إعداد الطّالبة:

فتيحة مداني

أعضاء لجنة المناقشة

د. حدوارة عمر	أستاذ التّعليم العالي	رئيساً
د. فضيلة قوتال	أستاذ التّعليم العالي	مشرفاً ومقرّراً
د.عزوز ميلود	أستاذ التّعليم العالي	عضوًا مناقشاً

السّنة الجامعية: 1446هـ-1447هـ 2024م-2025م

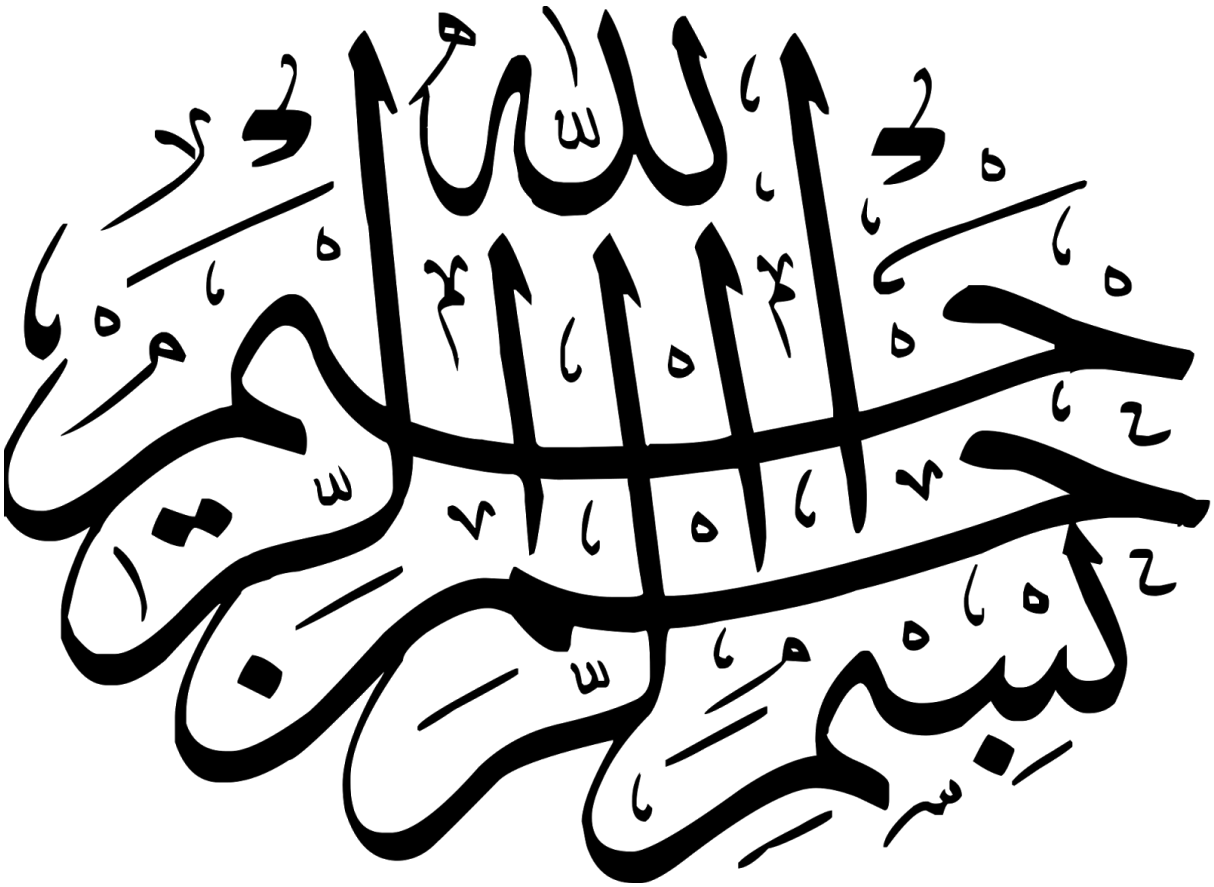

﴿ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا
تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩ ﴾ [النمل: 19]

نبض امتنان في مستهلّ الطريق

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وبفضله تتحقّق الغايات، أحمده سبحانه على ما أنعم به علي من توفيقٍ وهداية، وما أسبغ عليّ من عونٍ وتيسير، حتّى أتممت هذا العمل، سائلةً المولى أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، ونافعًا في ميزان العلم.

وبعد،

أرفع أسمى آيات الشكر والعرفان، مقرونة بكامل التّقدير والاحترام، إلى من تحمّلت مسؤولية الإشراف، وتقاسمت معي عناء هذا المسار العلمي، فكانت سندًا ودعمًا، وتوجيهًا راشدًا في كلّ المراحل، أستاذتي الفاضلة، الأستاذة الدّكتورة:
"فضيلة قوتال"، جزاها الله عنّي خير الجزاء.

كما أتوجّه بخالص الشّكر وعظيم الامتنان إلى كلّ أستاذ(ة) احتضن فضولي العلمي بصدر رحب، وآمن بإمكانياتي، وساندني دعمًا وتشجيعًا، فكان لي خير عونٍ في هذه المسيرة المعرفية.

ولا يفوتني أن أتوجّه بالشكر إلى كافّة أساتذتي في قسم اللّغة العربية وآدابها بجامعة تيارت، عرفانًا بدورهم التّكويني، وامتنانًا لما غرسوه فينا من قيم العلم والبحث.

كما أخصّ بالشكر عائلتي الكريمة، الّتي كانت دومًا الحضن الآمن والدّاعم الصّادق في كلّ المراحل.

وأرفع أسمى عبارات الحبّ والامتنان إلى زوجي وأبنائي الأعزّاء، الذين تحمّلوا غيابي وانشغالي، وصبروا على تقصيري في حقّهم خلال هذا المسار، فكانوا نِعم العون والدّافع للاستمرار وركنًا هادئًا استمددت منه العزيمة في لحظات التّعب والفتور.

وفي الأخير أشكر كلّ من قدّم لي يد العون، أو كلمة دعم، أو إشارة توجيه، وكان له أثر – مهما بدا بسيطًا – في تيسير هذا الجهد العلمي، فجزى الله الجميع عنّي خير الجزاء.

إهداء

إلى...

المرابطين في غزة الأبيّة،

من سطّروا بدمائهم معاني الصبر والثبات...من اختصروا للعالم كلّ معاني العزّة والكرامة...

لكم في القلب دعاء لا يفتر، وفي الحرف عهد لا يخون، وفي هذا العمل قبس وفاء لكمّ وتحيّة إجلال لا تفي حقّكم.

كلّ من سار على خطى معلّم البشرية، سيّدنا مُحَمَّد ﷺ، داعيًا، صابرًا، ومعلّمًا...

كلّ من تهتف روحه حبًّا وعشقًا للغة القرآن الكريم، ويفنى في خدمتها علمًا وبحثًا وسُؤالًا...

من رافقاني في رحلتي في درب الحياة،

يجدّدان أملي كلّما خفّ وهجه، ويشدّان أزري بكلمة صادقة، بدعاء خفي، بصبر لا يكلّ...

والدي الكريم ووالدتي العزيزة...لكما الامتنان بقدر ما منحتماني من يقين...

زوجي... رفيق الدرب من حمل عنّي، ووجّهني برفق، وتجاوز عنّي ...

شكرًا لوفائك وصبرك ...

.

من اعتزلتهم في غمرة هذا البحث... من أبعدني عنهم الانشغال لا الفتور

أولادي ... أختي و إخوتي ... صديقاتي

لهم في القلب أشواق تتّقد... وحنين لا يبرد.

روح جدّتي التي كانت لي أمًّا...وكفلاً....ونبراساً.....

لكم أهدي ثمرة هذا الجهد.

جدول فكّ الرّموز

الرّمز	دلالته
ص	الصّفحة
ط	الطّبعة
د ط	دون طبعة
د ت	دون تاريخ
تح	تحقيق
تر	ترجمة
تع	تعليق
م	الميلادي
ج	الجزء
ع	العدد
مج	المجلد
م ن	مصدر/ مرجع نفسه
م س	مصدر/ مرجع سابق
Ibid	مصدر/ مرجع نفسه
op.cit	مصدر/ مرجع سابق

مـقـدّمـة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، وأرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه، وأنزل عليه قوله :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦ ﴾ [الأحزاب: 45-46]، والصّلاة والسّلام على سيّد العالمين وخاتم النبيّين، مُحَمَّد بن عبد الله، الذي بلّغ الرّسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمّة، وجاهد في الله حقّ جهاده، لتبليغ رسالة ربّه، أمّا بعد:

ممّا لا شكّ فيه أنّ الخطاب الإقناعي يحظى في الوقت الرّاهن بمكانة مرموقة، ويحتلّ موقعا مركزيا داخل مختلف الخطابات، والإقبال عليه مؤشّر إلى ذلك، فلا يكاد يخلو نمط من أنماط الخطاب من توظيف مقصود أو ضمني لآليات التّأثير والإقناع. ومن الجدير بالتّنويه أنّه يُعدّ من أقدم أشكال الخطاب التي عرفها الإنسان، وقد برز بوضوح في الخطابة اليونانية القديمة، لا سيّما في أعمال **أرسطو** و**شيشرون**، حيث شكّل مركزية في المحاكم، والبرلمان، والسجالات الفكرية.

كما أنّه من الإجحاف تجاهل اهتمام الحضارة العربية الإسلامية بالخطاب الإقناعي باعتبارها حضارة لغةٍ وبيانٍ، فقد تناوله البلاغيون العرب قديما ضمن القاعدة البلاغية الشهيرة "مطابقة الكلام لمقتضى الحال". فإذا كان بناءُ الخطاب وتداولُه، إلى حدّ كبير مقيّداً بمعرفة أحوال المستَمِعين، كان من باب أولى مراعاة طبقات النّاس المتوجَّه إليهم بالخطاب لتحقيق الغرض منه وهو الإفهام والتّأثير والإقناع.

يتمحور الخطاب الإقناعي حول سعي المتكلِّم إلى التّأثير في المتلقّي، إمّا لتعديل موقفِه، أو لتعزيز قناعةٍ لديه، أو لحثّه على اتّخاذ قرارٍ أو سلوكٍ معيّن. وفي ضوء المقاربات التّداولية الحديثة، لم يعد الخطاب الإقناعي يُدرس فقط من زاوية بنيته اللّغوية، بل باعتباره فعلا تواصليا قائما على التّفاعل بين المتكلِّم والمتلقّي ضمن سياقات اجتماعية وثقافية محدّدة. ومن هنا تنبعُ أهميّةُ هذا الخطاب، سواء في فهم الديناميات التّواصلية في المجتمع، أو في تطوير مهارات التّعبير والتّأثير.

وفي السّياق ذاته، قدّمت البلاغة الجديدة، كما نظّر لها "**شاييم بيرلمان**" و"**لوسي أولبريت تيتيكا**"، تصوّرا مغايرا لعمليّة الإقناع يقوم على استبدال النموذج الاستنتاجي الصارم بنموذج حجاجي مرن يراعي طبيعة الجمهور وخصائص الموقف التّواصلي.

وبناء على ذلك، لم يعد الخطاب الإقناعي مجرّدَ بناءٍ لغوي مغلق، بل أصبح يُنظر إليه كفعل تواصلي تفاعلي، يتحدّد معناه وقوّته الإقناعية من خلال العلاقة بين المتكلِّم والمتلقّي، ضمن شبكة معقّدة من الأبعاد السّياقية، والنّوايا التّواصلية، والاستراتيجيات الحجاجية. تعدّ هذه الشبكة بمثابة

الأساس الذي تتفرّع عنه أشكالٌ خطابيةٌ متنوّعةٌ، تتفاوت في بنيتها ووظيفتها ووسائلها التّأثيرية، بحسب المجال الذي تُمارس فيه.

ويعدّ الخطاب الدّعوي أحد أبرز التجلّيات العمليّة للخطاب الإقناعي، إذ يتأسّس وفق منظومة متكاملة من الآليات الحجاجية والتّأثيرية التي تستهدف إحداث التّحوّل في وعي المتلقّي وسلوكه، لا بمجرّد الإخبار أو التّعليم، بل عبر استثارة القناعة الدّاخلية، واستنهاض الفطرة، وتفعيل ملكة التأمّل. ومن غير الممكن مقاربة هذا الخطاب في مقوّماته وخصائصه دون العودة إلى الخطاب القرآني بوصفه النموذج التأسيسيّ والمثال الأعلى الذي يستمدّ منه الخطاب الدعويّ شرعيتَه، ومنهجَه، وفعّاليَته.

فالخطابُ القرآني لا يُمارس الإقناعَ بوصفه تمرينا لغويا أو استعراضا بلاغيا، بل يجعله أداةً لتحرير العقل من أوهامِه، والقلب من غفلتِه، والرّوح من اغترابها. إنّه خطاب يحاور الإنسان في كلّ أبعاده: العقليّةِ، والوجدانيّة، والوجوديّة، ويفتح أمامه أُفُقا من التّساؤل والبحث والمراجعة، دون إكراهٍ أو مصادرةٍ.

ومن هنا، فإنّ التأثير الذي أحدثه القرآن في النّفوس والمجتمعات لم يكن وليد الانفعال اللّحظيّ، بل ثمرة هندسةٍ خطابيةٍ دقيقة، جمعت بين التدرّج في البناء الإقناعي، والتنوّع في الأسلوب، والتّناسب بين المقام والمقال، والتّوازن بين التّرغيب والتّرهيب، وبين الحجّة والنّموذج، وبين الاسم والفعل. وبهذا يتأكّد أنّ الخطاب القرآني لا يُمثّل فقط مرجعا دينيّا، بل أيضا مرجِعا نظريا ومنهجيّا لفهم الخطاب الإقناعي في أبعاده الحجاجية التّواصليّة.

من هذا المنطلق ارتأينا أن يكون عنوان بحثنا موسوما بـ:

«مقوّمات الخطاب الدّعوي في كنف القرآن الكريم «تأمّلات حجاجية في سورة "ق"»

تُشير مقوّمات الخطاب الدّعوي، إلى العناصر الأساسيّة التي تجعل من الخطاب وسيلةً ناجعةً في تبليغِ الرسالةِ الدّعوية وتحقيق التّأثير في المتلقّي، سواء كان ذلك على مستوى الفكر أو السّلوك أو العقيدة. ويمكن تصنيفُ هذه المقوّمات ضمن ثلاثةِ أبعادٍ : المحتوى، الأسلوب، والسّياق، مع مراعاة البعد الشرعي والبلاغي والتّواصلي.

وبما أنّ القرآن الكريم خطاب إقناعيٌّ بالدّرجة الأولى، وذو طابع خاصّ، كان من باب أولى أن يكون مرجَعًا لنا في استخلاص تلك المقوّمات، من خلال تأمّلاتٍ في سورة من سوره. ولقد كانت محطّتي التأمّلية في سورة **"ق"**، بوصفها مادةً غنيّة بالأنساق الخطابية والدّلالية، في سياق البحث في الخطاب الدّعوي، لما تَتفرّد به هذه السّورة من كثافة بيانية وتكثيف عقدي يجعلها أنموذجًا بالغ الدّلالة

على فاعلية الخطاب القرآني في تحقيق مقاصده التّبليغية والوجدانية؛ فالسّورة تمثّل وحدة خطابية متكاملة، تتضمّن مختلف آليات الدّعوة، من التّذكير، والوعظ، والإقناع، واستحضار مصير الإنسان. كما أنّ بنية السّورة المكثّفة وقوّة إيقاعها وتنوّع صورها البيانية يجعلها مثالية لدراسة البُعد التّداولي والتّأثيري للخطاب الدّعوي، فضلًا عن كونها تخاطب العقل والوجدان في آنٍ معًا.

وكان من متطلّبات العنوان صياغة الإشكالية التّالية:

ماهي أهمّ المقوّمات الخطابية الدّعوية التي يمكن لنا الكشف عنها من خلال سورة "ق"؟

وانبثقت عن هذه الإشكالية جملة من **الأسئلة الفرعية** تتابعت كالآتي:

- فيم تتمثّل المبادئ التّداولية التي تؤطّر للخطاب الدّعوي بوصفه خطابا حجاجيا؟
- فيم تتلخّص أهمّ استراتيجيات الخطاب الدّعوي من خلال سورة "ق"؟
- فيم تجلّت أهمّ الغايات الخطابية الدّعوية في سورة "ق"؟
- فيم تنحصر أهمّ التحديّات التي تواجه الخطاب الدّعوي، وماهي الآليات التي يمكن أن يتبنّاها لمواجهة خطابات التّضليل؟

أسباب اختيار الموضوع:

وترجع أسباب اختيارنا لهذا الموضوع إلى جملة من العوامل نذكرها تباعا:

1- وَلَعُنا بالدراسات القرآنية، على اختلاف مشاربها، إيمانا منّا بأنّها للعلم الشرعيّ أقربُ، ولخدمة الدّين أنفعُ، ولإرضاء المولى أوجبُ.

2- اعتقادُنا الجازم بأنّ القرآن هو المصدر الأوّل للمعرفة الإنسانية، وبأنّه يهدي للتّي هي أقوم.

3- مُلاءمَةُ الموضوعِ لتخصُّص لسانيات الخطاب، إذ يجمع بين الدّراسات الحجاجيّة والدّراسات القرآنيّة.

4- قلّة الدّراسات التي عُنِيَت بدراسة الخطاب الدّعوي دراسة لسانية خطابية.

ولا نزعم أنّ دراستنا لهذا الموضوع كانت هي الأولى، إلا أنّنا ننوّه بجدّة زاوية التناول اللسانيّ فيها. فمن خلال تعقّبنا لمصادر البحث ومراجعه، لم نصادف دراسة مماثلة في الطرح والأسلوب، إنّما كان الطرح إمّا شرعيا خالصا، أو كان طرحا لسانيا في مضامين السور القرآنية، ومن بين هذه الدّراسات نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

❖ محتوى سمعي بصري، أحمد عبد المنعم، برنامج هدى للنّاس، تفسير سورة "**ق**"، متاح على https://www.youtube.com/watch?v=VGoX7TLwLRA

(تمّ الاطّلاع عليه خلال المرحلة الاستكشافية من البحث، وقد شكّل – للأمانة العلميّة– مرجعا نظريًا غير تقليدي، إذ ساهم في استخلاص محاور جوهرية تمّ توظيفها وتطويرها عبر مختلف مراحل البحث).

- ❖ دراسة مقارنة: بيان صالح حسن، وهي رسالة دكتوراه تحت عنوان" أسلوب الإمامين القرطبي والقرافي في دعوة النّصارى إلى الإسلام".
- ❖ موسوعة في الوسائل الدّعوية المعاصرة: جمع وترتيب: نبيل بن مُحَمَّد محمود، تحت عنوان"كيف نخدم الإسلام".
- ❖ مقال: نعمان شعبان علوان، الأساليب البيانية والخطاب الدّعوي الواعي.
- ❖ مقال: آمال مُحَمَّد حسن عتيبة، المتطلّبات التربوية لتجديد الخطاب الدّعوي لمواجهة التّحديات المعاصرة.
- ❖ مقال: د. مُحَمَّد بن علي بن عايض، الحجاج البلاغي في القرآن الكريم في موضوعات التّوحيد والبعث والنبوّة.

خطّة البحث:

اِنْبَنت الدّراسة على خطّة بحث قائمة على مدخَلٍ تمهيدي، وفصلين ، وخاتمة.

جاء المدخل تحت عنوان" **وقفات بين يدي سورة "ق"**، وقد خُصّ المدخل بهذا العنوان للحديث عن أسباب اختيارنا لسورة "ق" تحديدا. عرضت فيه أهمّ خواصّ السّورة وفرائدها، كما تطرّقتُ إلى أسباب النّزول، ومناسبة السّورة، وهيكلها.

وقياسا على الدّراسات البينية، كان من الطبيعي أن يتباين الفصلان، فجاء الفصل الأوّل مناسبا للجانب النظريّ، وجاء الفصل الثاني متماشيا مع الجانب اللّساني الحجاجي. فورد الفصل الأوّل موسوما بـ " **خصائصُ الخطاب الدعويّ ورِهاناته"**، تضمّن أربعة مباحث: تناولتُ في المبحث الأوّل، التّأصيل النظري لمسألة الدّعوة، في إطارها المفاهيمي، ومشروعيتها، بالإضافة إلى فضلها. تطرّقتُ في المبحث الثّاني إلى مسألة الخطاب الدّعوي، دائما في إطاره المفاهيمي، ثمّ خصائصه استنادا إلى خصائص الخطاب القرآني، وتعرّضتُ في المبحث الثالث إلى عرض أهمّ التحديّات التي يُواجهها الخطاب الدعويُّ ورهاناته. وخُصّص المبحث الرّابع للتصوّر القرآنيّ للخطاب الدّعوي، في محاولة لرصد تقنياته، وِفق منظورٍ قرآنيّ.

أمّا الفصل الثّاني فجاء تحت عنوان **"مقوّمات الخطاب الدّعوي في كنف سورة "ق"**، ويحوي أربعة مباحث: خُصِّص المبحث الأول لأُطر الخطاب الدّعوي التي تلخّصت في تحديد مركزيات موضوع الخطاب، مع التطرّق لوضعية المتكلّم إزاء قيمة المتلقّي في الخطاب . أمّا المبحث الثاني فقد عُنِيَ بالحديث عن استراتيجيات الخطاب الدّعوي وتحديد آلياتها، وعمدتُ في المبحث الثالث إلى تناول أهمّ الغايات الخطابية التي يصبو إلى تحقيقها الخطاب الدّعوي، وجاء آخر مبحث حقلا لعرض الرهانات التي يجسّدها الخطابُ الدّعوي في مُواجهة خِطابات التّضليل.

وكانت الخاتمة حوصلةً، رصدتُ فيها أهمّ النتائج والملاحظات التي تبلورت في الدّراسة على مستوى التطبيق خاصّة، مع إرفاقها ببعض التّوصيات.

أهميّة الدّراسة:

تكمن أهميّة الدراسة في أنّها تثير مسألة وجوب إعادة النظر في صناعة الخطابات الدعويّة، في ظلّ مستجدّات العصر وتحدّياته، إذ لم تعد الوسائل التّقليديّة في الدّعوة كافية لمخاطبة إنسان اليوم الذي يعيش في عالم متسارع التحوّل، متعدّد المرجعيّات، متشظّي الانتماءات. ومن هنا، فإنّ هذه الدّراسة تمثّل دعوة علميّة للتأمّل في كيفيّة الانتقال من خطاب تقريري نمطي إلى خطاب إقناعي متجدّد، يستلهم من القرآن خصائصه التّداولية والبلاغية، ويتّكئ على علوم العصر وآلياته لفهم المتلقّي وتحقيق التّأثير.

أهداف الدّراسة:

إنّ مبتغى هذه الدّراسة السّعي إلى تحقيق جملة من الأهداف أبرزها:

- استثمار القرآن الكريم في الكشف عن خصائص الخطاب الإقناعي، وأثر الأساليب القرآنية في بنائه وصناعته.
- محاولة الكشف عن آليات جديدة لاستقراء النصّ القرآني.
- تطوير الآليات اللّسانية الحديثة في استنطاق الخطابات المكتوبة وغير المكتوبة.
- الاستيعاب المعرفي للمكوّنات والأسس الفكرية التي انطوت عليها نظرية "البلاغة الجديدة" لـ **شايم بيرلمان**.
- النّظر في كيفية بناء الخطاب الإقناعي وتشكّله، وفق آليات الخطاب القرآني.
- تحديد خصائص طرفي الخطاب الدّعوي (المتكلّم/المتلقّي)، وبيان كيفية نجاح العمليّة الإقناعية الدّعوية.

- تأسيس الخطاب الدّعوي تداوليًا.

المنهج المتّبع:

لإجراء هذا البحث اعتمدت على أكثر من منهج، حيث فرضت طبيعة الموضوع اتّباع: المنهج الوصفي القائم على الوصف والاستقصاء في عرض الأفكار والاستنتاجات المتعلّقة بالظّاهرة المدروسة، إلى جانب المنهج التاريخي، وذلك بتقصّي بعض محطّات الخطاب الدّعوي واستنطاقها قصد تثمين النتائج المتحصّل عليها، علاوة على الإجراء التّحليلي البلاغي الذي يتماشى وقدسيّة الخطاب القرآني بوصفه الأقرب إلى توصيفه هذا من ناحية، والأقرب للمنهج الحجاجي من ناحية أخرى، وذلك بعيدًا عن تحليله وفقَ آليات التّحليل الحجاجيّة الحداثيّة.

الصّعوبات:

في خضمّ هذا البحث واجهتني صعوبات لا يخلو منها أيّ عمل، جاءت من وجوه عدّة:

- لقد فرضت قدسيّة النصّ القرآني عليّ الحرص والحيطة في استعمال المصطلحات التي لا تتلاءم مع القرآن بوصفه خطابًا إلاهيّاً، كونها تتعلّق بمفاهيمَ سُطّرت لوصف الخطاب البشريّ.
- غِنى الموضوع وتشعّب مشاربه ،صعّب من عمليّة الإحاطة والإلمام بكلّ مصادره، في شِقّه النّظري.
- ندرة الدّراسات حول الخطاب الدّعوي، من ناحية التّناول اللّساني، أدّت إلى استشكال العمل التّطبيقي.
- طبيعة الموضوع في حدّ ذاته تعدّ شائكة، لارتباطه برؤية جديدة لم يكتمل صرحها بعد.

مكتبة البحث:

ولقد استعنت في البحث بجملة من المصادر والمراجع التي تنوّعت بتنوّع القضايا والمسائل المطروقة، ومن أهم ّ المصادر التي اعتمد البحث عليها، نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- ✓ فقه الدعوة إلى الله وفقه النّصح والإرشاد لعبد الرحمان حسن حبنكة.
- ✓ مجالس القرآن لفريد الأنصاري.
- ✓ استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية لعبد الهادي بن ظافر الشهري.
- ✓ حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التّداولية لقوتال فضيلة.
- ✓ اللّسان والميزان أو التكوثر العقلي لطه عبد الرحمان.
- ✓ في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات لمحمّد مشبال.

✓ Traité de l’argumentation, par Chaim Perelman et Lucie Tyteca.
✓ Problèmes de linguistique générale 1, par Emile Benveniste.
✓ La manipulation, par fabrice d’Almeida.
✓ The Theory of Speech and Language, by Gardiner A. H.,

وفي ختام هذا العرض، أتقدّم بخالص الشّكر والعرفان إلى الأستاذة المشرفة أ.د"فضيلة قوتال"، التي رعت هذا البحث وأمدّته بسبل النّجاح وشدّت أزري بثقتها التي وضعتها فيّ وصبرها معي. كما أتقدّم بالشّكر الجزيل وخالص التّقدير إلى كلّ أعضاء لجنة المناقشة وعلى رأسهم:

أ.د حدوارة عمر: رئيس اللجنة،

و أ.د عزوز ميلود: الأستاذ المناقش،

و أ.د قوتال فضيلة: الأستاذة المشرفة،

الذين احتضنوا هذا العمل قراءة ومناقشة وتقويما، وأثني بالشّكر الجزيل على كلّ الأساتذة الذين ساعدوني ولو بكلمة في سبيل إتمام هذا البحث.

وأرجو في الأخير أن أكون قد وُفِّقت في هذا الموضوع الذي بذلت فيه قصارى جهدي، حتّى يكون على الوجه الذي يتماشى وقيمته العلمية، ولست أدّعي من ذلك الإتيان بالجديد، ولا بإيفاء هذا الموضوع حقّه الكامل فالكمال لله وحده.

فإن وُفِّقت فمن الله، وإن كان غير ذلك فمن نفسي، وحسبي أنّي اجتهدت.

والله- سبحانه وتعالى- الموفّق والمسدّد في القول والعمل...

هو حسبي، عليه توكّلت وإليه أنيب...

تمّ بحمد الله تعالى وتوفيقه.

الطّالبة: فتيحة مداني.

تيارت في: 29ذو القعدة1446هـ

الموافق لـ:27 ماي 2025م.

مدخل تمهيدي

لقد خصّ الله سبحانه وتعالى بعض الآيات وبعض السّور بكثرة التلاوة، وطالما أنّها خُصّت بهذه المزيَّة، فإنّها ذاتُ شأنٍ كبير ومعنى نَفيسٍ لا بدّ أن يَرسخ في النّفسِ بتكرار وُلوجه إليها. ولمعرفةِ خصائصِ أيّ سورة من القرآن وَجبَ التعرُّف على الآثار الواردةِ فيها أو تدبُّر الفرائدِ؛ أي ما تفرّدت به هذه السّورة سواء كان معنى أو لفظاً أو طريقةَ بيانٍ...

1- خواصّ سورة "ق":

نجد من بين السّور التي حَظِيت بالتفرّد والعناية: سورة "**ق**" ، أو كما يُسمّيها البعضُ بسورة "اليوم الآخر"، هذه السورةُ العظيمة والرّهيبةُ لشدّة وَقْعها على النّفس البشريَّة، كيف لا وهي«تُطْبِقُ على هذا المخلوق الإنسانيّ الضعيف إطباقا كاملا شاملا، فهو في القبضة التي لا تَغفل عنه أبدا ولا تُغفِل من أمره دقيقا ولا جليلا، ولا تفارقه كثيرا ولا قليلا. كلّ نفس معدود، وكلّ هاجسة معلومة. وكلّ لفظ مكتوب. وكلّ حركة محسوبة. والرّقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وساوس القلب، كما هي مضروبة على حركة الجوارح. ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النّافذة، المطّلعة على السرّ والنّجوى اطلاعها على العمل والحركة، في كلّ وقت وفي كلّ حال»[1].

يتميّز الخطاب القرآنيّ عن الخطاب البشريّ بعُلْويته وسطوته؛ تتمثّل علويته أنّه من الله تعالى الذي ليس فوقه شيء، وتتجلّى سطوته أنّه نابع من خارج النّفس البشريّة وليس نابعا منها، فهو محيط بها ولكنّه خبير بها، وهذا ما نلمسه في سورة "**ق**" التي تكاد تُطبِق على هذا المخلوق البشريّ الضّعيف فتتبعه في سكناته وحركاته، وفي مختلف مراحل حياته الدنيويّة والأخرويّة من خلال مشاهد الحياة والموت والبعث والحشر، بالموازاة مع ما يحيط به من مظاهر كونيّة من سماء وأرض، وماء ونبات.

نجد من خصائص سورة "**ق**":

أ) سورة **ق**« وتسمّى سورة "الباسقات"»[2] وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ ﴾ [ق: 10] سورة مكيّة، يقول **القرطبي**(ت671هـ)في تفسيره «سورة "**ق**" مكيّة كلّها، وهي خمس وأربعون آية مكيّة كلّها في قول **الحسن وعطاء وعكرمة** و**جابر**، قال **ابن عباس** و**قتادة**: إلّا

[1] سيد قطب، في ظلال القرآن، مج 6، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط10، 1982، ص: 3356.

[2] مُحَمَّد القاسمي، محاسن التأويل، تح: مُحَمَّد باسل عيون السود، مج 9، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص: 3.

آية، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ق: 38]»[1].

الشّأن الغالب على القرآن المكيّ أنّه يُعنى بأمور العقيدة: بالتّوحيد، بالإيمان باليوم الآخر، بالإيمان بالبعث للحساب، بإقامة الأدلّة الكونيّة والعقليّة على ذلك، بذكر قصص الأمم الغابرة التي جاءتها رسلها فكذبتهم وكيف كانت مصارعها.

ب)اهتمّ الرّسول ﷺ اهتماما بالغا بسورة "**ق**" وبالتّالي نَتَجَ عن ذلك اهتمام مجتمعيّ كذلك، فكان يقرأ بها في المجامع الكبار، كالعيد والجُمع إذ يقول **القرطبي**: «وفي صحيح **مسلم** (ت261هـ) عن **أمّ هشام بنت حارثة بن النّعمان** قالت: لقد كان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحدا سَنَتيْن (أو سنة وبعض سنة)، وما أخذتُ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [ق: 1] إلاّ عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها كلّ يوم جمعة على المنبر إذا خطب النّاس.

وعن **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه سأل **أبا واقد اللَّيثي** ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر ؟ فقال: كان يقرأ فيهما بِ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [ق: 1]، و﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ [القمر: 1]. وعن **جابر بن سَمُرَة** أنّ النّبي صلى الله عليه وسلّم كان يقرأ في الفجر بِ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [ق: 1] وكانت صلاته بعد تخفيفا»[2]. ممّا يدلّ على المعنى العظيم والجليل الذي حوته هذه السّورة فخُصِّص لها أن تُقرأ في المجامع التي يحضرها حشد من النّاس، ولأن يكتفي بها الرسول ﷺ في خطبة يوم الجمعة.

❖ قد أشار **فخر الدّين الرازي** (ت606هـ) إلى لطيفة بقوله: «أنّ هذه السورة تقرأ في صلاة العيد لقوله تعالى فيها ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ق: 42] وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ [ق: 11]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ق: 44] فإنّ العيد يوم الزّينة، فينبغي أن لا ينسى

[1] مُحَمَّد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ج 17، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1964، ص: 1.

[2] مُحَمَّد القرطبي، م ن، ج 17، ص: 1.

الإنسان خروجه إلى عرصات الحساب، ولا يكون في ذلك اليوم فرحا فخورا، ولا يرتكب فسقا ولا فجورا، ولما أُمر النّبي ﷺ بالتّذكير بقوله في آخر السورة ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [ق: 45] ذكّرهم بما يناسب حالهم في يومهم بقوله: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ [ق: 1]»[1]. فمن الواضح أنّ الرّسولَ ﷺ قد أُمر بأن يُذكّر بالقرآن عموما وبِـ"**ق**" خصوصا.

ت)إنّ سورة "**ق**" هي فاتحة سور " المفصّل" على القول الرّاجح الذي تبنّاه جمع من العلماء، من بينهم **ابن كثير**(ت742هـ) وكان مستنده في ترجيحه حديث ونَصُّه: «قال **عبد الله بن سعيد**: حدَّثَنيه **أوس بن حذيفة**...قال **أوس**: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصّل وحده»[2]. رواه **أبو داود**(ت256هـ)في سننه باب تحزيب القرآن، ورواه **ابن ماجة**(ت273هـ) ورواه **الإمام أحمد**(ت241هـ)»[3]. وبالاعتماد على هذا التّقسيم تكون:

- "**الحجرات**" هي أوّل المفصّل، إذا بدأنا التّحزيب من سورة: **الفاتحة** ف**البقرة** ف**آل عمران**.
- "**ق**" هي أوّل المفصّل، إذا بدأنا التّحزيب من سورة: **البقرة** ف**آل عمران** ف**النّساء**.

والمرجّح أنّ بداية المفصّل هي من سورة "**ق**" لأنّ "سورة الحجرات" سورة مدنيّة وهي تابعة في موضوعها لسورتي "**الفتح**" و"**مُحَمَّد**" المدنيتين كذلك، والسّور الثلاث تتحدّث عن محور رئيس يتمثّل في منزلة الرّسول ﷺ ووجوب اتّباعه، وطاعته، والتأدّب معه. والغالب عليها هو الطّابع التّشريعيّ، شأنها شأن السّور المدنيّة، أمّا سورة "**ق**" فهي في مضمونها تتحدّث عن الإيمان باليوم الآخر، الذي يمثّل أحد المحاور الرّئيسة لحزب المفصّل.

ث) ولما كانت "**ق**" هي بداية المفصّل فهي تشير في مضمونها إلى طبيعته التي هي أخروية خالصة (ما عدا الجزء السّادس منه). وفي الصّحيح أنّ بعض الصّحابة كان يسمّي المفصّل بِـ"المحكم"، «فعن **سعيد بن جبير** عن **ابن عبّاس** رضي الله عنهما قال: جمعت المحكم في عهد رسول الله ﷺ فقلت له: وما

[1] فخر الدين الرازي، التفسير الكبير،ج28، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1981، ص: 145.
[2] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج7، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص: 366.
[3] ينظر: ابن كثير، م ن، ص: 145.

المحكم؟ قال: المفصّل» رواه **البخاري**(ت256هـ). فالمفصّل يُعدّ من القرآن المحكم لتناوله المسائل العقائدية التي تحكم دين المرء، والتي بدونها يصبح دينا أجوفًا لا روح فيه. وقد سُمّي بالمفصّل لكثرة الفواصل فيه بالبسملة[1]، وقد كثُر تداول أهل العلم لهذا المصطلح حتّى شاع بينهم.

ج) نلمس أيضا تميّز موضع السورة "**ق**"، وذلك دائما من خلال المفصّل وما حُظِي به من اهتمام بالغٍ من قبل النبيّ ﷺ وبالتّالي من قِبل الصّحابة أيضا، وذلك لتخصيصهم له في تحزيب وردهم اليومي. وأصل ذلك حديث أقسام القرآن الذي أخرجه «**أحمد**، و**الطّبراني**(ت360هـ)، و**ابن جرير**(ت224هـ) و**البَيْهقي**(ت458هـ) في "شُعب الإيمان" عن **واثلة** قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعُ الطِّوَالُ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ المِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الإِنْجِيلِ المَثَانِي، وَفُضِّلْتُ بِالمُفَصَّلِ)»[2].

إنّ عبارة "وَفُضِّلْتُ بِالمُفَصَّلِ" لَتجعلُ الذّهنَ ينْتَفِضُ للبحث عن هذا السرّ الذي جعل المفصّل يَحْظى بهذه المكانة، بأن يُفضَّل به النبيُّ عن سائر الكتب السّابقة، وعن المعاني الجليلة التي حواها هذا الجزء من القرآن ليُحدِث ذلك التّغيير المهول الذي حدث للصّحابة رضوان الله عليهم في بداية إسلامهم.

ح) تسمية السّورة بِـ "**ق**" وهو من الحروف المقطّعة، ونجد أنّ السّورة في مجملها قد بنيت على «الكلمات القافيّة من ذكر القرآن وذكر الخلق وتكرير القول ومراجعته مرارا والقرب من ابن آدم وتلقي الملكين قول العبد وذكر الرّقيب وذكر السّائق والقرين والإلقاء في جهنّم والتّقدّم بالوعيد وذكر المتّقين وذكر القلب والقرون والتّنقيب في البلاد وذكر القيل مرتين وتشقّق الأرض وإلقاء الرّواسي فيها وبسوق النّخل والرّزق وذكر القوم وحقوق الوعيد ... وسرّ آخر وهو أنّ كلّ معاني هذه السّورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدّة والجهر والعلوّ والانفتاح»[3].

---

[1] ينظر، ابن رجب الحنبلي، فتح الباري، تح: محمود بن شعبان ومجموعة من المحقّقين، ج7، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ط1، 1996، ص: 74.

[2] جلال الدين السّيوطي، الدرّ المنثور في التّفسير بالمأثور،ج7، دار الفكر، بيروت، لبنان، (دط)، (دت)، ص: 587.

[3] ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج3، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (دط)، (دت)، ص: 144.

بنيت السّورة على حرف "القاف" وأخواته من حروف "قطب جد"؛ حروف القلقلة الشّديدة، والمناسبة لموضوع السّورة والمتمثّل في قضية اليوم الآخر وقضيّة البعث، ذلك الموقف الشّديد فهو يوم فزع ويوم هول. ونلاحظ ذلك في أغلب فواصلها فبعمليّة إحصائية نجد: حرف "الدّال" تكرّر 27 مرة. حرف "الباء" 7 مرات، حرف "الجيم" 5 مرات، حرف "الطّاء" مرّة واحدة، وفي المقابل نجد الحروف الأخرى مثل حرف "الظّاء" تكرّر مرّتين، حرف "الرّاء" مرّتين وحرف "الصّاد" مرّة واحدة. على مجموع 45 آية، أو فاصلة قرآنية نجد ما يقارب 90% من تلك الفواصل من الحروف المقلقلة، أمّا ما يخصّ الحرف "قاف"، فإنّه يشكّل جسم السّورة؛ فقد ذُكر 57 مرة في هذه السّورة فقط لأنّه يمثّل عمود بنائها ونسيجها اللّفظي لما يتميّز به من صفات قويّة كـ: الاستعلاء والقلقلة والشدّة والجهر.

خ) لم ترد بعض الألفاظ إلاّ في هذه السّورة (ما يسمّى بالفرائد)، نذكر: رجع، مريج، فروج، الحصيد، تبصرة، باسقات، الوريد، قعيد، عتيد، المتلقّي، تحيد، سائق، مزيد، الخلود، نقّبوا. كلّها ألفاظ مناسبة لموضوع السّورة: موضوع الرّقابة، والموت، والبعث، والحشر، والحساب. ولم تَرِد بعض الأنساق التّعبيرية إلاّ في هذه السّورة، عند سماعها تعرف أنّك بصدد سورة "**ق**": حبّ الحصيد، كتاب حفيظ، أمر مَريج، إخْوان لوط، سَكْرة الموت، يَتَلقّى المتلقّيان، يوم الخُروج، يوم الخُلود ...وكأنّ السّورة في مجملها جديدة في أنساقها وتعابيرها!!

2- أسباب النّزول:

سورة "**ق** مكيّة في مُجملها بالإجماع إلاّ الآية 38 وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ق: 38] «وهي السّورةُ الرّابعةُ والثّلاثون في ترتيب نزول السّور عند **جابر بن زيد** نزلت بعد سورة "**المرسلات**" وقبل سورة ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ ﴾ [البلد: 1]»[1]. نجد أنّ ترتيب النّزول مرتبط بالزّمن في حين أنّ ترتيب المصحف مرتبط بمناسبة السّور فيما بينها.

[1] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 26، الدار التونسية للنشر، تونس، (دط)، 1984، ص: 274.

لنكون أكثر دقّة في معرفة زمن نزول سورة "**ق**"، نورد ما جاء في الموسوعة القرآنية: «نزلت سورة "**ق**" بعد سورة "**المرسلات**"، ونزلت سورة "**المرسلات**" بعد تسع آيات من سورة "**النّجم**"، ونزلت سورة "**النّجم**" بعد الهجرة الأولى للحَبَشة، وكانت هذه الهجرة في السّنة السّابعة من البَّعثة فيكون نزول سورة "**ق**" في ذلك التّاريخِ أيضا، وتكون من السُّوَر التي نزلت فيما بين الهِجْرة إلى الحَبَشة والإسراء»[1].

الغالبُ على القرآن المكيّ أنّه يتّسِمُ بإقامة الحجج والبراهين العقلية القاطعة على البعث، فعن **عائشةَ** أمِّ المؤمنين ﵂ قالت: «إنّما نَزل أوّل ما نَزل منه سورة من المفصَّل فيها ذكر الجنّة والنّار، حتّى إذا ثَابَ النّاس إلى الإسلام نزل الحلالُ والحرامُ، ولو نزل أوّل شيء لا تَشْربوا الخمر لقالوا: لا نَدَعُ الخمر أبدًا، ولو نزل لا تزنوا لقالوا: لا نَدَع الزِّنا أبدًا، لقد نَزَل بمكّة على **مُحَمَّد** ﷺ وأنا جارية ألعب»[2].ويكثر الحديث فيه عن الآيات الكونية، وقصص الغابرين، وهلاك المكذّبين ...وذلك لترسيخ ركائز العقيدة، ولتثبيت النّبي ﷺ والمؤمنين للصّبر على ما كانوا يواجهونه من كفّار قريش.

لقد وَرَد في سبب نزول الآية 38 من سورة "**ق**" وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ق: 38]، ما جاء في حديث «**عكرمة** عن **ابن عبّاس**: أنّ اليهود أتت النّبي ﷺ فسألت عن خَلق السّماوات والأرض فقال:(خَلَقَ اللّه الأَرْضَ يَوْمَ الأَحَدِ وَالاِثْنَين، وَخَلَقَ الجِبَالَ يَوْمَ الثُّلَاثَاء وَمَا فِيهِنَّ مِنَ المَنَافِعِ، وَخَلَقَ يَوْمَ الأَرْبِعَاء الشَّجَرَ وَالمَاءَ، وَخَلَقَ يَوْمَ الخَمِيس السَّمَاءَ، وَخَلَقَ يَوْمَ الجُمُعَة النُّجُومَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ)، قالت اليهود: ثم ماذا يا **مُحَمَّد**؟ قال: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ)، قالوا: قد أَصَبْت لو تَمَّمْت: ثمّ استراح، فغضب رسول الله ﷺ غضبا شديدا، فنزلت: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا

[1] جعفر شرف الدين، الموسوعة القرآنية، خصائص السور، تح: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، ج8، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت ا، لبنان، ط1، 1420هـ، ص: 251.

[2] مُحَمَّد البخاري، صحيح البخاري، تح: د. مصطفي ديب البغا، ج4، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، سوريا، ط5، 1993، ص: 910.

مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: 38]»[1].فأسبابُ نزول هذه الآية هو زعم يهود يثرب بأنّ الله خلق السماوات والأرض في ستّة أيام، أوّلها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، واستراح يوم السّبت فاتخذوه يوم راحة لهم، فكذَّب الله افتِراءَهم.

3- مناسبة السّورة:

اعتنى العلماء ببيان مناسبات السّور- فترتيب السّور لم يأت عبثا - وهي مسائل اجتهادية في الغالب، ولذلك نجد أقوالهم قد تعدّدت فيها:

❖ **في بيان مناسبة سورة "ق" مع سورة "الحجرات":**

➢ قال **أبو حيّان الأندلسي**(ت 745هـ): «ومناسبتها لآخر ما قبلها، أنّه تعالى أخبر أنّ أولئك الذين قالوا ﴿ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: 14]، لم يكن إيمانهم حقًّا، وانتِفاء إيمانهم دليلٌ على إنكار نبوّة الرّسول ﷺ، فقال: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾[ق: 2]، وعدم الإيمان أيضا يدلّ على إنكار البعث، فلذلك أعقبه به»[2] .

في مسائل العقيدة ثلاث قضايا لا تكاد تنفَصِل عن بعضها البعض: الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، ولا يكتمل إيمان الفرد بدون هذه اللّبنات الثّلاث، فذُكِر الإيمان بالله ورسوله في سورة "الحجرات" والإيمان باليوم الآخر في سورة "**ق**"، وكأنّ هذه السورة جاءت لتُتمّم ما ابتدأته سابقتُها "**سورة الحجرات**"، من تثبيت لأركان العقيدة الإسلاميّة؛ لأنّ القرآن العظيم كلٌّ لا يتجزَّأ يُكْمِل بعضُه بعضًا.

➢ وقال **البقاعي**(ت885هـ) عن سورة "**ق**": «مقصودها الدّلالة على إحاطة القدرة، التي هي نتيجة ما خُتمت به "**الحجرات**"، من إحاطَة العلم لبَيان أنّه لا بدَّ من البَعث ليوم الوعيد»[1]. ختم سبحانه سورة "الحجرات" بالحديث عن إحاطة علمه وذلك في موضعين: ﴿وَٱللَّهُ **يَعْلَمُ** مَا فِى

[1] الواحدي، أسباب نزول القرآن، تح: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدّمام، المملكة العربية السعودية، ط2، 1996، ص: 397.

[2] أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج9، دار الفكر، بيروت، لبنان،(دط)، 2000، ص: 528.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ **عَلِيمٌ** ﴿١٦﴾﴾ [الحجرات: 16]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ **يَعۡلَمُ غَيۡبَ** ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ **بَصِيرُۢ** بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات: 18]. وقال في سورة "**ق**":﴿قَدۡ **عَلِمۡنَا** مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا **كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ** ﴿٤﴾﴾ [ق: 4]، ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ **وَنَعۡلَمُ** مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ **أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ** مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: 16]، ﴿نَّحۡنُ **أَعۡلَمُ** بِمَا يَقُولُونَۖ﴾ [ق: 45]، لتُرسِّخ هذه الآياتُ المعنى الذي أوْرَده سابقا (في نهاية سورة الحجرات)، ونحن نعلم ما تَضْطَلِع به خاصيّة التّكرار من فائدة في تأثيلٍ وتأصيلٍ للفكرة المراد بيانُها.

❖ **في بيان مناسبة سورة" ق" لما بعدها سورة "الذاريات":**

لقد كان الحديث في نهاية سورة **"ق"** عن الحشر: ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾﴾، واستمرّ في بداية سورة "**الذاريات**": ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ﴿٦﴾﴾، «ذكر في سورة **"ق"** البَعث والجزاء والجنّة والنّار، وافتتح سورة "**الذاريات**" بالقسم بأنَّ ما وُعدوا من ذلك صدق وأن الجزاء واقع. وذكر في سورة " **ق**" إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال، وذكر ذلك على وجه التّفصيل في سورة "**الذاريات**"»[2].فهو مشهد واحد ابتدأ في سورة "ق" واستُكْمِل في سورة " **الذاريات**"، وهذا دلالة على ترابط مواضيع سور القرآن.

❖ **في بيان مناسبة سورة "ق" مع سورة "ص":**

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: 1]، إنّ المتَصَحِّفَ للقرآن الكريم ليَلْمَس ذلك الحبْكَ والنّسيج المتين الذي يربط بين سوره وآياته في هندسة ربانية يقف العقل البشريُّ عاجزًا إزاءَها ، كيف لا وهي من لَدُن حكيمٍ خبيرٍ!

يرى **ابن الخطيب**(ت776هـ) «أنّ سورتي **"ص"** و **"ق"** تتشابهان في عدّة وجوه، منها:

أ– الافتتاح بالحرف المعجم (ص، ق).

---

[1] البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، ج18، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ط1، (1969-1984)، ص: 396.

[2] ينظر: المراغي، تفسير المراغي،ج26، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1964، ص: 173.

ب– يلي الحرف قسم بالقرآن، ثم تعجّب ونفي.

ت– تناسق البداية والنهاية في كلٍّ منهما، حيث تختم كلّ سورة بما يناسب افتتاحها:

- سورة "**ص**" افتتحت بالتّوحيد وخُتمت بذكر خلق آدم، تأكيدًا لوحدانية الله.
- سورة "**ق**" افتتحت بمسألة الحشر وخُتمت بمشهد من يوم القيامة، تأكيدًا للبعث.

كما يشير إلى أنّ الاهتمام في سورة "**ص**" منصبّ على التّوحيد (المبدأ)، بينما الاهتمام في سورة "**ق**" منصبّ على الحشر (المعاد)، فافتتحت كلّ سورة بما خُتمت به، في بناء محكم متناسق»[1].

ثمّة وشائج وروابط دقيقة تنتظم سور القرآن الكريم، ولا سيّما تلك التي تتقارب في مطالعها، كما هو الحال في سورتي "**ق**" و "**ص**".

وقد قمنا برصد أبرز مظاهر هذا التّناسق والتّماثل في الجدول الآتي:[2]

سورة "ص"	سورة "ق"
﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾	﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾
﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾	﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾
﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ ۝٤﴾	﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ .... ۝٢﴾
﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾	﴿هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾
﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۖ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ۝١٣﴾	﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ۝١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ ....۝١٤﴾

[1] ينظر: ابن عادل الدمشقي، اللّباب في علوم الكتاب، تح وتع: الشيخ أحمد عبد الموجود وآخرون، ج18، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص: 4.

[2] مُحَمَّد صافي المستغانمي، في رحاب سورة، اطّلع عليه يوم:[15-02-2025، 17:50]، متاح على: https://www.youtube.com/watch?v=0CnsfXl7kH4&ab_channel=HossamTaha.

﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾	﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾
﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ... ﴿١٧﴾ ﴾	﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ... ﴿٣٩﴾ ﴾
﴿ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾	﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ ﴾
ٱلۡخَصۡمِ ، خَصۡمَانِ ، تَخَاصُمُ ، يَخۡتَصِمُونَ	لَا تَخۡتَصِمُواْ
أَنَابَ	مُّنِيبٍ
إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ	لِكُلِّ أَوَّابٍ
﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴿١٥﴾ ﴾	﴿ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ... ﴿٤٢﴾ ﴾
﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾	﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ ... ﴿٤٥﴾ ﴾
﴿ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾	﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾
﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾	﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾

إنّ في سورة "**ق**" الكثيرُ ممّا وَرَد في سورة "**ص**"، بشيء من الثوب اللّفظي الذي يتناسب مع روح كلّ سورة، ممّا يَدْعونا إلى استخلاص أمر في غاية الأهميّة، وهو أنّ القرآنَ العظيمَ قد عنِي بأصول العقيدة أيّما اعتناء، وذلك بتكرار ذكر الأقوام الذين كذّبوا رسلهم، وكيف كان مآلهم، بصيغة الجمع، ثم ذكرَ الفرد مُنسلخا من جماعته، وذكر طُغيانه في الدّنيا ثمّ مآلَه كذلك بالموت والحساب، وكأنّ القرآن يذكّر في كلّ حين هذا الإنسان الضّعيف الذي يطغى إمّا مستأنسا بقوّته أو بجماعته، أنّ مصيرَه إلى خالقه الذي يُنكر وجوده أو يدَّعي إنكار ذلك. وفي المقابل يأتي دائما ذكر الصالحين، والجزاء الذي أُعدّ لهم من جنّات وظِلال وعُيون. الكون خُلق وِفق ناموسِ العدل، والقِسط لقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ [الرحمن: 7].

إنّ القرآن يقيم الحجّة علينا بمختلف السّبل، والإنسان أمام خيارين، لا ثالث لهما لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾ [الإنسان: 3]، فإمّا أن يكون من زُمْرة النّاجين ، أو يكون من زمرة الهالكين.

4- هيكل سورة " ق":

سنحاول بإيجاز رصد أهمّ المحطّات التي تناولتها سورة " **ق** ":

أ) ابتدأت السّورة بالحرف الهجائي "قاف"، وهو من الحروف المقطّعة، وقد أسهب علماء التّفسير في البحث عن سرّ هذه الأحرف، ليس هنا المقام للحديث عنها فسنركّز على المعنى الذي يخدم بحثنا. تتحدّث سورة" **ق**" عن إنسان غافل مُخدَّر، يحتاج إلى من يهزّه، وليس أفضل من القرآن لينتشله من تلك الغفلة بالحديث عن يوم القيامة، وليس أَنْسب من الحرف "قاف": الحرف المستعلي، المجهور، والشّديد، للتّنبيه على المسألة المركزيّة لهذه السّورة: قضيّة البعث واليوم الآخر.

ثمّ يأتي التّدليل على شأن القرآن بأنّه مجيد وأنّه «كلام متنزّل من عالم المجد الأعلى، هناك في اللوح المحفوظ! وأنّ به أسرار ذلك العالم مما بثّ الله فيه من حقائق ومقادير أزليّة، ترسم طريق السّالكين إلى الله في الأرض! وأنّه ما وَرَد عبد ربيعَ نوره المجيد، إلا كان من الوّاصلين الماجِدين في الدُّنيا والآخرة»[1]، وهذا تأكيد على أنّ من استضاء بنور القرآن واهتدى به، بلغ الرّفعة في الدنيا والنّجاة في الآخرة.

ب)وجوب التفكّر في خلق الله في «الاستدلال على إثبات البعث وأنّه ليس بأعظم من ابتداء خلقِ السّماوات وما فيها وخلق الأرض وما عليها، ونشأة النّبات والثّمار من ماء السّماء وأنّ ذلك مثلٌ للإحياء بعد الموت»[2]. إنّ المتدبّر في ملكوت السّماوات والأرض ليُدرك تمام الإدراك أنّ وراء هذا الصنع البديع المحكم، صانعٌ مبدعٌ وحكيمٌ، لم يخلق هذا الكون عبثًا ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨ ﴾ [ق: 8].

ت)التّذكير بالأمم السّابقة وإلى ما آلت إليه من عذاب وإهلاك «فكلّ هذه الأمم اشتركت في

[1] فريد الأنصاري، مجالس القرآن،ج2، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، ط3، 2016، ص: 42.
[2] الطاهر بن عاشور ، التحرير والتّنوير، م س، ج26، ص: 275.

جريمة الجحود والتّكذيب! فاشتركت بسبب ذلك في نتيجتها! وهي التعرّض لنقمة الله وعذابه، من الهلاك والتدمير! وإن اختلفت الصّور والتجلّيات! لكن السنّة واحدة! وهي قوله تعالى ههنا: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق: 14]»[1]. ولم يتمّ ذكر كلّ هذه الأمم مجتمعة إلاّ في سورة "**ق**"، إنّه أكبرُ حشدٍ للأمم المكذّبة كنماذجَ وعيدٍ وترهيبٍ.

ث) توالي المشاهد سراعا وكأنّه لا فاصل زمنيّ بينها: مشهد الحياة، وتلك الرّقابة الصّارمة اللّصيقة الدّائمة التي لا تغفل عن هذا المخلوق، ﴿**مَّا يَلۡفِظُ مِن** قَوۡلٍ﴾ [ق: 18] فتجعل سكناتِه وحركاتِه مكشوفةً لا يحجبها حاجبٌ، كلّ نفس معدود! كلّ خاطرة! كلّ كلمة! كلّ قول! ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: 17] حُذف المفعول به ولك أن تتصوّره!!«قال الإمام **أحمد**: حدّثنا **أبو معاوية**، حدّثنا **مُحَمَّد بن عمرو بن علقمة اللّيثي** عن أبيه عن جدّه **علقمة**، عن **بلال بن الحارث الموني** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ . وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ تَعَالَى مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ). قال: فكان **علقمة** يقول: كم من كلام قد مَنَعَنِيه حديث **بلال بن الحارث**»[2]. إنّ الإنسان محاصرٌ من كلّ جانب لا مفرّ من الله إلّا إليه.

ويأتي مشهد الاحتضار، ويا له من مشهدٍ! مشهد مفارقة الرّوح لهذا الجسد، مشهدٌ رهيبٌ مفزعٌ، «كلّ الحضارات الماديّة عبر التّاريخ كان هاجسُها الوحيد هو كيفية الهروب من الموت، وقضيّتها القصوى هي كيف تُعمّر»[3] ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ

[1] فريد الأنصاري، مجالس القرآن، م س، ص: 41.

[2] سيد قطب، في ظلال القرآن، م س، ج5، ص: 3363.

[3] مُحَمَّد النابلسي، تفسير سورة "ق"، اطّلع عليه يوم[2024/12/24، 18:45]، متاح على: https://youtu.be/wlFCCPyzVXQ?si=z5H2TzX84Z9YNIij

يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: 96]، وذلك من أجل الاستمتاع بملذّات الحياة.

ثمّ يأتي في الأخير مشهد البعث، الذي هو أشدّ وأعتى! في لقطات متسارعة متتالية متعاقبة، تجعل نبضاتِ القلب تنتَفِض! وحدقاتِ العين تَشْخَصُ! فينكشف غطاء الغفلة عن القلوب وعن الأبصار، ولكن بعد فوات الأوان! ويأتي النّطق بالحكم من العليّ العزيز: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق: 24-26]. سورة "ق" تُخاطب طاغية، فجاءت الصّفات في صيغ المبالغة: كفّار، عنيد، منّاع، مريب، ثمّ يُلقى وضيعًا في جهنّم والعياذ بالله. ويُسدل السّتار على مشهد جهنّم وهي تتأجّج غيظًا ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ [الملك: 8] وتقول ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴿٣٠﴾﴾ [ق: 30]!

ج) في المقابل، وفي هذا الجوّ المليء بالرّهبة والخوف هناك التّكريم الإلاهي لكلّ نفس خشيت الرحمانَ بالغيب، لكلّ قلب منيب، لكلّ أوّاب حفيظ، آنَ الأوان لِتكريم كلّ هؤلاء بأن تقترب الجنّة منهم ويدخلوها بسلام خالدين فيها ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ﴿٣٢﴾ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق:31- 34].

ح) ثمّ يختم السّياق القرآنيّ وهو يعيد عرض المشاهد السّابقة ولكن في صورة غير الصورة الأولى، صورة الختام بلمسات جديدة، يقول **سيّد قطب** (ت1386هـ) في الظّلال: «ومع أنّ هذه اللمسات كلّها قد سبقت في سياق السّورة، إلاّ أنّها حين تعرض في الختام تعرض جديدة الإيقاع جديدة الوقع. بهذا التّركيز وبهذه السرعة. ويكون لها في الحسّ مذاق آخر غير مذاقها وهي مبسوطة مفصّلة من قبل في السّورة، وهذه هي خِصِّيصَة القرآن العجيبة!»[1]. القرآن لا يحدث أثره في النّفس إلا بحضور القلب أو بمجاهدة النّفس لاستحضاره ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: 37].

[1] سيّد قطب، في ظلال القرآن، م س، ج5، ص: 3366.

خ) وكما بدأت السّورة بالحديث عن القرآن، خُتِمت بالتّذكير بالقرآن ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ق: 45].يقول **فخر الدين الرّازي** في تفسير هذه الآية «وفي هذه الآية إشارة إلى الأصول الثّلاثة، وقوله: (وَذَكِّرْ) إشارة إلى أنّه مرسل مأمور بالتّذكير منزَّل عليه القرآن حيث قال (بِالقُرْآنِ) وقوله(وَعِيدِ)إشارة إلى اليوم الآخر وضمير المتكلّم في قوله(وَعِيدِ) يدلّ على الوحدانية»[1]. الأصول الثلاثة تتلخّص في: وحدانية الخالق، حتميّة وجود اليوم الآخر، والقرآن الكريم شاهدًا ومذكّرًا .

❖ **خلاصة القول:**

أهمّ النّقاط التي يمكن استخلاصها من خلال استعراض المحطّات التي تناولتها سورة "**ق**" هي:

أ– جاءت سورة "**ق**" لتقرّر حقيقة «أنّ أهمّ موضوع في العقيدة بعد الإيمان بالله هو الإيمان باليوم الآخر»[2]، فلا نكاد نجد في القرآن كلّه عبارة "الإيمان بالله" إلا وتكون مقترنة بعبارة "واليوم الآخر".

ب– ضرورة التدبّر في آيات الله في الكون الذي خلقه الله وفق ناموس العدل والقسط، يقول الله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [العنكبوت: 44]، «فكمال الخلق بالحقّ من لوازمه كمالٌ في التصرّف بالحقّ»[3]، وهو من صفاته سبحانه: الحقّ الذي يقتضي وجود عدالة في كلّ شيء.

ت– لم يُبنَ الإسلامُ على الإكراه ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ ﴾ [ق: 45]، القرآن يسوق البراهين والأدلّة لكلّ من كان له قلب وبصيرة وعقل فمن آمن فله الجنّة ومن كفر فله العقاب وهذا من حكمة الله سبحانه وتعالى في خلقه ومن تمَام عدله عزّ وجل.

ث– اختُتِمت سورة "**ق**" بأمرٍ من الله لرسوله بأن يذكّر بالقرآن: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ

[1] فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، م س، ج28، ص: 158.

[2] مُحَمَّد النابلسي، م س، محتوى سمعي بصري.

[3] مُحَمَّد النابلسي، م ن.

وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: 45]. القرآن هو السّبيل الوحيد للتّذكرة، وهو السّبيل الوحيد للهداية، ومن ابتغى سبيلا غير ذلك فسيضلّ ويشقى.

من هنا تتجلّى مهمّة الرّسل على مرّ الأزمان وهي تبليغ الدّعوة وتذكير الأقوام الذين بعثوا إليهم بما جاء في الرّسالات التي أُنزلت إليهم، فالرّسل سفراء الله إلى عباده، وحَملة وحيه قال الله تعالى في كتابه المبين: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [النحل: 36]، فبيّن سبحانه وتعالى أنّ الرّسل جميعا بُعِثوا لهذا الأمر العظيم؛ للدّعوة إلى عبادة الله وحده، واجتناب الطّاغوت.

الفصل الأوّل:

خصائص الخطاب الدّعوي ورهاناته.

- المبحث الأوّل: التّأصيل النّظري لمسألة الدّعوة.
- المبحث الثّاني: الخطاب الدّعوي، مفهومه وخصائصه.
- المبحث الثّالث: تحدّيات الخطاب الدّعوي ورهاناته.
- المبحث الرّابع: التصوّر القرآني للخطاب الدّعوي.

المبحث الأوّل:

التّأصيل النّظري لمسألة الدّعوة.

- الإطار المفاهيمي للدّعوة.
- حكم تبليغ الدّعوة.
- فضل الدّعوة إلى الله.

توطئة:

خلق الله عزّ وجلّ بني البشر ليعمروا الأرض ويكونوا خلائف له فيها، وكان الله يصطفي من بين ظهرانيهم أنبياء لوحيه ورسلا ليبلّغوا رسالاتِه ابتداءً من سيّدنا آدم عليه السلام وانتهاء بسيّدنا مُحَمَّد ﷺ، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥﴾ [النساء: 165]، فتحقّقت مِنَّةُ الله على عباده بأَنْ أرسل الرّسل مبشّرين ومنذرين.

تمثّلت مهمّة الأنبياء والرّسل في إخراج النّاس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وكانت بعثتهم على توالي العصور والأزمان بحسب مُقتَضى الأمم والشّعوب والأقوام؛ فكلّما ابتعد النّاس عن دين الله أرسل الله إليهم رسولا ليهديَهم إلى سواء السّبيل. قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [النحل: 36].

لما لم تكن الأمم السّابقة «بحسب أوضاعها الفكريّة والحضاريّة والنّفسية مؤهَّلةً لحفظ كتاب الله وحفظ دينه من التّحريف والتّغيير، ولا أمينةً عليه، ولا قائمةً بنشر دين الله صافيا من الشّوائب والتّحريفات والمفاهيم والأحكام والعبادات الدَّخيلة عليه»[1]، لم يتمّ اصطِفاؤها من الله تعالى لحمل كتابه وتبليغ رسالته على الوجه الذي يُرضيه سبحانه.

عندما صعِدت الإنسانيةُ في مدارج النُّضج الفكريّ، واتّسعت آفاقها، تجلّت حكمة الله في اختيار أمّة سيدّنا **مُحَمَّد** ﷺ لتكون أهلا لحمل الأمانة وتنال شرف تبليغ الدّين للنّاس كافّة، أمّة لا تزال تتجدّد وتتوارث نشر رسالة الإسلام لتكون خير خلف لخير سلف. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر: 32].

[1] حسن حبنكة الميداني، فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد، ج1، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 1996، ص: 23.

يقول **ابن كثير** في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى: ثمّ جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدّق لما بين يديه من الكتب، الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمّة، ثمّ قسّمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهو: المفَرِّط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرّمات. ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو: المؤدّي للواجبات، التّارك للمحرّمات، وقد يترك بعض المستحبّات، ويفعل بعض المكروهات. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهو: الفّاعل للواجبات والمستحبّات، التّارك للمحرّمات والمكروهات وبعض المباحات»[1].

فقد ختم الله رسالاته برسالة سيّدنا مُحَمَّد ﷺ، وجعل الأمّة الإسلامية هي الأمّة الخاتمة المصطفاة بحكمته لحمل كتابه الخاتم القرآن، فهي المؤهّلة في علمه سبحانه لتبليغ هذا الكتاب للعالمين على مرّ العصور والأزمان، على الرّغم من وجود المقصّرين والظّالمين لأنفسهم بارتكاب المعاصي فالأخيرية مكفولة لهذه الأمّة بنصّ كتابه الكريم في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

فمناط الأمّة الإسلامية هو تبليغ دين الله للنّاس أجمعين، ويكون ذلك بانتهاج سُبُل المرسلين واعتماد مختلف وسائل التّبليغ الحصيفة الفعّالة، التي أرشدنا الله إليها في كتابه الكريم، أو أَعْرَبَ عنها الرّسول ﷺ في سنّته، أو توصّل إليها الدّعاة الرّاسخون من خلال التّجربة والممارسة.

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م س، ج6، ص: 184.

تعيش الأمّة الإسلاميّة اليوم قاب قوسين أو أدنى من التحلّل من عهدها مع الله، وهي تنسلخ من لباس التّوحيد وتنساق مُخَدّرة وراء أصوات تعالت من هنا وهناك تنادي بالتحرّر ممّا يسمونه بأَصْفاد الدّين التي تُكَبِّل الإنسان وتَحُول دون انطلاقه وتقدّمه وانغماسه في ملذّات هذه الدنيا.

يقول **مُحَمَّد الغزالي**(ت1416هـ) «الإسلام أحْوَج الأديان الآن إلى من يتعلّمه على حقيقته النّازلة من ربّ العالمين، ثمّ يكرّس حياته لإنعاش المسلمين به، بعدما سقطوا في غيبوبة طويلة عِلّتها الأولى والأخيرة الجهل الطّامس البَليد. الإسلام أَحْوَج الأديان الآن إلى الدّعاة الذين يغسلون عنه ما التصق به من خرافات، ويقصّون من طريقه الحواجز التي شعّبت أهله، وقسّمتهم طوائفَ، ومذاهبَ».[1]

إنّ خير وأفضل ما يُصْرَف فيه العمر، ويُبذل فيه الجهد هو نشر دين الله وبيانه للنّاس، والدّعوة إلى الله من أجلّ الأعمال بعد الإيمان به سبحانه؛ لأنّها تأخذ بأيدي النّاس من غياهب الباطل إلى نور الحقّ. يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: 33]. فالدّعوة إلى الله تعالى هي دعوة إلى كلّ فضيلة ونبذ كلّ رذيلة.

1- الإطار المفاهيمي للدّعوة:

أ. التّعريف اللّغوي:

الدّعوة مشتقّة من الفعل الثّلاثي المعتلّ الآخر "دعا" الذي هو في الأصل دَعَوَ(لأنّ مصدره "دعوة" واستبدلت الواو ألفا لمناسبتها للفتحة). ولقد تنوّعت معاني هذه الكلمة من خلال المعاجم سواء كانت تراثية أو حداثية.

فقد جاء في مقاييس اللغة: «(دَعَوَ) الدّال والعين والحرف المعتلّ أصل واحد، وهو أن تُميل الشيء إليك بصوت أو كلام يكون منك، تقول دعوت أدعو دعاء، والدَّعوة إلى الطعام بالفتح، والدِّعوة في النَّسب بالكسر. قال **أبو عبيدة**: يُقال في النّسب دِعوة، وفي الطعام دَعوة. هذا أكثر كلام العرب إلا عَدِيَّ الرَباب، فإنّهم ينصبون الدّال في النّسب ويكسرونها في الطعام...وداعية اللّبن: ما يترك في الضّرع ليدعو ما بعده... وتداعت الحيطان، وذلك إذا سقط واحد، وآخر بعده، فكأنّ

[1] مُحَمَّد الغزالي، مع الله دراسات في الدّعوة والدّعاة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط6، 2005، ص: 7.

الأوّل دعا الثّانيَ... ودواعي الدّهر: صروفه، كأنّها تُميل الحوادث»[1]. فالجذر(د ع و) يتمحور حول معنى الإمالة والجذب بالكلام أو الأثر.

أمّا **الزمخشري** (ت 538هـ) فيقول: «ودعوت فلاناً وبفلان: ناديته وصحت به. وما بالدّار داعٍ ولا مجيبٍ. والنّادبة تدعو الميّت: ندبه. تقول: وازيداه. ودعاه إلى الوليمة، ودعاه إلى القتال. ودعا الله له وعليه، ودعا الله بالعافية والمغفرة. والنّبيّ داعي الله. وهم دعاة الحقّ، ودعاة الباطل والضّلالة. وتداعوا للرّحيل. وما بالدّار دعويٌ أي أحد يدعو. وأجيبوا داعية الخيل وهي صريخهم. وتداعوا في الحرب: اعتزّوا. وبينهم دعوى، وادّعى فلان دعوى باطلة. وشهدنا دعوة فلان. وهو دعيٌّ بين الدعوة»[2]. تتحوّل الدعوة هنا، من مجرّد نداء إلى فعل اجتماعي وديني وثقافي له أثر في الواقع والسّلوك.

وأمّا لسان العرب، فقد جاء فيه:«... والدّعوة : المرّة الواحدة من الدعاء... ودعا الرجل دعْوًا ودُعاء : ناداه ، والاسم الدّعوة . ودعوت فلانا أي صِحت به واستدعيته. فأمّا قوله تعالى : ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ﴾ [الحج: 13]؛ فإنّ أبا إسحاق ذهب إلى أنَّ يدعو بمنزلة: يقول ،... وكذلك قول عنترة :

يَدْعُونَ عَنْتَرَ ، وَالرِّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لِبَانِ الأَدْهَمِ

معناه يقولون : يا عنتر ، فدلّت يدعون عليها ... وتداعى القوم : دعا بعضهم بعضا حتّى يجتمعوا ... وفي الحديث: "الخلافةُ في قُريش والحُكم في الأنصار والدّعوة في الحبشة"؛ أراد بالدّعوة الأذان جعله فيهم تفضيلا لمؤذّنه بلال ...»[3]. يتجاوز المعنى هنا النداء الظاهري، ليحمل دلالات قولية، جماعية، رمزية ودينية.

وجاء في المصباح المنير: «(د ع و): دعوت الله أدعوه دعاء ابتهلت إليه بالسّؤال ورغبت فيما عنده من الخير، ودعوت زيدا ناديته وطلبت إقباله، ودعا المؤذّن النّاس إلى الصّلاة فهو داعيَ الله والجمع دعاة وداعون مثل: قاضٍ وقُضاة وقاضون، والنبيّ داعيَ الخلق إلى التّوحيد ودعوتُ الولد زيدًا

[1] ابن فارس، مقاييس اللغة، تح مُحَمَّد هارون، ج 2، دار الفكر، دمشق، سوريا، (دط)، 1979، ص ص: 279-280.
[2] الزمخشري، أسرار البلاغة، تح: مُحَمَّد باسل عيون السود، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (دط)، 1998، ص: 288.
[3] ابن منظور، لسان العرب، ج 14، دار صادر بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ، ص: 258.

وبزيد إذا سمّيته بهذا الاسم...»[1]. يدور المعنى حول الطلب والنّداء، سواء كان ذلك في السّؤال والدّعاء إلى الله، أو في مناداة الإنسان واستدعائه.

وجاء في المعجم الوسيط في باب الدّعوة: «الدَّعْوَةُ يقال: هو منى[كذا] دَعوة الرَّجُلِ: بيني وبينه قدرُ ما بيني وبين الذى أدعوه. ولبني فلان الدَّعوة على غيرهم: يُبْدَأُ بهم في الدُّعاء لأخذ العطاء. والدَّعْوَةُ ما يُدعى إليه من طعامٍ أو شراب. يقال: نحنُ في دعوة فلان. ويقال: كُنَّا في دعوة فلان: في ضيافته. والدَّعْوَةُ الادِّعاء»[2].يتنوّع المعنى بحسب السّياق بين قربٍ، ونداء، وكرمٍ، وتملّك.

❖ نخلص ممّا سبق بأنّ لـ" الدّعوة" في اللّغة معانٍ عديدة منها: إمالة الشيء إليك بصوت أو كلام يكون منك، النّداء والصّياح والصّريخ والحثّ على قصد الشيء، مصدر المرّة من الدّعاء، القول، الآذان، الابتهال لله سبحانه وتعالى، الطّلب، التّسمية، القَدْر والمكانة، الادِّعاء، وما يُدعى إليه من طعام وشراب. ولقد شملت معانٍ مجازية كتداعي الحيطان ونوائب الدّهر؛ ونجد أنّ السياق هو الحَكَم في إيراد معنى دونَ الآخر.

إنّ ما يهمّنا من هذه المعاني اللّغوية هو الحثّ والاستمالة؛ لأنّ كلمة " دعوة " «تفيد لغويا كلّ محاولة قولية أو فعلية يُرجى من ورائها تحقيق هدف أو عمل، و...نجد أنّ كلمة " الدّعوة " مشترك لفظي يُطلق على الإسلام وعلى عمليّة نشره، والسّياق هو الفَصْلُ في تحديد المعنى المراد» [3].فمن دعا إلى الشيء فقد حثّ على قصده، وسأل غيره أن يجيبه إليه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]. والدّعوة كما تكون إلى الحقّ والخير، تكون إلى الباطل والشرّ.

❖ باعتبار كلمة "الدّعوة" مشتركا لفظيا فسنَقْتَصِر في التّعريف الاصطلاحي على المعنى الثّاني المتمثّل في النّشر والإبلاغ.

ب. التّعريف الاصطلاحي:

كما رأينا في المطلب السّابق أنّ لـ "الدّعوة" معنيين:

---

[1] الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير،ج1، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، (دط)، (دت)، ص: 194.

[2] نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2004، ص:287.

[3] ينظر: أحمد غلوش، الدّعوة الإسلامية(أصولها ووسائلها)، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر، ط2، 1987، ص: 10.

- **الأوّل**: الدّعوة بمعنى الإسلام أو الرّسالة.
- **الثّاني**: الدّعوة بمعنى عمليّة نشر الإسلام وتبليغ الرّسالة.

وبذلك فإنّ التّعريف الاصطلاحي للدّعوة بالمعنى الأوّل يُغايِر تعريف الدّعوة بالمعنى الثّاني، لذلك وَجَبَ التّمييز بينهما. وقد تعدّدت التّعريفات (حسب المعنى الثّاني للدّعوة) بحسب تعدّد مقاصد الذين كتبوا في فنّ الدّعوة، نورد فيما يلي بعضًا منها:

عرَّفها **ابن تيمية** (ت728هـ) بقوله: «الدّعوة إلى الله هي الدّعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أُخبِروا به، وطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمّن الدّعوة إلى الشهادتين وإقام الصّلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحجّ البيت، والدّعوة إلى الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشرّه والدّعوة إلى أن يَعبد العبدُ ربّه كأنّه يراه»[1]. نخلُص من هذا التّعريف أنّ الدّعوة يجب أن تكون وِفق أركان الإسلام الإيمانية والعمليّة، وأنّها ميراث الأنبياء؛ فهي امتداد لخُطاهم لا تحيد عن منهجهم في التّبليغ والإرشاد.

وعرّفها **علي محفوظ** (ت1361هـ) بقوله: «حثّ الناس على الخير والهدى، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل، وهي ثلاثة أنواع:

أ) دعوة الأمّة المحمّدية جميعَ الأُمم إلى الإسلام.

ب) دعوة المسلمين بعضهم بعضا إلى الخير.

ت) ما يكون للفرد في بيته بين أهله»[2].

نلحظ أن النّوع الأوّل يقوم به خواصُّ الأمّة ممن اضطلع بأمور الدّين والتّشريع، مِصْداقا لقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ [آل عمران: 104]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ [التوبة: 122]، أمّا النّوع الثّاني

[1] مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية 15/ 157-158، نقلا عن: مُحَمَّد عبد العزيز العوّاجي، الدّعوة إلى الله: التّعريف والتّأصيل،مج1، مكتب الدراسات والاستشارات التربوية والتعليمية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2022، ص:28.

[2] ينظر: علي محفوظ، هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، دار الاعتصام، ط9، 1979، ص:17.

والثّالث، فيستوي فيه العامّة والخاصّة، وهذا ما يتجلّى في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر1-3]. فالتّواصي بالخير يدخل في باب الدّعوة (وهذا ما سنركّز عليه في بحثنا).

أمّا **أحمد غلوش**(ت1388هـ) فقال: «من المعلوم أنّ الدّعوة بمعنى النّشر والبلاغ صارت عِلما مستقلّا له موضوعه، وخصائصه، وأهدافه، وهو بذلك يُواكب سائر العلوم الإسلامية، يُفيدها ويستفيد منها. ويشاركها في إفادة الإسلام برسم طريق منهجيّ يكفل له الانتشارَ والذيوع»[1]. نلحظ أنّ هذا التّعريف اعتبر الدّعوة علما قائما بذاته، كباقي العلوم الإسلامية كعلم الأصول والفقه والشّريعة... له أصوله وقواعده، ممّا يجعل ممارسة الدّعوة تكون وفق منهج مدروس ولا تكون عشوائيةَ المسار فتحيد عن أهدافها ومراميها.

وهناك من عرَّفَ الدّعوة بوصفها برنامجًا كاملاً «... يضمّ في أطْوائه جميع المعارف التي يحتاج إليها النّاس ليُبصروا الغاية من محياهم، وليستكشفوا معالم الطّريق التي تجعلهم راشدين»[2]. يَعُدّ هذا التّعريف الدّعوة برنامجا يحوي مجموعة كاملة من المعارف التي يحتاجها النّاس في حياتهم، لكنّه لم يحدّد ماهية هذه المعارف! حتّى أنّه وُصِف «بالتّعريف الفضفاض الذي يَصْعُب فيه تبيُّن الملامح الخاصّة للدّعوة»[3].

وقد عُرّفت الدّعوة أيضا بأنّها «تبليغ النّاس جميعا دعوة الإسلام، وهدايتهم إليها قولا وعملا في كلّ زمان ومكان، بأساليبَ ووسائلَ خاصّة تتناسب مع المدعوّين على مختلف أصنافهم وعصورهم»[4]. ركزّ هذا التّعريف على الهدف الرّئيس للدّعوة، وهو تبليغ النّاس كافّة دين الإسلام،

[1] أحمد غلوش، الدّعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، م س، ص:10.

[2] مُحَمَّد الغزالي، مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، م س، ص:13.

[3] ينظر: بيان صالح حسن، أسلوب الإمامين القرطبي والقرافي في دعوة النّصارى إلى الإسلام(دراسة مقارنة)، قسم الدّعوة والاحتساب، كليّة الدّعوة والإعلام، جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلاميّة، المملكة العربيّة السعوديّة، 1420-1421هـ، ص: 11.

[4] مُحَمَّد أمين حسن، خصائص الدّعوة الإسلاميّة، مكتبة المنار، الأردن، ط 1، 1983، ص: 17.

باختلافهم: أجناسا وعصورا، فشمل بذلك المكان والزّمان، لكنّه ركّز على جانبين من الدّين وهما: القَوْليّ والعمليّ، وأغفل الجانب العقائديّ .

❖ **خلاصة القول:**

نخلص في الأخير، بأنّ الدّعوة هي: عمليّة تبليغ النّاس كافّة- مع مراعاة الزّمان والمكان- رسالة الإسلام عقيدةً وشريعةً، وتعليمها إيّاهم، وتطبيقها في واقع الحياة وفق منهج ربانيّ، بأساليب ووسائل مستقاة من القرآن الكريم والسنّة النّبوية لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢ ﴾ [الجمعة: 2]:

➢ فشمل قولُه سبحانه: ﴿ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ ﴾: البيان والتّبليغ، وهو أوّل عنصر في الدّعوة.

➢ كما شمل قوله: ﴿ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ :التربية والتّعليم، وهو ما يسمّى بعملية "التّكوين".

➢ وشمل قوله: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ : التّطبيق والتّنفيذ، لأنّ الكتاب هو القرآن الكريم، والحكمة هي السنّة النّبوية -كما ذهب إليه جمهور العلماء-[1] والسنّة هي الطّريقة فالمراد هنا هو: طريقة تطبيق القرآن على مستوى الفرد والجماعة.

وهي ثلاثة أقسام:

***دعوة أعمّ**: لغير المسلمين. ***دعوة عامّة**: بين المسلمين. ***دعوة خاصّة**: للفرد بين أهله وفي بيته.

وقد جاء من مرادفات مصطلح الدّعوة في القرآن والسنّة: البيان، والتّذكير، والتّعليم، والإصلاح، والنّصيحة، والدّلالة إلى الخير، والتّواصي، والبشارة والنّذارة، والتّعاون على البرّ والتّقوى، والإرشاد، والوعظ.

[1] ينظر : الشافعي، الرسالة، تح: أحمد محمّد شاكر، مصطفى البابي وأولاده، مصر، ط1، 1938، ص: 78.

2- حكم تبليغ الدّعوة:

اتّفق العلماء جملةً على وجوب الدّعوة إلى الله، «عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال:(بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً)[1]. ولكنّ مدارَ الاختلاف يكْمُن في حكم الدّعوة بين الواجب العَيْنِيّ، والواجب الكفائي، وبكلٍّ أدلى جماعةٌ من هؤلاء حيث انقسموا إلى فريقين:

❖ فريق يرى أنّ الدّعوة هي فرض كفاية قد فُرضت على «الجميع ابتداءً ولكنّه يَسقط عنهم إذا أدّاه البعض منهم»[2]. وقد استدلّ هذا الفريق بقوله تعالى:

أ- ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: 104]. فاستندوا على أنّ (مِنَ) تفيد التّبعيض، وبالتّالي يكون مفهوم الآية: أن يكون هناك طائفة من المسلمين تأخذ على عاتقها نشرَ الدّعوة بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. وهذا ما ذكره **ابن كثير**، في تفسيره لهذه الآية بقوله: «أن تكون فرقة من هذه الأمّة مُتَصّدِيَةً لهذا الشّأن، وإن كان ذلك واجبا على كلّ فرد من الأمّة بحسبه، كما ثبت في صحيح **مسلم**، عن **أبي هريرة** قال: قال رسول الله ﷺ (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِه، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ)»[3]. «وفي رواية: (وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[4].

وهذا ما ذكره **فخر الدّين الرّازي**، لما قال: «أنّ فائدة كلمة (من) هي أنّ في القوم من لا يقدر على الدّعوة ولا على الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر مثل النّساء والمرضى والعاجزين وأنّ هذا التّكليف مختصّ بالعلماء...»[5]. إنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر يتطلّب القدرة على الاتيان بهما، إذ ليس ذلك في استطاعة أيٍّ كان، ثمّ إنّ الدّعوة إلى الخير مشروطة بالعلم بالخير والمعروف والمنكر، وهذا ما لا نجده عند الجاهل بأمور الدّين، من هنا يثبت أنّ هذا التّكليف موجَّه إلى العلماء الذين يمثّلون بعض الأمّة.

---

[1] مُحَمَّد البخاري، صحيح البخاري، م س، ج4، ص: 170.

[2] أحمد غلوش، م س، ص: 236.

[3] ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م س، ج2، ص: 78 .

[4] م ن، ص: 78.

[5] ينظر: فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، م س، ج8، ص: 314.

ب- ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة: 122].قال **محمّد رشيد رضا** (ت1354هـ)، في تفسير هذه الآية: «والآية تدلّ على وجوب تعميم العلم والتفقّه في الدّين والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة وتفقيه النّاس فيه على الوجه الذي يصلح به حالهم، ويكونون به هداة لغيرهم»[1]. فدلّت الآية على وجوب بقاء فرقة من المسلمين تنشغل بالتفقّه في الدّين لتُنذِر بقيّة القوم الذين خَرَجُوا للجهاد متى عادوا.

ت- ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: 125]. يأمر الله سبحانه وتعالى نبيّه الكريم ﷺ ومن تبعه بالدّعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، والتي تُمثّل الأُطُرَ الثلاث للدّعوة، مع العلم أنّ الأمر غير مهيّأ لكافّة النّاس.

ويؤيّد **الزمخشري** هذا القول حيث بيّن أنّ «الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر من فروض الكفايات، ولأنّه لا يصلح له إلّا من علم المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتّب الأمر في إقامته وكيف يباشر، فإنّ الجاهل ربّما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وربّما عَرف الحُكم في مذهبه وجَهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر، وقد يُغلِّظ في موضع اللّين، ويلين في موضع الغِلْظَة، ويُنْكِر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديًا، أو على مَنِ الإنْكَارُ عليه عبثٌ»[2]. يُعدّ العلم، والحكمة، وفقه المقام من الشروط الأساسية لممارسة فريضة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

❖ وفريق يرى بأنّ الدّعوة هي فرض عين، على كلّ مكلَّف حسب طاقته، واستدلّ هذا الفريق أيضا بقوله تعالى:

أ- ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾ [آل عمران: 104]، نفس الآية السّابقة ، لكن على اعتِبار (مِنَ) بيانية وليست تبعيضية، يقول **فخر الدين الرّازي**«(مِنَ) هاهنا ليست للتّبعيض لدليلين: الأوّل: أنّ الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر على كلّ الأمّة في قوله:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

[1] محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الكريم(تفسير المنار)، ج 11، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ، (دط)، 1990، ص: 63.
[2] الزمخشري، الكشاف، ج1، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، ط3، 1978، ص : 396.

لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: 110]، والثّاني: هو أنّه لا مكلَّف إلّا ويجب عليه الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، إمّا بيده، أو بلسانه، أو بقلبه... فنقول: معنى هذه الآية كونوا أمّة دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، وأمّا كلمة (مِنَ) فهي هنا للتّبيين لا للتّبعيض كقوله تعالى: ﴿ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ [الحج: 30]»[1]. فالمسلم مطالبٌ بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر متى استطاع إلى ذلك سبيلا، وذلك مَناطُ الإيمان.

ب- ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: 110]، إنّ الخطاب هنا موجَّه لكلّ الأمّة دون إقصاء، فقد حازت قَصَبَ السَّبق إلى الخيرات بنبيها مُحَمَّد ﷺ، ورد في تفسير **ابن كثير** «عن **مُحَمَّد بن علي** وهو ابن الحنفية أنّه سمع **علي بن أبي طالب** ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: (أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنْ الأَنْبِيَاءِ). فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هُوَ؟ قَالَ: (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الأَرْضِ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الأَمَمِ)»[2]. فالأمّة الإسلاميّة أمّة دعوة، وقد نالت هذه الخيريّة بفضل هذه الصّفات: الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، والإيمان بالله.

❖ **مناقشة وتحليل:**

إنّ الخلاف بين أهل العلم في مسألة الدّعوة من حيث نوع الوجوب بين الفرض العينيّ والفرض الكفائي، ينحصر في نقاط يسيرة هي:

أ- الاختلاف في ورود (مِنَ) في قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾ [آل عمران: 104]، بين كونها تبعيضية أو بيانية، فاحتمال الوجهين يَسقط الاستدلال بهكذا دليل.

ب- القول بأنّ شرط القيام بالدّعوة التفقّه في الدّين، وأنّها مناط العلماء، بَيْدَ أنّه من المفترض أن يكون المسلم على قَدْر يسيرٍ من الاطّلاع على أصول دينه، يقول **الإمام النّووي** (ت676هـ): «...إنّما يأمر وينهى من كان عالما بما يأمر به وينهى عنه وذلك يختلف باختلاف الشّيء، فإن كان من الواجبات الظّاهرة والمحرّمات المشهورة كالصّلاة والصّيام والزّنا والخمر ونحوها فكلّ المسلمين علماء

[1] ينظر: فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، م س، ج8، ص: 314

[2] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م س، ج2، ص:81.

بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال وممّا يتعلّق بالاجتهاد، لم يكُن للعَوام مَدخل فيه ولا لهم إنكاره بل ذلك للعلماء...»[1]، فيكون التفقّه في الدّين شاملا على الأقلّ أمور الحلال والحرام، وإلّا لا يكون المرء مسلما!

ت– كون القيام بالدّعوة من قبل البّعض يُسقطها عن البّعض الآخر، أمرٌ غير قائم ولا صحّة له، حيث يبقى الوجوب مادام موجب الدّعوة قائما. وإلّا لما رأينا صحابة رسول الله ﷺ يضْطَلِعون بواجب الدّعوة والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والرّسول ﷺ قائد الأمّة والمكلّف بالدّعوة، يعيش بين ظُهْرانيهم.

أمّا فيما يخصّ نقاط الوفاق، فالكلّ يُجمع أنّ العُدول والإحجام عن القيام بواجب الدّعوة والتّقصير فيها يوجب اللّعنةَ، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [البقرة: 159]، تدلّ الآية على أنّ كتمان العلم يعدّ من الكبائرِ، حتّى أنّه يوجِب اللّعْن لصاحبه. ويقول تعالى في بني اسرائيل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة: 78-79]، «عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ :(إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا رَأَى أَخَاهُ عَلَى الذَّنْبِ نَهَاهُ عَنْهُ تَعْذِيرًا، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ لَمْ يَمْنَعْهُ مَا رَأَى مِنْهُ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَه وخَلِيطه وشَرِيكه –وَفِي حَدِيثِ هَارُونَ: وَشِرِّيبَهُ، ثُمَّ اتَّفَقَا فِي الْمَتْنِ–فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، ضَرَبَ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)،ثمّ قال رسول الله ﷺ :(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الْمُسِيءِ، ولتأطرُنَّه عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، أَوْ ليلعَنْكم كَمَا لَعَنَهُمْ)»[2].

[1] الإمام النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج2 ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1396هـ، ص:23.

[2] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م س، ج3، ص: 146.

إنّ مجرّد السّكوت على المعصية يُعَدُّ معصيةً، وعدم رَدْعِ العُصاة يُقوّي من شوكتهم، فيسْتَفْحِلُ الشرّ ويُصبِح من العَسير مقاومته. إنّ عدم إنكار المنكَر يجعلُه يتكَرَّر حتّى يصبح مألوفًا، وربّما استحسنه النّاس، فينقلب الباطلُ حقًّا، وتُزيَّن المعْصِية في النّفوس خاصّة إذا صدرت من أُناس لهم صيتٌ في المجتمع.

❖ **خلاصة القول:**

- اتّفاق العلماء على وجوب الدّعوة إلى الله(بأقسامها الثّلاثة).
- اتّفاق العلماء على أنّ من متطلّبات الدّعوة: العلم والبصيرة والتفقّه في الدّين.
- مناط الوجوب هو القدرة والاستطاعة.
- تولّي طائفة من المسلمين أمر الدّعوة وتفرّغهم لها فرض كفاية على الأمّة، وقيام الفرد بها بحسب استطاعته فرض عين.
- التّأكيد على أنّ الدّعوة أعمّ، وعامّة، وخاصّة، أما الأعمّ فهي فرض كفاية في حال انتصاب دعاة ثقة لها، كان ذلك كفاية ليسقط عن البّاقين ذلك الواجب (مع العلم أنّه إذا توفّرت الطّاقة والقدرة على الدّعوة كان من الواجب عدم التّقاعس عن أدائها والمبادرة إليها، وكان ذلك من باب التّنافس على الخيرات والسّبق إلى الطّاعات). وأمّا العامّة بين سائر المسلمين فالحكم بين فرض الكفاية وفرض العين «فعند قلّة الدّعاة، وعند كثرة المنكرات، وعند غلبة الجهل –كحالنا اليوم–تكون الدّعوة فرض عين على كلّ واحد بحسب طاقته»[1]. أمّا فيما يخصّ الخاصّة، فقد جاء في قول رسول الله ﷺ:(كُلُّكُمْ رَاعٍ، وكُلُكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالأَمِيرُ رَاعٍ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، والمرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)[2]، ما يُبرز حكمها، إذ هي واجب عيني، في بيت الفرد، بين أهله.

أخيرا ونظرا لانتشار الدّعوة النّصرانية في الكثير من البُلدان الإسلاميّة، وحتّى دعوات الإلحاد وإنكارِ ربِّ العباد، وإنْكَار الرّسالات، وإنكار الآخرة، والكّثيرِ من الدَّعوات المضَلّلة، «نظرًا لكلّ هذا

[1] عبد العزيز بن باز، الدعوة إلى الله وأخلاق الدّعاة، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط4، 2002، ص: 18.

[2] مُحَمَّد البخاري، صحيح البخاري، م س، ج7، ص: 31.

نقول: باتت الدّعوة إلى الله فرضًا عامًّا، ومن السُنَّة المؤكّدة على جميعِ مَنْ يَدين بدين الإسلام سواء كان فردا، عالما ، أوحاكما»[1]. إنّ أمر الدّعوة إلى الله، في عصرنا هذا مُيسَّرٌ أكثرَ من أيّ وقت مضى، ولا عذر لأيٍّ كان لعدم إقامة الحجّة على النّاس في دينهم.

3- فضل الدّعوة إلى الله:

إنّ الدّعوة إلى الله من أشرف المقامات وأجلّها وأفضلها، ولقد ورد في فضل الدّعوة والدّعاة، من القرآن الكريم والأحاديث النّبوية، الكثير من الشواهد نورد بعضاً منها:

❖ **من القرآن الكريم:**

من ذلك قوله تعالى:

أ) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: 33]. ففي هذه الآية استفهام تقريريّ بمعنى النّفي: أي لا أحد أحسن قولا ممّن دعا إلى الله وبلّغ رسالته، يقول فخر الدين الرّازي: «الآية تدلّ على أنّ أحسن الأقوال قول من جمع بين خصال ثلاثة أولّها: الدّعوة إلى الله وثانيها: العمل الصالح وثالثها: أن يكون من المسلمين»[2]، فهو ميراث الأنبياء والصّالحين، ثمّ عمل بما يدعو إليه، وإلاّ كان كمن قال فيهم سبحانه: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: 44].

ب)﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: 108]. يقول "**ابن قيم الجوزية**"(ت751هـ)، في تفسير هذه الآية:« وإذا كانت الدّعوة الى الله أشرف مقامات العبد وأجلّها وأفضلها، فهي لا تحصُل إلّا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بدّ في كمال الدّعوة من البلوغ في العلم إلى حدّ يصل إليه السّعي، ويكفي هذا في شرف العلم أنّ صاحبه يحوزُ به هذا المقام والله يؤتي فضله من يشاء»[3]. لتحقيق كمال الدّعوة، لا بدّ من بلوغ الدّاعية لمرتبة العلم المطلوب، فالمقام الدّعوي لا يُتحقّق إلّا بسلاح العلم.

---

[1] ينظر: عبد العزيز بن باز، م س، ص:20.

[2] فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير، م س، ج27، ص: 564.

[3] ابن القيم، تفسير القرآن الكريم، م س، ص: 332.

يُشكّل الدّعاة إلى الله طليعة الهدى في واقعٍ تغشاه ظلمات الجهل، ومظاهر الغفلة، فهم روّاد الإصلاح وبوادر اليقظة، يمضون على نهج الأنبياء والصّالحين بثباتٍ والتزام، دون أن يحيدوا عن الحقّ أو يتنازلوا عن مبادئ الدّعوة. وقد رسم القرآن الكريم ملامحهم، وبيّن مكانتهم، باعتبارهم حملة الرّسالة ومجسّدي معالم الهداية في الواقع الإنساني.

ت)﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة: 71]. جاء في معنى الآية «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يعني: بعضهم على دين بعض، وبعضهم معين لبعض في الطّاعة»[1]. فمن صفات المؤمنين التّواصي بالحقّ فيما بينهم، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر (فضلا عن الصّفات المذكورة في الآية)، وبذلك حقّت لهم رحمته سبحانه.

إنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر يندرج في نطاق الدّعوة إلى الله تعالى، ويختلف عنها في مجموعة من الأمور نلخّصها في هذا الجدول:[2]

الدّعوة	الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر
شاملة لكلّ أمور الدين.	يقتصر على الأعمال والأقوال.
المخاطَب: المسلم وغير المسلم.	المخاطَب: المسلم فقط.
غير مشروطة بوقت.	مشروط بالحاجة لإقامة المعروف أو إزالة المنكر.
تكون بالحكمة والموعظة الحسنة.	يكون بالحزم والقوّة.
ميدانها أوسع.	ميدانه أضيق.
يشترط توفّر العلم، للمتصدّر لها.	إضافة إلى العلم، يشترط توفّر القدرة على التّغيير.

[1] السمرقندي، بحر العلوم، تح: الشيخ علي مُحَمَّد معوض وآخرون، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص:61.

[2] ينظر: مُحَمَّد العواجي، موسوعة دليل الدّاعية، م س ، ص ص:68-69.

فالعلاقة بين الدّعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، هي علاقة عموم وخصوص.

❖ **من السنّة النّبوية:**

تتبيّن فضيلة الدّعوة إلى الله من خلال سنّة النبي ﷺ ، نذكر من ذلك:

أ) عن **أنس بن مالك** (ت 90هـ) قال: قال رسول الله ﷺ (نَضَّرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا، ثُمَّ بَلَّغَهَا عَنِّي، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ)[1]. نجد الرّسول ﷺ يدعو لمن يبلّغ عنه مقالته بعد وعيها بنَضَارةِ الوجه وهو حسنُه وجمالُه، يقول **السّيوطي**(ت911هـ) في تفسير الحديث «...خصّ بالبهجة والسّرور والمنزلة في النّاس في الدّنيا ونعمة في الآخرة حتّى يرى رَوْنَقَ الرضاء[كذا] والنّعمة، لأنّه سعى في نضارة العلم وتجديد السُنَّة»[2].فتبليغ العلم من أَجَلِّ الأعمال لأنّه يرفع الجهل عن النّاس ويُعلّمهم أمور دينهم ودنياهم.

ب) عن **أبي أمامة الباهلي**(ت86هـ) قال: « ذُكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ: (فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ)، ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِين، وَحَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ)»[3].

ومعنى يصلّون عليه: يستغفرون له ويطلبون له الأجر والثّواب «أي: يدعون بالخير على معلّمِ النّاسِ الخيرَ؛ قيل: أراد بالخير هنا علم الدين وما به نجاة الرجل، ولم يطلقِ الْمُعَلِّمَ لِيُعْلَمَ أنّ استحقاق الدّعاء لأجل تعليم علم موصّل إلى الخير، وفيه إشارة إلى وجه الأفضَليّة بأنّ نفْعَ العلم متعدٍّ، ونفع العبادة قاصِر»[4]. تتجلّى منزلة معلّم النّاس الخير والدّاعيَ له حتّى أنّ دوابّ الأرض تدعو له، لأنّه متى صَلُح النّاس رُفِع غضب الربّ وعمّت نعمُه السّمواتِ والأرَضِينَ.

ت)عن حديث أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال:(مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الأَجْرِ

---

[1] ابن ماجة، سنن ابن ماجة، تح: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، ، ج1، دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي، (دط)، (دت)، ص:86.

[2] السّيوطي وغيره، شروح سنن ابن ماجة، تح: رائد بن صبري، بيت الأفكار الدولية، ط1، (دت)، ص: 159.

[3] التّرمذي، الجامع الكبير(سنن الترمذي)، تح: بشار عواد معروف، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص:416.

[4] علي الهروي، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ج1، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص: 298.

مِثْلَ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا)[1]. إنّ الدّعوة إلى الهدى هي الحثّ على العلم النّافع والعمل الصالح، وتتجلّى ثمارها في الخير الذي يعود على الفرد والمجتمع. وعن **أبي مسعود الأنصاري** قال أنّ النّبي ﷺ قال: (مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلَ أَجْرِ فَاعِلِه)[2]. وحَسْبُ المرء فضيلة أن يكون له من الأجر مثل أجور من انتفع بالخير الذي نشره. ومثله حديث رسول الله ﷺ (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ. مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ. وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ. مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)[3].

ث)عن **أنس بن مالك** (ت91هـ)، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ، مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ)[4]. يدعو الرّسول ﷺ في هذا الحديث لمن كان سببا في نشر الخير بين النّاس بأن يكون أجره الجنّة.

ج) عن **أبي موسى**، عن النّبي ﷺ قال:(مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)[5].

ذُكر ثلاثة أصناف من العباد في هذا الحديث مع تمثيلهم بأدقّ تصوير لهم:

- صنف يتلقّى العلم فينتفع به وينفع غيره فهو كالأرض النقيّة التي تستقبل الريّ فتنبت من كلّ زوج بهيج رزقا للعباد والدوابّ.

[1] أبو الحسين مسلم، صحيح مسلم، تح: مُحَمَّد فِاد عبد الباقي، ج4، مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاه، القاهرة، مصر، (دط)، 1955، ص: 60.

[2] أبو الحسين مسلم، صحيح مسلم، م ن، ج3، ص: 506.

[3] م ن، ج2، ص: 704.

[4] ابن ماجة، سنن ابن ماجة، م س، ج1، ص: 86.

[5] مُحَمَّد البخاري، صحيح البخاري، م س، ج1، ص: 27.

- وصنف ثان يتلقّى العلم فلا ينتفع به سواء عن سوء فهم أو قلّة إدراك ولكنّه ينفع به غيره بنقل العلم إليه، فهو كالأرض الجدباء التي لا تُنبت ولكنّها تمسك الماء لينتفع به الناس.
- وصنف ثالث يتلقّى العلم فلا ينتفِع به ولا ينفَع به غيره، فهو كالقيعان التي لا تُنبت ولا تُمسك ماء. ومثل هؤلاء كمن قال فيهم سبحانه:﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ [البقرة: 171].

ح) قال النّبي ﷺ **لعليّ بن أبي طالب** ﷺ حين أرسله ليفتح حصون خيبر:(فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ)[1]. إنّ أنفس ما كان يملكه العربيّ في ذلك الوقت هو الإبل، وحُمْر النّعم هي الإبل الحمر: أجوَدُ الإبل وأحسنها*، فهداية رجل واحد خير من قطيع من أجود الإبل وأحسنها. هكذا كان النّبي ﷺ يربّي أصحابه على استصغار الدنيا وتعظيم الآخرة وكلّ ما يقرّب إليها من عمل الهداية والدّعوة إلى الله.

❖ خلاصة القول:

لقد أشرنا من القرآن الكريم إلى بعض الشواهد التي وردت في فضل الدّعوة إلى الله، وكذلك من السنّة النّبوية الشّريفة ،وإنّه لغيض من فيض، وما ذلك إلّا دلالة على أهميّة الدّعوة إلى الله في حياة المسلم، فالله سبحانه وتعالى لما خلق سيدّنا آدم عليه السّلام قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: 30]، معنى ذلك أنّه استخلف هذا الإنسان الضّعيف في الأرض وحمّله أمانة الدّعوة إليه ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ [الأحزاب: 72].

وممّا زاد الدّعوة شرفا ونبلا، إسنادها إلى الله في الكثير من المواطن في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾ [يونس: 25]. والدّاعي إلى الله هو خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله، في تبليغ شرائعه، وفي بيان هديه وسنته. لم يُخلق الإنسان

[1] مُحَمَّد البخاري، صحيح البخاري، م س، ج5، ص: 18.

* ينظر: عبد اللطيف عاشور، موسوعة الطير والحيوان في الحديث النّبوي، مكتبة القرآن للطبع والنّشر والتّوزيع، القاهرة، (دط)، 1يناير 2000، ص: 149.

من أجل أن يعبد الله وكفى، وإلّا لأنزل الله من السّماء ملائكةً تعبده آناء الليل وأطراف النّهار، وإنّما خُلق الإنسان من أجل أن لا يُعبد على الأرض إلا الله، وهذه مفارقة كبيرة.

إنّ «الدّعوة إلى الله طريق مأنوسة، لم يفتتحها مُحَمَّد ﷺ، إنّما مشى فيها على أعقاب من سبقوه من إخوانه المرسلين الذين أوحى لهم الله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾ [الشورى: 13].ومعالم هذه الدّعوة لا ترسمها اجتهادات الأنبياء، ولا تنبع من فلسفات فكريّة خاصّة، بل هي توقيف من الله وتمشٍّ مع أمره، وأنّ البعد عنها هو مَيْلٌ مع الشهوات واتّباع للضّلالات»[1].فمعالم الدّعوة ليست نابعة من اجتهاد بشري أو رؤية فلسفية، بل هي توقيف إلاهي، تتجلّى في الوحي وتخضع لأمر الله. ومن ثمّ، فإنّ الانحراف عن هذا الطريق هو انقياد للشهوات، واتباع للضّلال، لا مجرّد اختلاف في الرأي أو اجتهاد في المنهج.

وممّا لا يخفى على ذي لبّ، أنّ فعل الدّعوة لا يتحقّق في واقعه إلا بتوافر مجموعة من الشّروط السّياقية والقدرات التّداولية، منها ما يملكه الدّاعية بوصفه فاعلًا لغويًا واعيًا، ومنها ما يظلّ مرتبطًا بالفعل الإلهي، كالهداية والتّوفيق. أمّا على مستوى الكفايات المتعلّقة بالمتكلِّم، فإنّ البيان، والحكمة، والحجّة، تُمثّل أدواتٍ تخاطبية جوهرية، يُفترض في الدّاعية امتلاكها لتقويم خطابه وضبط آثاره لدى المخاطَب. فالحمد لله الذي أمدّ عبده بتلك الآليات التّواصلية والمعرفية، وجعلها عونًا له في أداء وظيفته الدّعوية.

[1] مُحَمَّد الغزالي، مع الله : دراسات في الدّعوة والدّعاة، م س، ص:14.

المبحث الثّاني:

الخطاب الدّعوي مفهومه وخصائصه.

- الإطار المفاهيمي للخطاب الدّعوي.
- خصائص الخطاب الدّعوي في القرآن الكريم.

خلق الله الإنسان، وجعله خليفة له في الأرض لغايتين: تحقيق العبودية له سبحانه وتعالى، وإعمار الأرض والسّعي في مناكبها. و أوّل ميزة منحها الله لهذا الإنسان أن علّمه البيان ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾ [الرحمن: 1- 4]، وبهذه الخاصيّة التي ميّز بها الله الإنسان، مكّنه من الإفصاح عن نفسه، وأمكنه من القدرة على التّفاعل والتّفاهم والتّواصل...

إنّ البيان هو الأساس الأوّل الذي ينبني عليه التّكليف والمسؤولية، ويترتّب عليه الحساب والجزاء ويُعوَّل عليه في تحقيق الغايات العليا لهذا الدّين؛ البيان الذي تقوم به الحجّة، ويتمّ به البلاغ، ويصل به ما في خطاب الله لعباده من الهدى والبيّنات، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ [إبراهيم: 4]، ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [النحل: 44]،﴿ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٨ ﴾ [آل عمران: 138].

فجعل الله الكلمة واللّغة والبيان نقطةَ الانطلاق وبدء الحياة والحركة ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: 31] ، لأنّ اللّغة هي وعاء الفكر ووسيلة الإقناع. وتأسيسا على ذلك تتبيّن أهميّة الخطاب الدّعوي، لا باعتباره مجرّد وعظ مناسباتي يُتلى في المحافل والمساجد، بل بوصفه منظومة بيانية شاملة، تنسحب على مختلف مجالات الحياة وسياقاتها التّواصلية. فالخطاب الدّعوي بهذا المعنى ليس حكرًا على رجال المنابر، بل هو كلّ فعل تواصلي يتوسّل البيان لعرض مضامين الإسلام، سواء في الأسرة، أو في المؤسّسات التّعليمية، أو في الفضاء العامّ، أو عبر الوسائط الرّقمية، أو غيرها من قنوات التّعبير والتّأثير. إنّه باختصار: حضور مستمرّ للرّسالة ضمن نسيج الحياة اليوميّة للإنسان، يؤسّس للمعنى، ويُوجّه السلوك، ويعيد تشكيل الوعي في ضوء الغاية الدعويّة.

وقبل تناول قضايا الخطاب الدّعوي، حَرِيٌّ بنا الوقوف على بعض المفاهيم.

1- الإطار المفاهيمي للخطاب:

أ. التّعريف اللغوي:

الخطاب كلمة مشتقّة من الفعل الثلاثي (خطب)، وقد أخذت هذه الكلمة عدّة تعريفات نذكر منها علي سبيل الذكر لا الحصر:

جاء في مقاييس اللغة «(خطب) الخاء والطاء والباء أصلان: أحدهما الكلام بين اثنين، يقال خاطبه يخاطبه خطابا... والخُطبة: الكلام المخطوب به. والخطب: الأمر يقع؛ وإنّما سُمّي بذلك لما يقع فيه من التّخاطُبِ والمراجعة»[1]. يلفت **ابن فارس** (ت395هـ) في معجمه إلى ملاحظة دلالية مهمّة، حيث يُعرّف الخطاب بوصفه كلامًا متبادلاً بين طرفين، ما يدلّ على كونه فعلًا تواصليًا تفاعليًا، لا يُبنى على الإلقاء الأحادي، بل يفترض وجود مُخاطِب ومُخاطَب، وتبادلاً دلاليًا بينهما. ومن ثمّ، يُفهم الخطاب في سياقه الأصلي على أنّه بنية حوارية تتأسّس على المشاركة والتّفاعل، لا على التّلقين أو الإملاء.

أمّا **الزمخشري** فيقول: «خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام. وخطب الخطيب خطبة حسنة ... ومن المجاز: فلان يخطب عمل كذا: يطلبه»[2]. يُضيف **الزمخشري** إلى مفهوم الخطاب بُعدَين دلاليين مهمّين، إذ يربطه بصفة الحُسن، ويُقْرِنه بخاصيّة الطَّلب، ما يُضفي عليه طابعًا غائياً يميّزه عن مجرّد المواجهة بالكلام. وبناءً على ذلك، فإنّ دائرة الخطاب لا تشمل كلّ تواصل لفظي بين المتكلّمين، بل تقتصر على القول الذي يتضمّن غايةً تواصليّة واضحة، ومقوّمات بلاغية معتبرة، تجعله خطابًا موجّهًا، لا مجرّد كلام عابر.

وأمّا لسان العرب فقد جاء فيه: «الخطب: الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن والحال...والخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان والخطبة اسم للكلام مثل الكلام المنثور المسجع ونحوه، والخُطبة مثل الرّسالة، التي لها أوّل وآخر، والمخاطبة مفاعلة من الخطاب والمشاورة»[3] .

يُعرّف **ابن منظور**(ت711هـ) الخطاب بوصفه مرادفًا للكلام، مع ما يتضمّنه من بداية ونهاية تُحدّدان وحدته البنيوية، دون أن يغفل البُعد التّفاعلي فيه. فالخطاب، في ضوء هذا التصوّر، هو كلام منتظم – سواء أكان بسيطًا أم منمّقًا – تتحقّق به علاقة تواصليّة بين طرفين أو أكثر، يدخلون في

[1] ابن فارس، مقاييس اللّغة، م س، ج2، ص: 198.

[2] ينظر، الزمخشري، أسرار البلاغة، م س، ج1، ص: 255.

[3] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، م س، ج1، ص ص: 360 -361.

سيرورة تفاعلية يُتبادل فيها المعنى، ويُقصد بها التّأثير أو الإفهام. ومن ثمّ، لا ينفصل الخطاب في المدوّنة التراثية عن كونه فعلًا لغويًا محكومًا بالتوجّه نحو الآخر، ومؤسّسًا على الوعي بالمخاطَب.

وجاء في المصباح المنير «خاطبه مخاطبة وخطابا وهو الكلام بين متكلّم وسامع ومنه اشتقاق الخطبة بضم الخاء وكسرها باختلاف معنيين فيقال في الموعظة خطب القوم وعليهم ... فهو خطيب والجمع الخطباء وهو خطيب القوم إذا كان هو المتكلّم عنهم»[1].

يُشير المصباح المنير إلى المعنى نفسه الذي ورد في المعاجم السّابقة، حيث يُعرّف الخطاب على أنّه كلامٌ واقعٌ بين متكلِّم وسامع، ما يُبرز طبيعته التّفاعلية. غير أنّه لا يحدّد وظيفة دلالية أو تداولية لهذا الكلام، ممّا يجعل تعريفه أقرب إلى الوصف البنيوي منه إلى التّحليل الوظيفي. ومع ذلك، يقدّم المصباح المنير إضافة مهمّة، إذ يُقرّ بإمكانية أن يُؤدّى الخطاب نيابةً عن الغير، وهو ما يفتح المجال لفهمه في إطار التّمثيل والتوسّط، لا كمجرّد فعل ذاتي مباشر.

ونجد في المعجم الوسيط «(خاطبه) مخاطبة وخطابا كلمه وحادثه ووجه إليه كلاما ويقال خاطبه في الأمر حدثه بشأنه...الخطاب المفتوح خطاب يوجه إلى بعض أولي الأمر علانية... والخطبة الكلام المنثور يخاطب به متكلّم فصيح جمعا من النّاس لإقناعهم»[2].

يُضيف هذا القاموس ثلاث سمات دلالية مركزية تُثري مفهوم الخطاب وتوسّع أفقه التّداولي: أوّلًا، يُبرز الطّابع التّوجيهي للخطاب من خلال كونه موجّهًا إلى متلقّين محدّدين، لا إلى جمهور عشوائي؛ ثانيًا، يشير إلى البعد الإقناعي بوصفه غاية أساسيةً من غايات الخطاب، ما يُضفي عليه صبغة حجاجية تتجاوز مجرّد الإبلاغ؛ وثالثًا، يُقرّ بإمكانية أن يكون الخطاب صادرًا عن المتكلّم نيابةً عن أطراف أخرى، وهو ما يمنحه طابعًا تمثيليًا يعكس تعدّدية الأصوات والذّوات داخل البنية التّخاطبية.

تكاد المعاجم العربية تتّفق على تعريف الخطاب بعبارة "مراجعة الكلام"، وهو تعريف يُحيل إلى الطّابع التّفاعلي للخطاب بوصفه عمليّة تداوليّة لا تكتمل إلا بوجود تبادل كلامي بين طرفين. فالمراجعة تفترض الردّ والإرجاع، ما يعني أنّ الخطاب لا يتحقّق إلّا في سياق مشاركة لغوية تقوم على

[1] ينظر: الفيومي، المصباح المنير، م س،ج1، ص: 173 .

[2] نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، م س، ج1، ص: 243 .

التّبادل، لا على القول الأُحادي. ويتميّز الخطاب، من هذا المنظور، بحدود زمنية واضحة تبدأ من لحظة التلفّظ وتنتهي بتحقّق الأثر أو تمام التّبليغ.

كما يُشترط في بنيته التّواصلية وجود طرفين: منشئٌ للخطاب، يتوخّى من خلاله الإقناع أو الإبلاغ، ومتلقّي يُوجَّه إليه القول بهدف إفهامه أو التّأثير فيه. وعليه، فالخطاب – في بعده التّداولي – ليس مجرّد نقل للمعنى، بل فعل لغوي مقصود، يُراد به تحقيق الإفهام أو الإقناع، أو الجمع بينهما معًا، وفقًا لغايات المتكلّم وسياق المقام.

ب. التّعريف الاصطلاحي:

يُعدّ مصطلح "الخطاب" من المفاهيم المركزية التي شاع استخدامها في الحقل المعرفي المعاصر، وكَثُرَ تداولها في مختلف التخصّصات، حتّى غَدَا مُصطلحًا تقاطعيًا تتقاسمه عدّة مجالات معرفيّة. وقد تناول هذا المفهوم بالتّحليل والدّراسة عددٌ من الباحثين والمتخصّصين، من أصوليين ونقّاد وأدباء ولسانيين، سواء في السّياق العربي أو الغربي، وذلك بالنّظر إلى ما ينطوي عليه من أبعاد دلالية ووظيفية تجعله أداة فعّالة في فهم الظواهر اللّغوية والتّواصلية على حدّ سواء.

عرّف **الزركشي**(ت794هـ) الخطاب بقوله: « الأصل في الخطاب أن يكون لمعين وقد يخرج علي غير معين ليفيد العموم»[1]. وهو تعريف يبيّن البنية الافتراضية للخطاب بوصفه موجّهًا نحو مخاطَب محدَّد، لكنّه قابل لأن يُوسَّع دلاليًا ليشمل غير المعيّنين إذا اقتضى المقام ذلك. وتندرج ضمن هذا التّعريف ثلاث حالات من التّوجيه الخطابي:

أوّلًا، أن يكون الخطاب لمعيّن مشاهَد، كما في قول المتكلّم: "أنتَ فضّلتَ عليّ بجودك"، حيث يكون المخاطَب حاضرًا في المقام.

ثانيًا، أن يُوجَّه الخطاب إلى مُعيّن غير مشاهَد، ولكن مستحضَر ذهنيًا، كما في قوله تعالى على لسان **يونس** عليه السّلام: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: 87].

[1] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، ج2، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، (ثم صوَّرته دار المعرفة، بيروت، لبنان)، ط1، 1957، ص: 219.

ثالثًا، أن يكون الخطاب موجّهًا لغير مُعيّن، بقصد إفادة العموم، كما في قول **المتنبي**:

إِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

وهذا النّوع الأخير يَخرجُ من ضيق التَّعيين إلى سَعة التَّعميم، مُتجاوزًا حدود المخاطَب الفردِ إلى الفضاءِ الإنساني المشتركِ.

ويُعرّف بأنه: «توجيه الكلام إلى الآخرين للإفهام، سواء أكان الإفهام في الحال، أم في المستقبل. الكلام الذي يقصد به إفهام من هو متهيئ للفهم، ومنه قولهم: خطاب الشرع، أي: كلامه الموجه إلى من هو متهيئ للفهم، وهو المكلف(البالغ العاقل)»[1]. ومن ثَمَّ، يتبيّن أنّ الخطاب لا يُقاس فقط بحدود اللّغة، بل يتجاوزها ليأخذ بعين الاعتبار أَهْلِيَّة التلقّي وشرط الاستعداد العقلي والنّفسي لفهم المقصود.

يُفهم الخطاب، في أصل دلالته اللّغوية، بوصفه توجيهًا للكلام بقصد الإفهام، مع ما يقتضيه ذلك من وجود قابلية لدى المتلقّي لاستيعاب القول وفهمه. ولا يُشترط في هذا السّياق حضور المتلقّي لحظة إصدار الخطاب، إذ أنّ العبرة ليست بالتزامن الزّمني، بل بتوافر شرط التهيّؤ للفهم، وهو ما يجعل الخطاب يمتدّ أثره إلى من قد يتلقّاه لاحقًا، متى توفّرت فيه شروط الفهم والتّكليف.

أمّا **طه عبد الرحمان** فيرى «أنّ كلّ منطوق به يتوقّف وصفه بـ"الخطاب" على أن يقترن بقصد مزدوج يتمثّل في تحصيل النّاطق لقصد الادّعاء وتحصيل المنطوق له لقصد الاعتراض...بمعنى أنّ الذي يحدّد ماهية الخطاب إنّما هو "العلاقة الاستدلالية"، وليس العلاقة التّخاطبية وحدها: فلا خطاب بغير حجاج، ولا مخاطِب (بكسر الطاء) من غير أن تكون له وظيفة " المدّعي"، ولا مخاطَب (بفتح الطاء) من غير أن تكون له وظيفة "المعْتَرِض"»[2].

يُستخلص من التّعريف التّداولي للخطاب أنّ الحجاج يُعدّ جوهرًا تأسيسيًا في ماهيته، إذ لا يكفي قيام العلاقة التّخاطبية بين طرفين أو أكثر لاعتبار ما جرى "خطابًا" بالمعنى الاصطلاحي الدّقيق، رغم ما في هذه العلاقة من أهميّة تواصليّة. ذلك أنّ الإفهام وحده لا يرقى إلى مرتبة الخطاب ما لم يُقترن

[1] قطب مصطفى سانو، معجم مصطلحات أصول الفقه، دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص: 195.

[2] طه عبد الرحمان، اللّسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998، ص: 226.

بقصد التّأثير في المتلقّي على مستوى الموقف أو الاعتقاد؛ أي جلب اقتناع أو دفع اعتراض، أو تعزيز يقين أو تقويض شكّ.

وهذا ما يؤكده **طه عبد الرحمن** في توصيفه العميق لبنية الخطاب الحجاجي، حيث يصف المخاطِب بـ"المدّعي"، أي المتكلّم الذي لا يكتفي بإبداء رأي، بل ينهض بواجب الاستدلال عليه، قائلًا: «هو عبارة عن المخاطِب الذي ينهض بواجب الاستدلال على رأيه»[1] . ومن ثمّ، لا يُعدّ النّاطق مخاطِبًا بالمعنى الحِجاجي إلّا إذا اجتمع فيه شرطان[2]:

أ) صريح الاعتقاد بما يقول، أي التزامه الدّاخلي بمضمونه.

ب) والاستعداد لإقامة الدّليل عند اللزوم، أي انخراطه الواعي في إمكان المحاججة.

أمّا إذا انتفى الاعتقاد، فإنّ المتكلّم يتحوّل إلى: إمّا كاذبٍ يعبث بعقول الآخرين، أو ناقلٍ لغيره لا يُلزمه القول المبلَّغ. وإذا انتفى الاستعداد للتّدليل، فقد يكون إما متزمّتًا لا يملك مرونة الحوار، أو تابعًا سلبيًا يخلو من روح الفهم النّقدي. وفي كلتا الحالتين، حتّى وإن تحقّق الفهم على مستوى التلقّي، فإنّ بنية الخطاب الحجاجي تكون منقوصة أو مختلّة، لغياب أحد ركائزه الأساسية.

وعلى الجهة المقابلة، يُعرّف **طه عبد الرحمن** المخاطَب بـ"المعترض"، «أي الطرف الذي يتحمّل واجب المطالبة بالدّليل على دعوى المدّعي (المخاطِب)»[3]، ومن هذا المنطلق، يصبح الاعتراض فعلًا تأسيسيًا في بنية الخطاب، لا مجرّد استجابة عَرَضِيَّة. فالمخاطَب الذي يُسلِّم دائمًا بما يُلقى عليه، دون مُسَاءلة أو تَمحيص، يُعطّل وظيفة التّفاعل، ويُفقد الخطابَ طبيعته الجدليّة. كما أنّ امتناعه عن المطالبةَ بالحُجَّة يجعله عنصرًا غير فعّالٍ في العمليّة التّخاطبية، إذ يُفَوّت على نفسه إمكان بناء المعرفة المشتركة، ويُكرّس منطق التلقّي السِّلبي.

وعرّفه بعضهم بأنّه «كلّ كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوبا أو ملفوظاً، وهو بذلك لا يُختزل في وحدة لغوية صغرى، بل يُنظر إليه بوصفه سلسلة متتابعة من الملفوظات تُشكّل مرسلة لها بداية ونهاية، وتُؤدَّى من قِبل ذات متكلّمة في سياق مخصوص. وتُشير اللّسانيات الحديثة، خاصّة في

[1] طه عبد الرحمان، اللّسان والميزان أو التكوثر العقلي، م س، ص: 225.

[2] ينظر: م ن، ص: 225.

[3] ينظر: م ن، ص: 226.

اتّجاهها التّداولي، إلى أنّ الخطاب يُمثّل اللّغة في طور الإنجاز، أو بعبارة أخرى: اللّسان حين يتحقّق بوصفه فعلًا تواصليًا موجّهًا من فاعل لغوي إلى متلقٍّ. ويلاحظ أنّ عددًا من اللّسانيين، خصوصًا في الحقل الأنجلوساكسوني، يستخدمون مصطلح (discourse) للدّلالة على الحوار، ما يُبرز البعد التّفاعلي للخطاب في مقابل التصوّرات البنيوية التقليدية. ومن ثَمَّ، فإنّ الخطاب لا يتحقّق إلّا بوجود طرفين: مخاطِب يعبّر عن فكر أو معتقد، ومخاطَب يتوجّه إليه هذا التّعبير ضمن سيرورة تواصلية»[1]. ويمكن تلخيص أهمّ ما يُستفاد من هذا التّعريف في أربع نقاط أساسية:

- الخطاب قد يكون شفهيًّا أو كتابيًا.
- يتجاوز حدود الجملة الواحدة، فهو سلسلة كلامية مترابطة.
- يُقارَب أحيانًا بوصفه مرادفًا للحوار في التصوّرات التّداولية الغربية.
- لا يتحقَّقُ إلّا بوجود علاقة بين مخاطِب ومخاطَب ضمن سياق تواصلي محدّد.

أمّا **غاردينار** فيعبّر عنه بقوله: «الخطاب هو استعمال، بين البشر، لعلامات صوتية مركّبة، بغية نقل رغباتهم وتصوراتهم عن الأشياء»[2]. ركّز **غاردينار** في تعريفه للخطاب على بعده الاجتماعي، من حيث التّأكيد على نقطتين هما:

- أنّ الخطاب فعل تعاونيّ بطبيعته.
- وأنّه دائمًا ما يرتبط بأشياء، أي بوقائع العالم الخارجي وتجربة الإنسان الباطنية.

❖ يمكن أن نخلص في نهاية المطاف إلى أنّ الخطاب يُعدّ رسالة لغوية موجّهة من مخاطِب إلى مخاطَب، قد يكون شخصًا معيّنًا أو جمهورًا عامًّا، وقد لا يكون حاضرًا ماديًّا لحظة الإرسال، لكنّه حاضر في وعي المنشئ، ضمن أفق تواصلي قصدي. ويهدف الخطاب إلى تحقيق غايات محدّدة، من قبيل الإفهام، أو الإقناع، أو التّأثير، أو حتّى الإلزام، وهي كلّها غايات لا تنفصل عن الطّابع الحِجاجي والاستدلالي الذي يُعدّ مكوّنًا بنيويًا في الخطاب.

---

[1] ينظر: رزان إبراهيم، خطاب النهضة والتقدّم في الرّواية العربية المعاصرة، دار الشروق للنّشر والتّوزيع ،ط1، 2003، ص ص:17-19.

[2] «as the use, between man and man, of articulate sound-signs for the communication of their wishes and their views about things » Gardiner A. H., The Theory of Speech and Language, Oxford, Clarendon Press, 1932 , p18.

كما يتجاوز الخطاب، بمفهومه التّداولي المعاصر، الوسائط التّقليدية الشفوية والكتابية، ليمتدّ إلى الوسائط البصرية والرّقمية التي توفّرها تقنيات الاتّصال والإعلام، مثل الصّورة، والشّاشة، والحركة، ممّا يجعل الخطاب اليوم فعلاً لغويًا- سيميائيًا مركّبًا يتوسّل أدوات متعدّدة لتحقيق تأثيره في المتلقّي.

❖ **خلاصة القول:**

تتنوّع الخطابات تبعًا للسّياقات التّداولية التي تُنتجها، فتأخذ أشكالًا متعدِّدَةً، كالثّقافي، والأدبي، والسّياسي، وغيرها. ويُعدّ "الخطاب الدّعوي*" مصطلحا حديثًا مركّبًا من عنصرين: الخطاب والدّعوة، وقد سبق توضيح دلالتهما. ويُلاحظ من خلال هذا التّركيب أنّ الدّعوة لا تنفصل عن الخطاب، بل تقوم عليه بوصفه أداتها التبليغية الأساسية، ما يدلّ على تلازم بنيوي ووظيفي بين المفهومين، حيث يمثّل الخطاب التّجسيد اللّغوي والتّواصلي للرّسالة الدّعوية، ووسيلة تحقّقها في الواقع.

إنّ الخطاب الدّعوي لا يُفهم مجرّد وسيلة تعبير، بل هو أداة رسالية تُجسّد وظيفة الدّعوة وتُحقّق غاياتها. ومن هنا، كان لزامًا أن يكون امتدادًا لمسؤولية الأنبياء والرّسل والأئمّة العظماء والصالحين في تبليغ رسالات الله في الأرض، «لتوجيه النّاس إلى الحقّ، ويعتبر الخطاب الدّعوي أحد تجليّات الفكرة الإسلامية التي قامت على نداء الدّعوة إلى الله، ولا بدّ لهذا الخطاب أن يكون منسجما مع من يخاطبهم من النّاس، وأن يصدر عن بصيرة ووعي، وأن يخاطب النّاس على قدر عقولهم»[1]. وهو ما يُبرز الحاجة إلى تأصيل الخطاب الدّعوي تأصيلًا لسانيًا ووظيفيًا يُراعي شروط المقام، ومقاصد البيان، ومسؤولية الكلمة.

---

*قد يطلق بعض الباحثين لفظ الخطاب الدّيني على الخطاب الدّعوي، لكنّنا فضّلنا استخدام لفظ الخطاب الدّعوي لسببين هما:

1- لأنّه اللفظ الوارد في القرآن الكريم على لسان الأنبياء والرّسل كما ورد في قوله تعالى حكاية عن نبيه نوح: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝ ﴾ [نوح: 5-6] ، وعلى لسان مؤمن آل فرعون: ﴿ ۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۝ ﴾ [غافر: 41]

2- ولأنّ الخطاب الدّيني يكون دائما في إطار الكتاب والسنّة، من استنباط للأحكام التّشريعية والإفتاء وفقها، وهو بذلك أقرب إلى عمل المفتي منه إلى العمل الدّعوي، والله أعلم.

[1] نعمان شعبان علوان، الأساليب البيانية والخطاب الدّعوي الواعي، مؤتمر الدّعوة الإسلامية ومتغيّرات العصر، الجامعة الإسلامية- كليّة أصول الدّين- غزّة، فلسطين، 16-17أفريل 2005، ص: 1392.

للخطاب الدّعوي خِصّيصة تميّزه عن غيره بأنّه من وسائل:[1]

- نشر الدّعوة الإسلامية، فالأوامر والنّواهي جزء مطلوب إيصاله عبر الخطاب الدّعوي.
- الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.
- الجهاد في سبيل الله والوقوف في وجه أعداء الإسلام.
- التّعبير عن الرّؤية الإسلامية بمضامينها وأشكالها وأساليبها لأفراد الأمّة الإسلامية.
- التّعارف مع الآخر المخالف في العقيدة.
- التّواصل الحضاري بين المسلمين وغيرهم من الأمم والشعوب.

سنُرَكِّزُ في هذا المبحث على أهمّ مميّزات الخطاب الدّعوي في القرآن الكريم، وذلك إقرارا منّا على مرجعيّة هذا البحث، والمتمثِّلة في كتاب الله وسنّة نبيّه، فلم نُرِدْ أن نَحيد عنها في أيّ مبحث تناولناه.

2- خصائص الخطاب الدّعوي في القرآن الكريم:

يتّسم الخطاب الدّعوي في القرآن الكريم بجملة من الخصائص التي ميّزته عن سائر أنواع الخطابات، وجعلته قادراً على التكيّف مع مختلف السّياقات الاجتماعية، وتجاوز الحدود الزمانيّة والمكانيّة، مع احتفاظه بفعّاليته وأصالته عبر العصور، و من أبرز هذه الخصائص نذكر ما يلي:

أ- خطاب ربّاني:

يستمدّ الخطاب الدّعوي في القرآن الكريم قدسيّته وفرادته من كونه مؤسَّسًا على المنهج الربّاني، الذي حدّد الله تعالى معالمه في كتبه المنزّلة، وكان القرآن الكريم أتمَّها وأكملها. فهذا الخطاب لا ينبع من اجتهاد بشري محض، وإنّما يرتكز على توجيه إلهي مباشر، يجعل منه مصدرًا للهداية ومنبعًا للنّور، تُستمدّ منه أصول الدّعوة وأساليبها على مرّ الأزمنة والعصور.

ويتجلّى هذا المنهج الربّاني في تعدّد صيغ الخطاب في القرآن، ومن أبرزها: النّداء، الذي يُستخدم لتوجيه الخطاب إمّا إلى عموم النّاس كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، أو إلى خاصّة المؤمنين كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وتأتي هذه النّداءات القرآنية لتؤسّس لمخاطبة تُراعي المقام،

[1] ينظر: آمال مُحَمَّد حسن عتيبة، المتطلبات التربوية لتجديد الخطاب الدعوي لمواجهة التحديات المعاصرة، المجلة التربوية، ع:79،كلية التربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، نوفمبر2020، ص: 1704.

وتُخصّص المعنى بحسب المخاطَب، وهو ما يعكس الدقّة التّداولية والبلاغية التي يتّسم بها الخطاب الدّعوي القرآني.

ومن نماذج هذا الخطاب قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يونس: 108]، وقوله كذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال: 24].

والمراد بالربّانية هنا أمران:

أ) **ربّانية الغاية والوجهة:**

فأمّا ربّانية الغاية والوجهة، فنعني بها أنّ: «الإسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد، هو حسن الصّلة بالله تبارك وتعالى، والحصول على مرضاته»[1]. وممّا لا خلاف فيه أنّ الإسلام يشتمل على جوانب متعدّدة: اجتماعية، وإنسانية، وسياسية، واقتصادية، وعسكرية، تتكامل فيما بينها ضمن نسق شامل لا يهدف إلى التّفكيك أو التّخصيص القطاعي، بل يُوجّه جميع تلك الجوانب نحو غاية واحدة جامعة، هي تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى، بما يُجسّد جوهر التّوحيد الذي هو أصل الرّسالة ومقصدها الأعلى. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[الأنعام:162- 163].

ب) **ربّانية المصدر والمنهج:**

إنّ عبارة "منهج الله" ليست تركيبًا لغويًا مجازيًا، بل هي تشير إلى حقيقة عقدية ثابتة، مفادها أنّ المنهج – في أصل دلالته – منسوب إلى الله تعالى باعتباره واضعه ومصدره ومُحدِّد معالمه. فالمنهج الإسلامي الذي يُراد به تحقيق الغايات العليا للدّين والحياة هو «منهج ربّاني خالص، لأنّ مصدره وحي الله تعالى إلى خاتم رسله مُحَمَّد ﷺ. لم يأت هذا المنهج نتيجة لإرادة فرد، أو إرادة أسرة، أو إرادة طبقة، أو إرادة حزب، أو إرادة شعب، وإنّما جاء نتيجة لإرادة الله، الذي أراد به الهدى والنّور، والبيان

[1] يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص: 9.

والبشرى، والشّفاء والرحمة لعباده»[1]. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: 89]، وقال كذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: 57].

إنّ المتدبّر للقرآن الكريم يجد الرّسل أجمعين يسيرون وفق منهج ربّاني واحد قد وضعه الله وحدّده لهم، لا يحيدون عنه قدر أُنْمُلَة، فهم لا يملكون سوى أمر التّبليغ والدّعوة وفق ذلك المنهج. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: 15].

ومن خلال ما سبق، يتبيّن أنّ الخطاب الدّعوي في صورته المثلى لا يمكن أن ينفصل عن الخطاب القرآني، لأنّه يستمدّ منه منهجَه، ومضمونَه، وروحَه التّبليغية. فكما أنّ الرّسل لم يكونوا أصحاب مشروع دعوي ذاتي، بل مُبلّغين لمنهج ربّاني محض، كذلك يجب أن يكون الخطاب الدّعوي المعاصر امتدادًا لهذا الأصل النّبوي والقرآني، ملتزمًا بمرجعيّة الوحي، ومستضيئًا بنوره في البناء والتّوجيه.

فالربّانية ليست مجرّد صفة تزكية للخطاب، بل هي شرط تكويني في صِدقيته وتأثيره؛ إذ ما لم يكن الخطاب الدّعوي قائمًا على ما جاء في كتاب الله وسنّة نبيه، من حيث الغاية والأسلوب والمضمون، فإنّه يُخشى أن يتحوّل إلى خطاب بشري مُشوّش، تحكمه الأهواء والمصالح، بدل أن يُسهِم في الهداية والبناء. ومن هنا، فإنّ الاتّصال بالخطاب القرآني هو ما يمنح الخطاب الدّعوي أصالته وفاعليته في آنٍ واحد.

ب. خطاب شامل:

حين خاطب الله تعالى البشرية، وجّه إليها خطابًا شاملًا جامعًا، لا يقتصر على فئة دون أخرى، ولا يُغفل جانبًا من جوانب الحياة. فقد جاء الخطاب القرآني دعويًا بطبيعته، شموليًا في مضمونه، مستوعبًا لاختلاف الأزمان والأماكن، ومراعيًا لتنوّع الحيثيات الاجتماعية والثقافية والوجودية، من غير

[1] يوسف القرضاوي، الخصائص العامّة للإسلام، م س، ص: 36.

أن يختزل الإنسان في بُعده العقلي أو المادّي أو الرّوحي، بل نادى كينونته الكاملة بما ينسجم مع فطرته ومهمّته في الاستخلاف. وتُشير نصوص كثيرة إلى هذا الأفق الشمولي للخطاب القرآني منها قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾[الإسراء: 12]، وقوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: 38]، وقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النبأ: 29].

من المعلوم أنّ من بين ما يميّز الإسلام عن باقي الأديان (المحرّفة) والفلسفات والمذاهب هو خاصيّة الشّمول «إنّه شمول يستوعب الزّمن كلّه، ويستوعب الحياة كلّها، ويستوعب كيان الإنسان كلّه»[1]. ومن ثمّ، فإنّ الخطاب الدّعوي الحقّ لا ينبغي أن يُختزل في الوعظ الدّيني أو التّعليم التعبّدي، بل يجب أن يواكب شمول التصوّر الإسلامي، فيخاطب الإنسان في مختلف جوانب وجوده، ويقدّم الإسلام بوصفه منهاجًا للحياة كلّها، قادرًا على التّفاعل مع قضايا العصر، والتّأثير في الواقع، وتوجيه السّلوك نحو مقاصد العبودية والعمارة والإصلاح.

كما أنّ خطاب الدّعوة في ذاته لم يقتصر من جهة التّشريع على جانب دون الآخر بل «جاءت تشريعات الإسلام شاملة لأنواع النّاس ولكافّة مراحل تطوّر الإنسان من الميلاد إلى الوفاة»[2]. إنّ الخطاب الدّعوي في الإسلام يتميّز بطابعه الشّمولي والإنساني، فهو لا يُقيم تمييزًا بين ذكر وأنثى، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين غني وفقير، إذ لا يلتفت إلى الفوارق العارضة التي تُفرض بحكم الواقع الاجتماعي أو الثّقافي، وبذلك يتحقّق الميزان الحقّ بين البشر. وليس هناك فاصل بين العالمين الرّوحي والدنيوي، بل يُخاطب الإنسان بكامل أبعاده: روحه، وعقله، وجسده، وضميره، وإرادته، ووجدانه. ومن خلال هذا التّكامل الوظيفي، يتحقّق الانسجام بين الرّسالة والمخاطَب.

ت. خطاب عالمي:

يتميّز الخطاب الدّعوي في القرآن الكريم بخاصّية العالميّة، وذلك انطلاقًا من عالميّة رسالة الإسلام، وعالميّة القرآن الكريم نفسه، الذي لم يُنزَّل ليكون حكرًا على قومٍ دون غيرهم، ولا حبيسًا لزمن دون سواه، بل جاء موجّهًا إلى البشرية جمعاء، باعتباره الرّسالة الخاتمة التي وضع الله فيها الصّورة النّهائيّة

[1] يوسف القرضاوي، م س، ص: 105.

[2] أحمد غلوش، م س، ص: 200.

لهديه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ: 28].

يتفرّد الخطاب الدّعوي في الإسلام بخاصية المرجعية الإلهية التي تمنحه شمولية دلالية واتساقًا وظيفيًا، تفتقر إليهما الخطابات الوضعية ذات الطبيعة البشرية، التي كثيرًا ما تتسم بالتحيّز أو القصور البنيوي، فتخدم فئة دون أخرى أو تُعالج بُعدًا من الحياة بمعزل عن بقية الأبعاد. هذه الخصوصية تمنح الخطاب الدّعوي قابلية للتكيّف عبر السّياقات دون أن يُفقده ذلك ثبات مرجعيته أو يُشوّه صدقية غاياته، ممّا يؤهّله ليكون أداة هداية مستمرّة ومتجدّدة، قادرة على الجمع بين الاستمراريّة الزّمنية والفاعليّة التّداولية.

ث. خطاب مرن وثابت:

يجمع الخطاب الدّعوي في القرآن الكريم بين الثّبات والمرونة في بنية متوازنة تُجسّد عمق المنهج الربّاني وواقعيته. فالثّبات يتجلّى في الأحكام القطعية والمبادئ الكليّة التي تشكّل الأساس العقدي والتّشريعي للدّين، فلا تقبل التّبديل أو الاجتهاد المناقض. أمّا المرونة، فتظهر في الوسائل والأساليب التي تُتّبع في عرض الدّعوة، وحمل الخطاب إلى المتلقّي، بما يُتيح له التّفاعل مع مستجدّات الزّمان وتنوّع الثّقافات والسّياقات. «فالثبات في ما يجب أن يخلّد ويبقى، والمرونة في ما ينبغي أن يتغيّر ويتطوّر، وهذا من روائع الإعجاز في هذا الدّين، وآية من آيات عمومه وخلوده وصلاحيّته لكلّ زمان ومكان»[1]. بهذا التناسق المبدع، يتحصّن الخطاب من الذوبان والانحراف عن الأصل بفعل الثّبات، ويظلّ قادرًا على التجدّد والتّأثير بفعل المرونة.

يتجلّى الخطاب الدّعوي، في ضوء البناء التّشريعي الإسلامي المتوازن، بوصفه نسقًا تداوليًا يُزاوج بين الرّسوخ المفاهيمي والمرونة الإجرائية. فهو خطاب يُؤسّس على التّمييز الوظيفي بين الثوابت العقدية المنصوص عليها–كالإيمان، والعبادات، والقيم الأخلاقية، والحدود–التي تضطلع بدور المرجعية الموجِّهة، وبين المتغيّرات الاجتهادية التي تتيح له التّفاعل مع السّياقات المتجدّدة. هذا التّمايز لا يُخلّ

[1] إياد كامل إبراهيم الزيباري، سياسة التدرج في تطبيق الأحكام الشرعية(سلسلة الرسائل والدراسات الجامعية)، ص:59، نقلا عن : مُحَمَّد السعيد مسعى، معوقات الخطاب الدعوي المعاصر وسبل معالجتها في ضوء الشريعة الإسلامية، مجلة المنهل، مج08، ع:01، 2022/06/13م، جامعة الوادي، الجزائر، ص: 731.

بوحدة الخطاب، بل يمنحه قابلية التكيّف دون التّفريط، ويضمن له الاستمرارية من خلال الانفتاح على آليات الاجتهاد ضمن إطار يحفظ الهويّة ويؤطّر الممارسة الدّعوية ضمن أفق تداولي رشيد.

ج. خطاب واقعي:

يستمدّ الخطاب الدّعوي فاعليته وقوّة تأثيره من قدرته على مراعاة واقع المتلقّين؛ فلا يُمكن أن ينجح خطابٌ دعوي في بلوغ أهدافه ما لم يكن منسجمًا مع سياق النّاس ومقتضيات أحوالهم. ولهذا، لم يبعث الله تعالى الأنبياء من جنس الملائكة، بل اصطفاهم من البشر الذين يشاركون أقوامهم في تفاصيل الحياة: يأكلون، ويمشون في الأسواق، ويتزوّجون، وينجبون، ليكونوا نموذجًا عمليًّا للإيمان والتزكّي داخل الواقع البشري، لا خارجه.

ومن هذا المنطلق، جاءت خطاباتهم متجذّرة في الواقع، ملامسة لحاجات النّاس وتحدّياتهم، وقادرة على ترجمة الرّسالة الإلهية إلى سلوك يومي ممكن التّطبيق، ما يجعل الخطاب الدّعوي في أصله خطابًا حيًّا، إنسانيًا، متفاعلًا مع المحيط دون أن يفقد روحه الربّانية، ولا يُمكن للخطاب الدّعوي أن يبلغ غايته في الإصلاح والتّوجيه إلّا إذا تأسّس على فهم دقيق للواقع، ومعرفة عميقة بحاجات النّاس وأحوالهم وتحوّلاتهم. وقد نبّه العلماء، كا**بن القيّم**، إلى أنّ «الحكم والفتوى لا يتحقّقان بحقّ إلا باجتماع نوعين من الفهم:

أ– أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتّى يحيط به علما.

ب– والنّوع الثّاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان قوله في هذا الواقع»[1].

لا يمكن للخطاب الدّعوي أن يُحقّق وظيفته الإقناعية في التّأثير والتّوجيه ما لم يُبنَ على إدراك عميق بسياق الخطاب، وفهم دقيق لمقام المتلقّي، بما في ذلك حاجاته، وشروط تلقّيه، وتقلّبات واقعه. فالنّجاح التّخاطبي لا يتحقّق بمجرّد صدور القول، بل يتحقّق حين يكون القول مناسبًا للمقام ومراعيًا للوضعية التّخاطبية. وهذا ما أشار إليه ابن القيّم – بلغة سابقة لمصطلحات اللّسانيات –

[1] ينظر: ابن القيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تح: مُحَمَّد عبد السلام إبراهيم، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ص:69.

حين قرّر أنّ الحكم والفتوى لا يصحّان إلا باجتماع فهمين متلازمين: فهم الواقع؛ أي تحليل السّياق العام، واستنباط حقيقته من خلال القرائن والأمارات والتجربة الحسّية، وفهم الخطاب الشرعي الواجب في ذلك السّياق، أي استخراج الحكم المناسب للموقف.

ومن هذا المنظور، يغدو الخطاب الدّعوي فعلاً تداوليًا مركّبًا، يتجاوز النطق إلى غايات التّخاطب وسياق الفعل. وإذا اختلّ أحد هذين البُعدين، وقع الخطاب في القصور، إما بالغلوّ والتشدّد، أو بالتسيّب والانفلات.

ح. خطاب وسطي:

من سماحة الإسلام وعدله واعتداله أن شرّع مبدأ الوسطية لتقوم عليه جلّ خطاباته الواردة في القرآن الكريم، ومن تجلّيات ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ [البقرة: 143]. «ووسطية الأمّة الإسلامية إنّما هي مستمدّة من وسطيّة منهجها ونظامها، فهو منهج وسط لأمّة وسط. منهج الاعتدال والتّوازن الذي سَلِم من الإفراط والتّفريط، أو من الغلوّ والتّقصير»[1]. وتتجلّى هذه الوسطية في التّوجيه القرآني الذي لا يُكلّف النّفس إلا وُسعها، كما في قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾ [البقرة: 286]، ممّا يُبرز الوظيفة التّواصلية للخطاب في إيصال التّكليف ضمن إطار إدراكي وإنساني متوازن، يضمن قبول الرّسالة دون نفور.

ينطلق الخطاب الدّعوي في القرآن الكريم من وعي عميق بخصائص المتلقّي، إذ يُبنى على مبدأ الاعتدال الذي يُراعي مقتضى الحال وشروط المقام. فالخطاب لا يتوجه إلى متلقٍّ مثالي أو مفترض، بل إلى إنسان واقعي متنوّع من حيث الفهم والطاقة والاستجابة، ولذلك جاء الخطاب متوازنًا مراعيًا قابليات المخاطَبين وسياقاتهم الاجتماعية والثقافية.

بناء على هذا، تتلخّص الاستراتيجية الخطابية الدعويّة في تحقيق الائتلاف بين المتكلّم والمخاطَب، عبر توظيف التّوازن بين الوحي والعقل، بين المادّة والرّوح، وبين الإنذار والتّبشير، بما يُمكّنه من إعادة بناء العلاقة التّخاطبية بين النصّ والمتلقّي في كلّ مقام. ويُدرك هذا الخطاب أنّ الفعّالية الاتّصالية لا

[1] يوسف القرضاوي، الخصائص العامّة للإسلام، م س، ص: 130.

تتحقّق إلّا حين يستجيب للواقع ويُلامس حاجات المخاطَبين، دون أن يفقد مركزه المرجعي المستند إلى النصّ.

❖ **خلاصة القول:**

يتّسم الخطاب الدّعوي بجملة من الخصائص التي تمنحه طابعه التّواصلي الفريد، وتجعله متميّزا عن غيره من أنماط الخطاب الإقناعي، ومن أبرز هذه الخصائص:

- **الوظيفة التّوجيهية:** يهدف إلى تغيير السلوك، لا مجرّد نقل المعلومة.
- **مرجعيّة شرعية:** يستند إلى القرآن الكريم والسنّة النّبوية في الحُجّة والمضمون.
- **انفتاح على السّياق:** يتكيّف مع الخلفيات الثقافية والاجتماعية للمتلقّي.
- **بعد تداولي:** يُراعي المواقف التّواصلية وأدوار المتكلّم والمخاطَب.

غير أنّ هذه الخصائص التي تمنحه قوّته التأثيرية، هي نفسها التي تعرّضه لجملة من التحدّيات في السّياق المعاصر، ففي ظلّ ما يشهده الواقع من أميّة دينية، وتفكّك في الأطر التّداولية الإسلامية، وانتشار خطابات مناهِضة مشحونة بثقل إيديولوجي وإعلامي خارجي، تبرز الحاجة إلى إعادة تشكيل البنية التّواصلية للخطاب الدّعوي، بحيث يستوعب ضغوطات الواقع، ويتجاوب مع متطلّبات العصر، ويُعيد ترتيب علاقته بالمتلقّي وفق الغايات الدّعوية. وهذا ما يُمليه قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: 18]. ولا يسعنا المجال هنا للتعرّض لكلّ ما يعيق مسرى الخطاب الدّعوي، إنّما نحاول إلقاء بعض الومضات والإشارة إلى بعض التحدّيات.

المبحث الثّالث:

تحدّيات الخطاب الدّعوي و رهاناته.

- انحراف الخطاب الدّعوي.
- الأصول والفروع، بين التّهوين والتّهويل.
- تغييب البعد الواقعي والتّواصلي في الخطاب الدّعوي.
- تحزّب الخطاب الدّعوي.

يشكّل الخطاب الدّعوي أحد أنماط التّواصل اللّساني المتخصّصة في توجيه سلوك المتلقّي، سواءً على مستوى الفرد أو الجماعة، غير أنّ هذا الخطاب ، بحكم طبيعته الإقناعية والتّوجيهية، يواجه تحدّيات متزايدة في السّياق المعاصر، تتعلّق بوسائطه ومضامينه وجمهوره.

ومن منظور تداولي، تبرز إشكالات متعدّدة تتّصل بالمتغيّرات الثقافية والاجتماعية، وتغيّر أنماط التلقّي من تعدّدية السياقات واختلاف المتلقّين، ممّا يفرض على الخطاب الدّعوي أن يعيد النّظر في آلياته الحجاجية، وأدواته التّداولية، وبنيته اللّسانيّة، كما تفرض البيئة الرّقمية الجديدة تحديّات إضافية، تتعلّق بسرعة الانتشار، وسهولة التّفاعل، ووجود خطاب منافس قد يُضعف الأثر الدّعوي.

وعليه، سنسلّط الضوء على أبرز هذه التحدّيات من زاوية لسانية وتواصلية، مستندين إلى مفاهيم تداولية حجاجية، سعيًا لفهم أعمق لواقع الخطاب الدّعوي، واقتراح مداخل ممكنة لتطويره بما ينسجم مع متطلّبات العصر.

1- انحراف الخطاب الدّعوي:

يواجه الإسلام اليوم هجوما عنيفا على كافّة الأصعدة (الثقافية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية)، هجوما يستهدف إضعاف عقيدة الأمّة، وتضييع هويتها، وسلخها من مبادئها. والذي ازدادت حِدَّتُهُ بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر2001م، حيث استُغلَّت هذه الأحداث في ترسيخ صورة مغلوطة عن الإسلام والمسلمين على مستوى الدّاخل والخارج .

ومن أمثلة هذا الهجوم ونماذجه:[1]

أ- دعوى أنّ نصوص القرآن والسنّة إنّما جاءت لحلّ مشكلات مؤقّتة وقد انتهت ولا سبيل إلى إعمال هذه النّصوص في العصر الحاضر.

ب- دعوى أنّ النصّ القرآني يحِقُّ لكلّ أحد أن يُفَسِّره ويفهمه بما يمليه عليه عقله وهواه، دون أي ضابط في ذلك.

ت- دعوى أنّه لا فرق بين الإسلام وغيره من الأديان، ولا ينبغي عداوة أهل الأديان الأخرى، والدّعوة إلى تقارب الأديان ونحوها.

ث- دعوى أنّ تنحية الشّريعة الإسلامية، واحلال النُّظم الوضعية مكان حكم الله تعالى، كليًّا أو

[1] ينظر: آمال مُحَمَّد حسن عتيبة، م س، ص: 1734.

جزئيا، أمر سائغ ويقبل النّظر والاجتهاد.

هذه الدّعاوي وغيرها، جعلت من الخطاب الدّعوي يحيد عن مسعاه الذي رُسم له من توعية الشعوب بثوابت الدّين التي لا جدال فيها ولا خلاف، فانتشرت فكرة ما يسمّى بـ" تجديد الخطاب الدّيني" التي ترمي إلى تمييع وتزييف مقاصد الدّعوة الجوهرية والمتمثّلة في تحقيق الألوهية لله وحده. وبهذا الصدد، نحن لسنا ضدّ تطوير الخطاب الدّعوي، بما يواكب تحوّلات العصر وتطوّرات وسائط التّواصل والتلقّي، شريطة أن يظلّ هذا التّحديث محصورًا في مستوى الوسائل والأساليب التّداولية، دون أن يمسّ بالبنية المرجعية الثابتة.

2- الأصول والفروع بين التّهوين والتّهويل:

لا يكاد يوجد إطار عام يتحرّك فيه الدّعاة والعلماء، أو يوجد على أقلّ تقدير خطوط عريضة تُوَجِّهُ المسلمين إلى الاهتمام بالأمور حسب أهميّتها، فيعطى كلُّ ذي حقّ حقَّه، ولا يُجار على شيء على حساب شيء آخر. يقول **سلمان العودة** في محاضرة موسومة بـ " الإغراق في الجزئيات" «لقد بُلينا بطائفة من المسلمين... همّهم تحوّلَ إلى العناية بفروع المسائل وجزئياتها... وفي مقابل ذلك بُلينا بطائفة أخرى، أرادت فيما تزعم أن تعالج هذا الدّاء؛ فتحوّل الأمر عندها إلى إهمال كامل للجزئيات، واعتبار أنّ هذه الجزئيات عبارة عن قشور»[21].

إنّ تجنُّبَ الحديثِ في مسائلَ، أو تجنُّبَ الاستفاضةِ فيها يجعل النّاس يظنُّون بأنّها لا تَمُتُّ للدّين بصلة، فالمتحدَّث عنه هو الإسلام، والمسكوت عنه لا يعنيهم. وهنا ندخل في دائرة ما يسمّى «بالتّهوين والتّهويل: التّهوين من شأن الأمر الكبير الهائل، والتّهويل في شأن الأمر الصغير الهيّن... والتّزوير بهذا الأسلوب غاية في الخطورة؛ لأنّه يعيد ترتيب أمور الإسلام على غير ما رتَّبها الشارعُ الحكيم؛ فتختلُّ الصّورة العامّة، ويضطرب المشهد الحركي تبعاً لهذا الاختلال»[3]. لقد راعى الإسلام في

---

[1] سلمان العودة، الإغراق في الجزئيات، محاضرة مفرّغة، اطّلع عليه يوم [2025/03/18، 16:30]، متاح على: http://audio.islamweb.net/audio/index.php?page=FullContent&audioid=13842&full=1

[3] عطية عدلان، تجديد الخطاب الدعوي التحدّيات والآمال، مجلة البيان الرقمية، ع: 314، 2013/30/7، اطّلع عليه يوم[2025/03/20، 10:50]،متاح على: https://www.albayan.co.uk/MGZcat.aspx?ID=3

سياق منهجه في الدّعوة مبدأ الأولويات، وفق ترتيب يقدّم الأصول على الفروع، والغايات على الجزئيات. ومن هذا المنطلق، يتقدّم الخطاب الدّعوي نحو معالجة التّفاصيل والجزئيات بعد ترسيخ الثّوابت، بما يضمن الاتّساق في البناء العقدي والتّواصل الإقناعي المنضبط.

3- تغييب البعد الواقعي والتّواصلي في الخطاب الدّعوي:

هو الجهل بالواقع أو تجاهله، فمن أهداف الدّعوة الإصلاح والتّغيير لما يشوب واقع المجتمعات من مشاكل ومُعْضِلات. ومن متطلّبات التّغيير «معرفة هذا الواقع وفهمه الفهم الصّحيح وإذا كان العلماء قد قرَّروا أنّ الحكم على الشيء فرع عن تصوّره؛ فإنّ الحكم على الواقع واختيار الأسلوب الأمثل للتّعامل معه بناء على هذا الحكم، متوقِّف على تصوّره تصوّراً سليماً مبنيّاً على علم وإحاطة وفهمٍ عميقٍ دقيقٍ، ولو أنّ الدّعوة تجاهلت الواقع ولم تعتنِ بفهمه وتحليله، لكان هذا المسلك اختياراً منها لنفسها أن تمضيَ في طريقها مَعْصوبَة العَينين، ولكان هذا الصَنيعُ تنكباً طريقَ النبيّ ﷺ»[1].

إنّ افتقاد الخطاب الدّعوي للتّماهي مع الواقع الاجتماعي والمعيشي للأفراد، وعجزه عن التّفاعل مع انشغالاتهم وتطلّعاتهم، يؤدّي إلى خلل تداولي يُفرغ الخطابَ من فاعليته الإقناعية. فحين ينفصلُ الخطابُ عن سياقه التَّداولي، تنشأ قطيعةٌ بين المرسِل والمتلقّي، تُفضي إلى ضعف التلقّي وغيابِ الاستجابة. وفي هذا الانفصال يتحقّقُ ما يُشبه "التّغريد خارج السّرب"، حيث يتحوّل الخطاب الدّعوي إلى منظومة من المثاليات المجرّدة، تحلّق في فضاء روحاني مفارقٍ، قبل أن تَرتطمَ بجدار الواقع المعقّدِ، فيبدو المتلقّي كأنّه خرج من عالم افتراضي لا يمُتّ بصلة لمعيشته اليوميّة.

4- تحزّب الخطاب الدّعوي:

أدّى التعدّد الفقهي والفكري غير المؤطَّر داخل الحركات الإسلامية المعاصرة إلى حالة من الانقسام الخطابي، نتج عنها تحزّب الخطاب الدّعوي وتفكّكه، ممّا أضعف من مصداقيته وأفقده كثيرًا من فاعليته التّأثيرية. فبدل أن يكون الخطاب موجّهًا نحو دعوة شمولية للإسلام، أضحى في كثير من السّياقات وسيلة لترويج الانتماء التّنظيمي، حتّى وإن افتقر ذلك إلى مضمون إسلامي أصيل أو التزام

[1] عطية عدلان، تجديد الخطاب الدعوي التحدّيات والآمال، مجلة البيان الرقمية، م س، اطّلع عليه يوم [2025/03/20، 21:30].

بمنهجيته. وتحوّلت السّاحة الدّعوية إلى فضاء منازعات خطابية، تُمارَس فيه التّوصيفات الإقصائية وتبادل الاتّهامات بين التيّارات، في غياب واضح لأدبيّات الخلاف وآداب الاختلاف التي أصّل لها المنهج الإسلامي.

يقول **عطية عدلان** بهذا الخصوص «نحن لا نمنع الانتماء إلى أيّ حزب أو جماعة أو طائفة ما دام في الجملة على منهج أهل السنّة... أمّا الذي نحذّر منه فهو أن يتحوّل خطاب الدّاعية في البلاغ العامّ بدعوة الإسلام، وفي الخطب والدّروس العامّة، إلى بوق لحزبه»[1].تُعدّ ظاهرة التعصّب الحزبي أو الفكري من الظواهر اللّافتة التي تستوجب وقفة تحليلية لفهم خلفياتها وسياقاتها المنتجة. فهي ليست مجرّد خلاف في الآراء، بل مؤشِّرٌ على خلل عميق في البنية التّداولية للخطاب داخل الفضاء الدّعوي والفكري.

ويزداد وقع هذا الانقسام حدّة حين يتزامن مع ضغط خارجي تمارسه القوى المعادية، ممّا يجعل الأمّة في وضع مزدوج من التّهديد: بين مطرقة الخصوم الخارجيين وسندان الانقسام الدّاخلي. هذا الوضع يُضعف المنظومة الخطابية الجامعة، ويُفضي إلى تآكل المشترك المرجعي الذي يفترض أن يكون منطلقًا للوحدة والنّهوض.

❖ **خلاصة القول:**

نخلص في نهاية هذا المبحث إلى ضرورة وجود خطاب دعوي قادر على مواجهة التّحديات والأزمات التي تعصف بالأمّة الإسلامية في مختلف مجالاتها: الدّينية، والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسّياسية، داخليًا وخارجيًا.

1- فعلى المستوى الخارجي، تتكاثف الوسائط الإعلامية والخطابات المضادّة، المعلَنة منها والمضمَرة، في سعيها لإفراغ الخطاب الدّعوي من محتواه وإظهاره كخطاب بلا فاعلية ولا قدرة إقناعية تُذكر.

2- أمّا على المستوى الدّاخلي، فتشهد السّاحة الدّعوية تفكّكًا ناتجًا عن تناقضات فكرية

[1] عطية عدلان، م س، اطّلع عليه يوم [2025/03/24، 12:55].

وخِلافات شخصية، أَفْضَت إلى تَسْيِيسِ الخطاب الدّعوي أو تطييفه مذهبياً وعرقيًا، وهو ما أدّى إلى تشظّيه وفقدانه لوحدته المرجعية ومصداقيته التّأثيرية. ومن ثمَّ، فإنّ الحاجة إلى خطاب دعوي متوازن، يُزاوج بين الثّبات المرجعي والانفتاح التّداولي، لم تعد مطلبًا إصلاحيًا فحسب، بل شرطًا وجوديًا لاستعادة الخطاب لوظيفته الحضارية.

وفي المقابل، لا يمكن للخطاب الدّعوي أن يخضع لقوالب جامدة أو أن يُحاصر ضمن منظومة من الأحكام المسبقة أو القوانين المقنّنة، نظراً لارتباطه الوثيق بسياق المقام التّداولي وتغيراته المستمرّة. فهو خطاب يتأسّس على التّفاعل مع المحيط والسّياقات الظرفية، «ويستدعي ارتجالًا لسانيًا وفكريًا قوامه حضور البديهة، كما يسمّيه أهل البلاغة»[1]، واستحضار دقيق لمكامن الضّعف في النّفس البشرية والمجتمع.

لذلك، فإنّ محاولات رسم حدود قطعية لهذا الخطاب، أو فرض نماذجَ قولية مُغْلَقة على الدّعاة، تتنافى مع طبيعته التّداولية المفتوحة، فمساحة الدّعوة من حيث الزمان والمكان تتّسع، وتتطلّب من الخطاب مرونة تواصلية تُمكّنه من التّأثير والإقناع ضمن تنوّع المتلقّين وتعدّد المقامات. ومن هنا تتجلّى دقّة البناء القرآني، إذ لم يُقدّم خطاب الدّعوة في شكل أحكام تفصيلية، بل أحاطه بإطار مرجعي تداولي واسع، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ١٢٥ ﴾ [النحل: 125] ، وهي آية تشكّل قاعدة تداولية جامِعَة، تتطلَّبُ تأمّلًا في دقّة ترتيبها، وغنى وظائفها التّواصلية.

[1] ينظر: أبو الحسن الندوي، روائع من أدب الدّعوة في القرآن والسيرة، ص ص: 11-13، اطّلع عليه يوم: [2025/03./26، 12:30]، متاح على: www.abulhasanalinadwi.org

المبحث الرّابع:

التصوّر القرآني للخطاب الدّعوي.

- الدّعوة بالحكمة.
- الدّعوة بالموعظة الحسنة.
- الجدال بالتي هي أحسن.

يظلّ القرآن الكريم كتاب هداية شامل، يوجّه الإنسان في شؤون دنياه وآخرته، ويقدّم إطارًا مرجعيًا ثابتًا لما يُشكل على الأمّة في قضايا الدّين والحياة. وقد أشار النّبي ﷺ إلى مركزية هذا المرجع في خطبة الوداع، بقوله كما في حديث **ابن عباس** رضي الله عنهما: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا: كِتَابُ اللهِ، وَسُنَّةُ نَبِيِّهِ)[1]. وامتثالا لوصيّة نبيّنا ﷺ، نحاول في هذا المبحث أن نستخلص هديه في الدّعوة من خلال الوقوف على قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ١٢٥ ﴾ [النحل: 125].

يُمثّل التصوّر القرآني للخطاب الدّعوي نموذجًا تواصليًا متكاملًا، يجمع بين المرجعية الثابتة والمرونة التّخاطبية الدّعوية، ويُقدّم للنّبي ﷺ –ومن خلاله للدّعاة كافّة – خريطة تواصلية متعدّدة المسارات، تأخذ بعين الاعتبار تنوّع المخاطَبين واختلاف المقامات. ويتجلّى هذا التصوّر بوضوح في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾[النحل: 125]. وهي آية تُؤسّس لبنية خطابية ثلاثيّة الوظائف، تتنوّع بين الإقناع العقلي (الحكمة)، والاستمالة الوجدانية (الموعظة الحسنة)، والتّفاوض الحجاجي (الجدال بالتي هي أحسن).

وقد نبّه **الرّازي** إلى هذا التعدّد الوظيفي بقوله: «ولما ذكر الله تعالى هذه الطّرق الثّلاثة وعطف بعضها على بعض، وجب أن تكون متغايرة متباينة»[2]، ممّا يدلّ على وعي قرآني دقيق بآليات التّبليغ وفق مقتضى الحال. إنّ هذا التصوّر التّداولي، في شموليته ومرونته، يعكس قدرة الخطاب القرآني على إدارة الاختلاف، وتوجيه الخطاب وفق خصوصية المتلقّي وسياق التّفاعل، مع المحافظة على وحدة الغاية الدّعوية وثبات المرجعية.

لقد رسم القرآن الكريم ملامح التصوّر الدّعوي للنّبي ﷺ عبر تدرّج دقيق في مستويات الخطاب، حصرها في ثلاث مراتب تداوليّة متكاملة، تُراعي طبيعة المتلقّي وسياق التلقّي، وهي:

1. الدّعوة بالحكمة: وهي مَرْتَبة تعتمد على الإقناع العقلي والاستدلال المنطقي، وتُخاطب العقول الرّاجحة وأصحاب الفهم الرّاسخ.

[1] البيهقي، السنن الكبرى، تح: مُحَمَّد عبد القادر عطا، ج10، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2003، ص: 194.
[2] فخر الدين الرّازي، مفاتيح الغيب، م س، ج20، ص: 286.

2. الدّعوة بالموعظة الحسنة: وهي مرتبة ترتكز على الاستمالة الوجدانية والبعد القيمي، موجّهة لقلوب المتلقّين ومشاعرهم، بأسلوب ليّن وترغيب رقيق.

3. الجدال بالتي هي أحسن: وهي أعلى درجات التّفاعل الحواري مع المخالف، وتقتضي حضورًا حجاجيًا رفيعًا، يجمع بين التّهذيب البلاغي وقوّة الحجّة، دون انفعال أو إسفاف.

هذا التّرتيب لا يُعبّر فقط عن تنوّع الأساليب، بل عن تصاعد وظيفي في آليات التّأثير، ما يجعل من الخطاب الدّعوي القرآني خطابًا مرنًا ومتّزنًا في آن، يستجيب لمقتضى المقام، ويُراعي اختلاف المستويات الإدراكية والنّفسية للمخاطَبين.

1- الدّعوة بالحكمة:

أ. الحكمة لغة:

تمثّل الحكمة أحد المفاهيم المحورية في الخطاب الدّعوي، لما تنطوي عليه من دلالات عقلية وأخلاقية وتربوية، من هنا تنبع أهميّة استجلاء معناها اللّغوي.

قال **ابن فارس**: «حكم الحاء والكاف والميم أصل واحد؛ وهو المنع، وأوّل ذلك الحكم، وهو المنع من الظلم، وسميت حكمة الدّابة لأنّها تمنعها ... والحكمة هذا قياسها، لأنّها تمنع من الجهل. وتقول: حكمت فلانًا تحكيمًا: منعتُه عمّا يريد»[1]. فيتجلّى معنى الحكمة في مسألة المنع و الرَّدع.

و يؤيّد هذا المعنى ما جاء في المصباح المنير: «والحكمة وِزَانُ قَصَبَةٍ للدابّة، سمّيت بذلك لأنّها تذلِّلها لراكبها حتّى تمنعها الجِماح ونحوه، ومنه اشتقاق الحكمة؛ لأنّها تمنع صاحبها من أخلاق الأرذال»[2]. فسُمّيت «حكمة» لما فيها من تذليلٍ وضبطٍ، مقتبَس من وظيفة اللّجام في ترويض الحيوان، تكبح جماح صاحبها، فتردعه عن أخلاق الأرذال والسلوكيات المرفوضة.

أمّا لسان العرب فورد فيه: «والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. ويُقَال لمن يحسن دقائق الصّناعات ويُتْقِنُهَا: حكيم»[3].حيث اتّخذت طابعا آخر يتّسم بالعلمية والحَذق والصنعة.

---

[1] ابن فارس، مقاييس اللغة، م س، ج2، ص: 91.

[2] الفيومي، المصباح المنير، م س، ج1، ص: 145.

[3] ابن منظور، لسان العرب، م س، ج12، ص: 140.

ويقول **الفيروز أبادي**(ت817هـ): «والحكمة فمن الله – تعالى – معرفة (الأشياء وإيجادها) على غاية الإحكام والإتقان، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات...وأصل المادّة موضوع لمنع يقصد به إصلاح ومنه سمّى حَكمة الدابّة فقيل: حَكَمته وحَكَمت الدابّة؛ منعتها بالحَكمة، وأحكمتها: جعلت لها حَكَمَة»[1]. وقبل هذا قال: « والحكمة العدل، والعلم، والحلم، والنبوة والقرآن، والإنجيل، وطاعة الله، والفقه في الدّين، والعمل به، أو الخشية أو الفهم، أو الورع، أو العقل، أو الإصابة في القول والفعل، والتفكّر في أوامر الله واتّباعه، وهو حكيم أي عدل حليم»[2]. أضاف هذا التّعريف معنى آخر للحكمة، حيث خصّها بالنّفع والإصلاح.

❖ فالحكمة إذن في أصلها اللّغوي تفيد: المنع بقصد الإصلاح، وهي تدلّ على ضَبْطِ القول والفعل بما يُحَقِّق المصلحةَ، على أساس من العلم والبصيرة. وبعبارة أخرى، يمكن القول بأنّ: «الحكمة في الأصل إصابة الحقّ بالعلم»[3]، أي أنّها تجمع بين سلامة المحتوى وحُسن التّوصيل، ممّا يجعلها أداة تواصليّة عليا في مقام البيان والإقناع، وخاصّة في الخطاب الدّعوي.

ب. معاني الحكمة في القرآن:

وقد وردت في القرآن على ستّة أوجه:[4]

- بمعنى النّبوة والرّسالة ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران: 48]، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [ص: 20] ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: 251]، أي النّبوة.
- بمعنى القرآن والتّفسير والتّأويل وإصابة القول فيه ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة: 269].
- بمعنى فهم الدّقائق والفقه في الدّين ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ ﴾ [مريم: 12]، بمعنى

[1] ينظر: الفيروز أبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تح: مُحَمَّد علي النجار، ج2، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، مصر، 1996، ص: 490.

[2] م ن، ص: 487.

[3] ابن حجر، فتح الباري في شرح البخاري، ج10، المكتبة السلفية، مصر، ط «السلفية الأولى»، 1380-1390هـ، ص:522.

[4] الفيروز أبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، م س، ج2، ص:491

الوعظ والتّذكير ﴿ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ [النساء: 54]، أي المواعظ الحسنة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾[الأنعام: 89]، أي فهم الأحكام.

- آيات القرآن وأوامره ونواهيه ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ [النحل: 125].
- بمعنى حجّة العقل وفق أحكام الشريعة ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ [لقمان: 12]،أي قولا يوافق العقل والشرع.

فالمراد بالحكمة في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ [النحل: 125]، هو ما كان من النّصوص القرآنية قطعيّة الدّلالة، من أوامر ونواهٍ واضحة، تُقدَّم للمخاطَب على وجه البيان والإلزام اليقيني. وهي تمثّل، بحسب **الرّازي** «الحجّة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية، وذلك هو المسمّى بالحكمة، وهذه أشرف الدّرجات وأعلى المقامات»[1]، ما يدلّ على أنّ هذه المرتبة تستندُ إلى خطاب مرجعي مُحكم يُوجَّه إلى من تتوفّر لديهم الأهلية المعرفية للتلقّي والفهم.

ت. الحكمة اصطلاحا:

بينما دلّ لفظ "الحكمة" في أصلها اللّغوي على المنع والإتقان و الضبط، فإنّ المعنى الاصطلاحي يحمّلها بدلالات أكثر تركيباً، تتجاوز البعد اللّفظي إلى الأفق القيمي والمعرفي.

إذ يقول **أبو إسماعيل الهروي**(ت481هـ): «الحكمة اسم لإحكام وضع الشيء في موضعه وهي على ثلاث درجات :

- الدّرجة الأولى أن تعطي كلّ شيء حقّه ولا تعدّيه حدّه ولا تعجله وقته.
- والدّرجة الثّانية أن تشهد نظر الله في وعيده وتعرف عدله في حكمه وتلحظ برّه في منعه .
- والدّرجة الثّالثة أن تبلغ في استدلالك البصيرة وفي إرشادك الحقيقة وفي إشارتك الغاية»[2].

وانطلاقًا من هذا، يمكن القول أنّ الحكمة في الخطاب هي: إعطاء كلّ مقام ما يناسبه من مضمون وأسلوب، عن علم وبصيرة، بغرض تحقيق أثر تواصلي صادق.

[1] الرازي، مفاتيح الغيب، م س، ج20، ص: 287.

[2] أبو إسماعيل الهروي، منازل السائرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (دط)، (دت)، ص: 78.

ويقول **ابن القيم**: «الحكمة: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي»[1]، وهو تعريف يجمع بين الضبط المفاهيمي، والتّوقيت التّخاطبي، وصحّة الإجراء، ممّا يجعلها مبدأً حاكمًا لبنية الوجود والخطاب معًا. ويُرجِع **ابن القيم** كلّ اختلال في نظام الوجود أو سلوك الفرد إلى الإخلال بمقتضيات الحكمة، محدّدًا لها ثلاثة أركان مركزيّة[2]:

- العلم: الضّامن للمعرفة الصّحيحة بالمقام والمخاطب.
- الحلم: الكفيل بحسن إدارة الانفعال.
- الأناة: الضّابط لإيقاع الخطاب وتوقيته.

وضدّ هذه الأركان: الجهل، والطيش، والعجلة، وهي ما يؤدّي إلى انهيار البنية التّواصلية للخطاب.ومن هذا المنطلق، فإنّ كلّ عنصر في الوجود له حقّ مشروع يقدّره الشرع، وله حدّ لا ينبغي تجاوزه، ووقت لا يصحّ تقديمه أو تأخيره، ومن تمام الحكمة في الخطاب – وخاصّة الدّعوي– أن يُراعى هذا النسق الكليّ، فيُنزل الخطابُ منازله بحسب السّياق، والمخاطَب، والمحتوى، تحقيقًا للحقّ وتأمينًا لأثره.

إنّ الحكمة في سياق الخطاب الدّعوي ليست مجرّد معرفة نظرية، بل هي ملكة مركّبة تجمع بين العلم المحْكَم، ونفاذ البصيرة، والعمل المؤصَّل بالحقّ، مع الترفّع عن الهوى والانفعال، كما عبّر عن ذلك **النّووي** (ت676هـ): «الحكمة: عبارة عن العلم المتّصف بالإحكام، المشتمل على المعرفة بالله تبارك وتعالى، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النّفس، وتحقيق الحقّ والعمل به، والصدّ عن اتباع الهوى والباطل»[3].

وفي ضوء هذا التصوّر، تظهر الحكمة كقيمة تداولية تُنظّم القول وتضبط الفعل، وتؤهّل صاحبها لوضع الأمور في مواضعها، قولًا وسلوكًا. وقد عُرّفت كذلك بأنّها فضيلة تمنع صاحبها من الجهل في القول والعمل، وتصدّه عن سوء التصرّف، وتحذّره من الاندفاع والعجلة–وهي كلّها آفات تداولية تُخلّ

[1] ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، تح: مُحَمَّد البغدادي، ج2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان،ط3، 1996، ص: 449.

[2] م ن، ص:449.

[3] الإمام النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، م س، ج2، ص:33.

بفاعليّة الخطاب ومصداقيته. وعليه، فإنّ الخطاب الحكيم هو ما يجمع بين صدق المضمون، وسداد التّوصيل، وسلامة الغاية، ليكون سببًا في إنتاج أثر نافع، وتحقيق أثر تواصلي هادف.

❖ نخلص في ضوء ما سبق إلى أنّ أدقّ تعريف اصطلاحي للحكمة هو: وضع الشيء في موضعه، قولًا كان أو فعلًا، على وفق علم راسخ وبصيرة ناضجة. وهذا المعنى لا يتحقّق إلا بتكامل المعرفة النصّية مع السّلوك العملي، أي باتقان ما ورد في الكتاب والسنّة وتفعيله وفق مقتضى المقام. وفي هذا السّياق، ينقل **ابن كثير** عن **ابن عباس** أنّ الحكمة تعني: «المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدّمه ومؤخّره وحلاله وحرامه وأمثاله»[1]. وهي معرفة تُنتج وضوحًا في الرؤية وتحصينًا ضدّ الشّبهات، مما يؤسّس لخطاب دعوي قائم على تمييز دلالي دقيق ووظيفة تواصلية راشدة.

وتتأصّل الحكمة في الإنسان على مستويين:

- **أولًا:** عطيّة إلهية، كما قال تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [البقرة: 269]، ويكون ذلك بتهيئة الأسباب له من عنده سبحانه ثمّ تيسيرها له، وذلك فضل منه سبحانه.

- **ثانيًا:** اجتهاد إنساني، يتحقّق عبر التدبّر في كتاب الله ومجالسة سنّة نبيّه ﷺ، بما يُنتج ملكة تواصلية قادرة على تنزيل المعنى في موقعه الصّحيح. وبذلك، تتجلّى الحكمة في الخطاب الدّعوي كممارسة تداولية راشدة، تُزاوج بين النصّ والواقع، وبين الغاية والوسيلة، لتكون مفتاحًا للفهم ووسيلة للتّأثير.

ث. مفهوم الحكمة في مجال الدّعوة :

بعد استقراء المعاني اللّغوية والقرآنية لمصطلح الحكمة، اتّضح أنّ أقرب معنى لها هو: وضع الشيء في موضعه اللّائق به، قولًا أو فعلًا، وفق مقتضى الحال ومقام الخطاب. وفي المجال الدّعوي، يتجلّى هذا المفهوم في قدرة الدّاعية على الاجتهاد الارتجالي المنْضَبِط، أي أن يتفاعل مع الواقع بخطاب نابع من علمٍ راسخ، وبصيرة ثاقبةٍ، وعقيدةٍ مستقرَّةٍ، دون الوقوع في التسرّعِ أو الجمودِ.

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م س، ج1، ص: 538.

تتطلّب الحكمة، على هذا المستوى، «الاطّلاع العميق على سير الأنبياء ومناهجهم في الدّعوة، كما وردت موثّقةً في أوثق المصادر وهو القرآن الكريم، الذي قدّم هذه النماذج في صورة حيّة، مؤثّرة، ومتنوّعة، واجهت مختلف أصناف النّاس، وتعاملت معهم بأساليب متعدّدة قائمة على الصبر، والمثابرة، والرحمة، والتدرّج. وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: 90]»[1].

إنّ الحكمة في الخطاب الدّعوي هي:ملكة تداولية تُمكّن الدّاعية من توجيه خطابه توجيهًا وظيفيًا يراعي خصوصية المخاطَب وسياق المقام، من خلال قولٍ محكَمٍ أو فعلٍ منضبطٍ، يصدر عن علمٍ راسخ وبصيرةٍ نافذة، ويستند إلى هدي الأنبياء الثابت في النصّ القرآني. وهي بذلك تحقّق التوازن بين الثبات المرجعي والمرونة التّبليغية، بما يضمن فاعلية التّأثير واستمرارية الرّسالة.

2- الدّعوة بالموعظة الحسنة:

أ. الموعظة لغة:

تشتقّ " الموعظة " من الجذر: وَعَظَ، الذي يختزل بعدًا وجدانيا وتأثيريًا عميقا في الخطاب الدّعوي، ويعدّ الكشف عن معناه اللّغوي، خطوة أساس لفهم وظيفته التّداولية الإقناعية .

يقول **ابن فارس** في مادة (وع ظ): «الواو والعين والظاء: كلمة واحدة فالوعظ: التّخويف والعظة الاسم منه، قال الخليل: هو التّذكير بالخير وما يرقّ له قلبه»[2]. الفعل «وعظ» يكتنز معنيين رئيسيين: التّخويف: إثارة الخوف لردع المنكر، والعظة: التّذكير بما يرقّ له القلب من الخير.

جاء في المصباح المنير: «وعظه يعظه وعظا وعظة أمره بالطّاعة ووصّاه بها وعليه قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ [سبأ: 46]، أي: أوصيكم وآمركم، فاتّعظ أي: ائتمر وكفَّ نفسه والاسم الموعظة وهو واعظ والجمع وُعَّاظٌ»[3]. بهذا، ترسخ الدلالة اللغوية للوعظ كأداة تربوية تجمع بين الأمر والتذكير لتهذيب النفوس وضبطها.

---

[1] ينظر: زيد بن عبد الرحمان الزيد، الحكمة في الدعوة إلى الله: تعريف وتطبيق، المكتبة الشاملة الذهبية، ص :27، اطّلع عليه يوم [22:50، 2025/04/15]، متاح على: https://ketabonline.com/ar/books/103271/read

[2] ابن فارس، مقاييس اللغة، م س، ج6، ص:126.

[3] الفيومي، المصباح المنير، م س، ج2، ص: 665.

جاء في لسان العرب: «الوعظ والعظة والموعظة: النّصح والتذكير بالعواقب؛ قال **ابن سيده**(ت458هـ): "هو تذكيرك للإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب". وفي الحديث: لأجعلنّك عظة أي موعظة وعبرة لغيرك...وفي التنزيل: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [البقرة: 275] ، لم يجئ بعلامة التأنيث لأنّه غير حقيقي أو لأنّ الموعظة في معنى الوعظ ...»[1].

أمّا في تاج العروس فقد ورد: «وعظه يعظه وعظا، وعظة، كعدة، وموعظة: ذكره ما يلين قلبه من الثواب والعقاب، فاتعظ به. وفي الصحاح: الوعظ: النّصح والتّذكير بالعواقب. والاتّعاظ: قبول الموعظة. يقال: السعيد من وُعظ بغيره والشقيّ من به اتُّعظ»[2]، بمعنى أنّ الوعظ هو النّصح والتّذكير بالعواقب لتليين القلوب، والاتّعاظ هو قبول هذا التّذكير والاستفادة منه.

❖ نخلص من خلال ما سبق أنّ هناك جملة من المعاني يتمحور حولها لفظ "موعظة"، منها معاني إيجابية مثل التّذكير بالخير والنّصح والوصيّة، ومنها معاني سلبية مثل الزجر والتّخويف، للدّلالة على أنّ معنى "موعظة" يتأرجح بين السّلب والإيجاب، لذلك اقترن ذكرها في الآية الكريمة بلفظ "حسنة" دون الحكمة، قال **ابن القيم**: «أطلق الحكمة ولم يقيّدها بوصف الحسنة إذ كلّها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي ، وأمّا الموعظة فقيّدها بوصف الإحسان، إذ ليس كلّ موعظة حسنة»[3].

إنّ هذا التّقييد ينمّ عن تدليل دقيق للبعد التّأثيري للموعظة، حيث يُشترطُ أن تتّصف بالحسنى كي تؤتي أثرها، وتبتعد عن التّجريح أو التّوبيخ الجارح، وتُمارَس في سياق يُراعي حال المخاطَب واستعداده النّفسي والمعرفي، تحقيقًا لنجاعة الخطاب الدّعوي ومراعاةً لأخلاقيات التّواصل.

ب. معاني الموعظة في القرآن:

جاء الجذر (وعظ) في القرآن الكريم بمعان عدّة، منها:

- تليين القلوب، ذكر هذا المعنى **الآلوسي**(ت 1270هـ)في قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا

[1] ابن منظور، لسان العرب، م س، ج7، ص: 466.

[2] الزبيدي، تاج العروس، تح: جماعة من المختصين، ج20، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، (دط)، (1965-2001)، ص:289.

[3] ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، م س، ج1، ص: 445.

لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [البقرة: 66]، إذ أنّ كلمة "موعظة" تدلّ هنا على«ما يذكر ممّا يلين القلب ثوابا أو عقابا»[1]، فالموعظة تليّن القلوب بتذكيرها بما يرقّ لها من الثواب أو يردعها من العقاب.

- التذكرة والإرشاد، ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ﴾ [سبأ: 46]، معنى أعظكم «أي أُذَكِّركم وأُحَذِّركم سوء عاقبة ما أنتم فيه»[2]، الوعظ هو التذكير والإرشاد، أي تذكير النّاس وتحذيرهم من سوء عاقبة ما هم فيه.

- التّخويف والزجر، ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الشعراء: 136]، « لما لم يبالوا بما أمرهم به، وبما ذكرهم من نعم الله وتخويفه الانتقام منهم»[3]، الوعظ هنا هو التخويف والزجر بتحذير من عواقب الإعراض عن أمر الله ونتيجة انتقامه.

- القرآن، ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [يونس: 57]، من المعاني التي لم ترد في المعنى اللّغوي، ذكره **ابن عادل** في كتابه اللّباب «أمّا كون القرآن موعظة؛ فلاشتماله على المواعظ والقصص»[4]، القرآن موعظة؛ إذ يحتضن المواعظ والقصص التي ترشد القلوب وتحمل العبر.

ت. "الموعظة الحسنة" اصطلاحا:

تمثّل " الموعظة الحسنة" مصطلحا مركّبًا، له حضور بارز في الخطاب القرآني والدّعوي، فاقترانها بـ"الحسنة" في السّياق القرآني يُضفي عليها بعدًا اصطلاحيًّا خاصًّا.

---

[1] الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص:284.

[2] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ج14، دار الكتب المصرية ، القاهرة، مصر، ط2، 1946، ص:311.

[3] أبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط، ج8، دار الفكر، بيروت، لبنان، (دط)، 2000، ص:180.

[4] ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب، م س، 1998، ص: 356.

فقد عرّفها **البيضاوي** (ت685هـ)بأنّها: «الخطابات المقنعة، والعبر النّافعة، فالأولى لدعوة خواصّ الأمّة الطّالبين للحقائق، والثّانية لدعوة عوامّهم»[1].

يُفهم من هذا التّعريف أنّ الخطاب الدّعوي يتأسّس على مراعاة تفاوت العقول وتنوّع مستويات الإدراك لدى المخاطَبين؛ فالدّاعية مطالبٌ بأن يُقدّم الكلمة الواضحة، والعبرة المؤثّرة، والدّليل الكاشف للحقّ، المزيل للشبهة. ويُشار إلى أنّ **البيضاوي** يقصد بـ "الأولى" في تعريفه الحكمة، حيث خصّ بها خطاب الخواصّ، بينما قصر "العبر النّافعة" على الموعظة الموجّهة للعوامّ.

وعرّفها **ابن القيم** (ت 751هـ) بأنّها: «الأمر والنّهي المقرون بالتّرغيب والتّرهيب»[2]. ويُقسّمها إلى نوعين وظيفيين[3]:

1- موعظة مسموعة: وهي ما يتلقّاه السّامع من هدى ونصح وتوجيه لفظي.

2- موعظة مشاهدة: وهي ما يتأمّله المتلقّي من آيات كونية، أو أحداث قدَرية، تحمل في طيّاتها رسائل تذكير وتنبيه.

يُفهم من هذا التصوّر أنّ الموعظة في الخطاب الدّعوي لا تُقدَّم بصيغة واحدة مطلقة، بل تُضبط بحسب حال المتلقّي واستعداده؛ فهناك من تُجديه الموعظة بالتّرغيب، وآخر يحتاج إلى الموعظة بالتّرهيب، وآخرون لا تؤثّر فيهم إلّا المزاوجة بين الاثنين. وهذا يعكس وظيفة تخاطبية مرنة، تتكيّف مع السّياق والمقام ومستوى التلقّي العاطفي والمعرفي لدى المتلقّي.

أمّا **الجرجاني**(ت816هـ) فيعرّف الموعظة بأنّها: «التي تُلينُ القلوب القاسية، وتُدمع العيون الجامدة، وتُصلِح الأعمال الفاسدة»[4]،وهو تعريف يركّز على الجانب الوجداني والنّتيجة السّلوكية، ويُبرزُ أنَّ الموعظةَ تنتمي إلى خطاب التّأثير العاطفِي، القائم على اللِّين، والرَّحمة، وتحريك القلوب، بما

[1] البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تح: مُحَمَّد عبد الرحمان المرعشلي،ج3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ، ص: 245.

[2] ينظر: ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، م س، ج1، ص: 443.

[3] ينظر: م ن، ص: 443.

[4] الشريف الجرجاني، التّعريفات، تح: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1938، ص:236.

يؤدّي إلى تزكية النّفس واستصلاح العمل، وهنا تبرز ضرورة تنويع آليات الخطاب الدّعوي وفق طبيعة المخاطَبين، والأنماط المختلفة للتلقّي.

وعرّفها **الشنقيطي** (ت1393هـ)بأنّها «الكلام الذي تلين له القلوب، وأعظم ما تلين له قلوب العقلاء أوامر ربهم ونواهيه...»[1]، مبيّنًا بذلك البنية التّأثيرية للموعظة بوصفها خطابًا قلبيًا—سلوكيًا يحرّك المتلقّي عبر ثنائيّة الخوف والطمع، أي الخشية من العقاب والرّغبة في الثّواب. وهذا التّفاعل العاطفي المعرفي يجعل القلب ينقاد للطّاعة، ويُنتج أثرًا سلوكيًا يُمكن رصده في الامتثال أو عدمه.

ويتميّز هذا التّعريف بكونه ضابطًا لما سبقه من تعاريف، إذ يربط فاعلية الموعظة بالمصدر الأعلى للوحي –كتاب الله وأوامره ونواهيه–الّتي تُخاطب باطن الإنسان حيث تسكن دوافع الانفعال والقرار. فالخطاب الدّعوي النّاجح، بحسب هذا التصوّر، هو الذي يستحضر أثر النّص القرآني في تحريك البنية الشعورية للمتلقّي. ويتّضح من ذلك أنّ الموعظة تتوجّه إلى مواطن الضّعف والاستجابة في النّفس البشرية؛ فبعضها لا يلين إلّا بالتّرغيب، وبعضها لا يتفاعل إلّا بالتّرهيب، وهناك من لا يُؤثّر فيه إلّا الجمع بينهما. وهذا ما يؤكّد أن الموعظة الحسنة في الخطاب القرآني هي خطاب تفاعلي، انفعالي، يراعي اختلاف النّفوس، ويُنزّل الكلام منازلَه بما يحقّق أعظم أثر ممكن في التلقّي والتّزكية.

❖ نخلص من التّعاريف السّابقة بتعريف جامع بأنّ الموعظة الحسنة هي: خطاب تذكيري—تأثيري، يُوجَّه إلى المتلقّي بلغة وجدانية مؤثّرة، يجمع بين اللّين والتّرغيب حينًا، والزّجر والتّرهيب حينًا آخر، بحسب المقام وسياق الحال، ويستمدّ مشروعيّته من المرجعية النصيّة للقرآن الكريم والسنّة النّبوية.

ويُعدّ هذا الضبط للموعظة الحسنة تجسيدًا لمرونة الخطاب الدّعوي في تفاعله مع اختلاف المتلقّين وتفاوت استعداداتهم، حيث تتحدّد طبيعة الأسلوب – رغبة أو رهبة – وفق ما يحقّق أثرًا تواصليًّا إيجابيًا في تقويم السّلوك وتزكية النّفس، دون خروج عن آداب الدّعوة ولا عن غايات الخطاب الإسلامي.

[1] الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تح: مكتب البحوث والدراسات، ج2، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،(د ط)، 1995، ص: 438.

ث. مفهوم الموعظة الحسنة في مجال الدّعوة:

يُعدّ الوعظ أحد الأساليب الجوهريّة في الخطاب الدّعوي، ولا يمكن الاستغناء عنه في أيّ سياق دعوي؛ لما له من وظيفة تأثيرية عميقة تستهدف تزكية النّفس وتوجيه الإرادة. وقد كان الوعظ جزءًا أصيلًا من مهام الأنبياء والمرسلين عليهم السّلام، الذين بعثهم الله مبشّرين ومنذرين، يحملون خطابًا يجمع بين الرحمة في التّبليغ والصدق في النّصح، ويهدف إلى هداية النّاس ودلالتهم إلى الخير.

وقد تنوّعت وسائل الوعظ في النّصوص الشرعية، بما يُراعي أحوال المتلقّين وطبائعهم النّفسية والعقلية، فتارةً يُبنى على التّرغيب، وتارةً على التّرهيب، ومن أهمّ أدواته[1]:

- ذكر أيّام الله وما جرى فيها من مصائر للأمم السّابقة.
- التّذكير باليوم الآخر ومشاهده.
- وصف نعيم الجنّة وعذاب النار.
- استحضار وعد الله ووعيده.

وهي كلّها أساليب تستهدف التّفعيل الوجداني لدى المتلقّي، وتُعزّز دوافع السّلوك القويم عبر تنشيط مركزي الخوف والطمع .إنّ تحليل بنية النفس البشرية من منظور تربوي ولساني يُظهر أنّها تدور بين قطبين فطريين: الخوف من الخطر والعقوبة، والطّمع في النّجاة والثواب.ولهذا، تركّز الموعظة الحسنة على توجيه هذين القطبين إلى المسار الصحيح: فلا يكون الخوف إلا من الله وسخطه، ولا يكون الطّمع إلا في رضاه وجنّته.

وعندما يتحرّك هذان المحوران ضمن خطاب سليم، يتحقّق الاعتدال النّفسي، ويُضبط السّلوك الإرادي للإنسان:«يتحرّك فيه محور الخوف، موجّهًا الإرادة للابتعاد عن الشرّ، كما يتحرّك محور الطمع، دافعًا نحو الخير الذي تضمنه الوعد الإلهي»[2]. وبذلك، تُفهم الموعظة الحسنة بوصفها خطابًا

[1] عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس "في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1،1995، ص: 322.

[2] عبد الرحمان حسن حبنكة، فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، م س، ج1، ص:635.

تأثيريًا مركّبًا، يدمج بين العِبرة النافعة والإرشاد الرقيق، ويُظهر بصدق نُصح المخاطِب وقصده الخيّر في منفعة المخاطَب، بعيدًا عن التّوبيخ أو التسلّط، وهو ما يجعلها أحد أرقى أدوات الخطاب الدّعوي .

3- الجدال بالتي هي أحسن:

أ. الجدال لغة:

تُظهر المصادر المعجمية أنّ الجدال في أصله اللّغوي يحمل دلالة على الشدّة والصّلابة:

فذكر **ابن فارس** أنّ مادة (جدل) «جدَلَ الجيم والدّال واللاّم أصل واحد، من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام»[1]. وعليه، فإنّ الجدال في الأصل يُشير إلى خطاب تفاعلي صلب، يتّسم بالتمكّن والإصرار، ويُمارَس بقصد الإثبات أو الدفاع، من خلال مراجعة القول وتكراره ضمن سياق خصومة فكرية أو عقدية.

ويعرّف **الأصفهاني** (ت356هـ) الجدال على أنّه: «الصّراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة، وهي الأرض الصلبة»[2].ونفس المعنى جاء به **الزمخشري** في كتابه "أسرار البلاغة".

أمّا **ابن منظور** فيوسّع الجذر دلاليا بقوله: «الجدل شدة الفتل, وجدلت الحبل أجدله جدلا إذا شددت فتله وفتلته فتلا محكما... والجدل: اللّدد في الخصومة والقدرة عليها...وجادله أي خاصمه مجادلة وجدالا، والاسم الجدل، وهو شدة الخصومة. وفي الحديث: "مَا أُوتِيَ الجَدَلَ قومٌ إِلَّا ضَلُّوا". الجدل: مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة»[3]. يُشار هنا إلى أنّ في الجدل شدّة، وميل عن الحقّ في الخصومة والقدرة عليها، وهو مذموم إلّا إذا كان على الباطل لإظهار الحقّ فإنّه محمود.

و قد جاء في المصباح المنير: «جدل الرجل جدلا فهو جدل من باب تعب إذا اشتدت خصومته وجادل مجادلة وجدالا إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحقّ ووضوح الصواب»[4]. ويُفهم من هذا

---

[1] ابن فارس، مقاييس اللغة، م س، ج1، ص:433.

[2] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق-بيروت، ط1، 1412هـ، ص:190.

[3] ابن منظور، لسان العرب، م س، ج11، ص ص:103-105.

[4] الفيومي، المصباح المنير، م س، ج1، ص:93.

التّعريف أنّ الجدال المذموم هو نوع من المغالطة الحجاجية، يُقصد بها صرف الانتباه عن جوهر المسألة، بإغراق الخطاب في تفاصيل جانبية، أو افتعال إشكالات شكلية تُضعف أثر الحجّة.

❖ نستخلص ممّا سبق أنّ مادّة "جدل" تدور في اللّغة العربية حول عدّة معان تتمركز في محورين:

- معنى الصّراع والخصام وكلّ ما يفضي إليهما من مراجعة للكلام، ومقابلة الحجّة بالحجّة، والمناظرة والمغالطة، وهو في الأغلب مذموم إلّا إذا كان بالحسنى لإظهار الحقّ فهو محمود.
- معنى الصّرع والطّرح أرضا وكلّ ما يعين على تحقيقهما من قوّة وشدّة وصلابة وثبات.

والمتمعّن في كلا المعنيين يُدرك أنّ المعنى الثّاني هو نتيجة للمعنى الأوّل، فغاية الصراع أو الخصام هي الغلبة وإحكام السّيطرة إمّا بالقوّة الجسمية أو العقلية .

أمّا المعنى الذي يفيد مبحثنا هو: الجدال هو صراع وخصام بين طرفين بالقول، باللّجوء إلى تبادل الحجج الدّامغة والبراهين القويّة، من أجل تبكيت الخصم وإفحامه والزامه.

ب. معاني الجدال في القرآن:

وردت مادة (جدل) وما اشتقّ منها في القرآن على ثلاثة معان:

- **الأوّل:** بمعنى الخصومة، وهو أكثر المعاني ورودًا في القرآن، ويُلاحظ في هذا المعنى غلبة البعد المضاد للحقّ، حيث يُمارَس الجدل لردّ الحجة لا لقبولها، مما يُضفي عليه طابعًا مذموماً، من ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ ﴾ [غافر: 4] ومنه أيضاً قوله تعالى :﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ ﴾[الحج: 3].
- **الثّاني:** بمعنى المراء، وهو قريب من الخصومة، لكنّه يحمل طابعًا جدليًا عقيمًا، قائمًا على العناد واللّجاجة لا على البحث عن الحقّ ،من ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ ﴾ [البقرة: 197]، وقد فسّر **ابن عباس** المراد بالجدال في هذا الموضع بأنّه: «المراء والملاحاة حتى تغضب

أخاك وصاحبك، فنهى الله عن ذلك»[1]. ونحو هذا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤﴾ [الكهف: 54].

- **الثّالث:** بمعنى الحِجَاج والمناظرة، وهو المعنى المحمود الذي يُراد به إقامة الحجة وبيان الحقّ برفق وأدب. من ذلك قوله سبحانه: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125]، وقد أشار **ابن كثير** بأنّ المراد: «من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب»[2]، وقد يكون المراد بـ(الجدل) في هذه الآية الدّعوة إلى الدّين، يقول **القرطبي**(ت671هـ): «أمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطّف ولين دون مخاشنة وتعنيف»[3]، وممّا جاء بلفظ الحِجَاج والمناظرة قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: 46].

❖ نخلص ممّا تقدّم أنّ لفظ (الجدال) أكثر ما جاء في القرآن الكريم بمعنى (الخصومة)، وجاء أيضاً بمعنى (المراء)، وبمعنى (المناظرة) و(الحِجَاج)، وهو بحسب هذا المعنى الأخير محمود ومرغوب فيه، وهو بحسب المعنيين الأوّل والثاني مذموم ومرغوب عنه.

ت. الجدال اصطلاحا:

يستخلص من جملة التّعريفات التي أوردها علماء اللّغة والبلاغة أنّ الجدال، في أصله، يقوم على التّفاوض القائم على المنازعة والمغالبة، لا على التّفاهم بغرض الاتّفاق.

فـ **الرّاغب الأصفهاني**(ت502هـ) يُقرّر بوضوح أنّ الجدال هو: «المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة»[4].وهو ما يعني أنّ الجدال يحمل طابعًا صراعيًا لا تشاوريًا، ويهدف إلى الغلبة لا إلى الوصول المشترك إلى الحقيقة.

---

[1] مجموعة من المؤلّفين بإشراف الشيخ علوي بن عبد القادر السقّاف، موسوعة الأخلاق الإسلامية، ج2، تمّ تحميله في ربيع الأوّل 1433هـ، الكتاب مرقّم آلياً: ص:202.

[2] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م س، ج4، ص: 526.

[3] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م س، ج10، ص: 200.

[4] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، م س، ص: 189.

أمّا **الجرجاني** فيقدّم تعريفًا أدقّ إذ يقول: «الجدل: دفع المرء خصمه عن إفساد قوله: بحجّة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة»[1].فهو يُشير إلى أنّ الجدال أداة دفاع حجاجي، تُستخدم إمّا لإحقاق الحقّ أو لإثبات باطل، بحسب غاية المتكلّم.

وفي تعريف آخر له، يُعمّق البعد الجدلي بقوله: «الجدال: هو عبارة عن مراء يتعلّق بإظهار المذاهب وتقريرها»[2]. وهو ما يدلّ على أنّ الجدال لا يخلو من المراء والشكّ، ويُستعمل لتثبيت موقف ما أكثر من البحث عن الحقيقة ذاتها.

أمّا **الشنقيطي**، فنقل عن المناطقة قولهم أنّ المجادلة هي:«منازعة لا لإظهار الحقّ، بل لإلزام الخصم»[3].وهي إشارة إلى نوع من الجدال الإلزامي المنطقي، الذي يركّز على التفوّق الخطابي لا على صدق النتائج.

في المقابل، يقدّم **الكرماني**(ت786هـ) تصنيفًا تقويميًا مهمًّا لدرجات الجدال، فيقول: «الجدال هو الخصام، ومنه قبيح وحسن وأحسن: فما كان في الفرائض فهو أحسن، وما كان في المستحبّات فهو حسن، وما كان في غير ذلك فهو قبيح»[4]. وهذا التّمييز يُبرز أنّ قيمة الجدال ليست في بنيته فقط، بل في غايته ومجال تداوله.

أمّا **ابن خلدون** (ت808هـ)، فيرى أنّ الجدال ليس مجرّد خصومة لفظية، بل هو علم قائم بذاته، له ضوابط وأسس ومنهجية، إذ يعرّفه بقوله: «معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم... إنّه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يُتوصّل بها إلى حفظ رأي وهدمه سواء كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره»[5]. ويُفهم من هذا أنّ الجدال، في تصوّره، هو نظام حجاجي مضبوط، يُمارَس وفق قواعد عقلية وأخلاقية تهدف إلى التّمحيص والتّقويم، لا إلى المراء العبثي أو الغلبة المجردة.

---

[1] الشريف الجرجاني، التّعريفات، م س، ص: 74.

[2] م ن، ص: 75.

[3] مُحَمَّد الشنقيطي، آداب البحث والمناظرة، تح: سعود بن عبد العزيز العريفي، ج1، دار عطاءات العلم، الرّياض، المملكة العربية السّعودية، ط5، 2019، ص: 272.

[4] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح البخاري، م س، ج13، ص: 314.

[5] ابن خلدون، المقدمة، ج1، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1981، ص: 579.

ومن خلال استقراء مختلف التّعريفات السّابقة لمفهوم "الجدال"، يمكن ملاحظة أنّ كلّ تعريف انطلق من زاوية منهجية خاصّة: فبعضهم تناوله من حيث البنية اللّغوية والطبيعة الصراعية للكلام، وآخرون ركّزوا على الهدف منه، مثل الإلزام أو التّبيين أو الردّ، في حين ميّز البعض بين الجدال كعلم له أدواته وآدابه. والجدال كسلوك قد يكون محمودًا أو مذمومًا، وغالبًا ما ترتبط هذه المقاربات بمدى الرّبط بين طبيعة الجدل وغاياته التّداولية.

❖ انطلاقًا من مجمل هذه التّعريفات، يمكن توصيف "الجدال" بأنّه: نقاش أو حوار يتّسم بطابع الصّراع، يُمارَس بين طرفين بغرض تحقيق غلبة فكرية أو اعتقادية، عبر إظهار المذاهب والاتّجاهات باستخدام الحجج والبراهين، مع نفي أدلّة الخصم وتفنيدها، وذلك لأجل إحقاق حقّ أو إبطال باطل، وهو أمر يتوقّف على مهارة المتجادلين، وقوّة استدلالهم، وصدق غاياتهم. وعليه، فإنّ الجدال أداة حجاجية حاسمة تُحدّد قيمته التّداولية بحسب: السّياق، النيّة، الوسائل، وغايات الخطاب.

ث. الجدال كمصطلح غربي:

يقابل الجدل في المصطلح الغربي كلمة Dialektik الذي تطوّرت دلالاته عبر العصور الفلسفية، واكتسبت كلّ منها بُعدًا معرفيًا خاصًّا وفق رؤية الفيلسوف والسّياق المعرفي الذي وُظِّفت فيه:[1]

- عند **سقراط**(ت399ق م): يُقصد بالجدل أسلوب الحوار القائم على السؤال والجواب، أداة لكشف الجهل وإثارة التّفكير، دون تقديم أجوبة نهائية، فيما يُعرف بـ "المنهج التهكّمي السّقراطي".
- عند **أفلاطون**(ت347ق م): تطوّر المفهوم إلى منهج تحليلي منطقي، يقوم على تقسيم المفاهيم إلى أجناس وأنواع، ويُعدّ عنده مدخلًا إلى علم المبادئ الأولى والحقائق الأزلية، أي أداة للوصول إلى المثل العليا.
- عند **أرسطو**(ت322 ق م): عرّف الجدل بأنّه نوع من القياس، مبني على المشهورات والمسلّمات، أي مقدّمات ليست يقينية لكنّها مقبولة في العرف العامّ، ما يجعل الجدل عنده منهجًا إقناعيًا لا برهانياً.
- عند **كانط**(ت1804م): يُستخدم المصطلح للإشارة إلى منطق ظاهري، أي صورة من

[1] ينظر: مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، 1984، ص ص: 132-133.

السفسطة التي تعتمد على المصادرة على المطلوب، وخداع الحواس، وتجاوز حدود المعرفة العقلية.

- عند **هيغل**(ت1831م): يمثّل الجدل جوهر التطوّر العقلي والتّاريخي، إذ يرى أنّ الفكر ينتقل من أطروحة (thesis) إلى نقيض(antithesis) ، ثمّ إلى تركيب(synthesis) ، في حركة جدلية مستمرّة تنتهي بتحقّق المطلق.

❖ نستخلص ممّا سبق أنّ الجدال كمصطلح غربي يُفهم أساسًا بوصفه نقاشًا عقليًا قائمًا على أسس منطقية، ومع ذلك، لا ينفصل هذا المفهوم–خصوصًا في صورته التّطبيقية– عن الطّابع السفسطائي الذي يستبطن أحيانًا الرّغبة في إفحام الخصم وتحييد رأيه، لا لبلوغ الحقيقة بل لإثبات الغلبة. فالجدال، وإن انبنى على أدوات عقلية، قد ينزلق إلى المصادرة على المطلوب، أو المراوغة المنطقية، وهو ما جعل **كانط**، على سبيل المثال، يُطلق عليه منطقًا ظاهريًا يفتقر إلى اليقين ويقع في أسر الوهم الحسّي والعقلي.

وهذا الجانب السّلبي في الجدال الغربي يُقارب – من حيث المضمون– ما ورد في بعض الاستخدامات القرآنية واللّسانية العربية للفظ "الجدل"، حين يُوظَّف لإبطال الحقّ أو نشر الشبهة، لا لبيان الحجّة أو الدِّفاع عن الصَّواب، وهو ما يُفسّر ذَمَّه في بعض السّياقات القرآنية.

ج. مفهوم الجدال بالتي هي أحسن في مجال الدّعوة:

قد تقتضي الضّرورة التّخاطبية الدّعوية في مقام تبليغ الرّسالة، لجوء المخاطِب إلى الجدال وسيلةً للإقناع وإزالة الشبهة، غير أنّ الخطاب القرآني – في سياق تنظيمه لأدوات الدّعوة – لم يُطلق العنان لهذا الأسلوب دون قيد، بل أحاط المجادلة المأذون بها بسياج من الضوابط الأخلاقية والوظيفية، يمنعها من الانزلاق إلى مماراة عقيمة أو مشاحنات لفظية تُلهب النّفوسَ وتُفسد القلوب، وتُنتج تعصبًّا وجدالًا لأجل الغلبة لا الحقّ.

ومن هذا المنطلق، وجّه الله عز وجل نبيّه ﷺ وكلّ داعية من أمّته بقوله: ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النّحل:125]،كما خاطب المؤمنين بقوله: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[العنكبوت:46] . «فالجدال للوقوف على الحقّ أو للإقناع به عمل محمود، وقد يكون

واجبا لنصرة دين الله وإزهاق الباطل... أمّا الجدال انتصارا للنّفس، ورغبة في الاستعلاء والغلبة، فهو عمل مذموم، وقد يكون حراما إذا كان فيه طمس للحقّ، أو تضليل للطّرف الآخر المجادل»[1].

ولعلّ من اللّافت في البنية الأسلوبية للآية أنّ القرآن لم يصف الجدال بأنّه "حسن" – كما وصف الموعظة بـ "الحسنة" – وإنّما قيّده بـ "التي هي أحسن"، إشارة إلى أنّ الأصل في الجدال هو الخصام والمنازعة، وبالتّالي فهو لا يكون محمودًا إلّا إذا التُزم فيه أرقى درجات الحِجاج والتّخاطب، على مستوى القول والنيّة والأسلوب.

و"التي هي أحسن"، درجة «أعلى من مجرّد أن تكون حسنة، وهي إشارة إلى الجدال الأمثل؛ فعندما نكون في حالة جدال، يكون الاحتياط أكثر، والتّدقيق في العبارات وفي المواقف وفي كلّ شيء يكون أكثر وأشدّ؛ لأنّك مع خصم، ومع معارض ومخالف»[2]. ومن هنا، فإنّ الجدال المحمود، كما رسمه المنهاج القرآني، هو الجدال المؤسَّس على الإنصاف، والمرتكز على الحقِّ، والمحفوف بالحكمة والموعظة، وهو ما اتَّبعه الأنبياء والرّسلُ والدّعاةُ الصادقون في خطاباتهم عبر التّاريخ.

❖ **مناقشة وتحليل:**

بعد استعراض مراتب الخطاب الدّعوي الثلاث، كما وردت في هذه الآية الجامعة،: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: 125]، يحسن التوقّف عند بعض اللّمسات البيانية والدّلالات التّداولية التي تعكس عمق البناء الخطابي الإلهي الموجَّه إلى النّبي ﷺ، ومن خلاله إلى كلّ داعٍ إلى الله.

➢ قال تعالى مخاطبا نبيّه ﷺ: ﴿ٱدۡعُ﴾ يا **محمّد** إلى سبيل ربّك، «وحُذِف المفعول إمّا للتّعميم وعدم الحصر لكونه بُعث إلى النّاس كافّة، وإمّا لانزال الفعل منزلة اللّازم، لأنّ المقصود الدّوام على الدّعوة، لا بيان المدعوّين، لأنّ ذلك أمر مَعلوم من حال الدّعوة»[3]. لقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[النحل:

[1] عبد الرحمان حسن حبنكة، فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، م س، ج1، ص:639.

[2] سفر الحوالي، دروس للشيخ سفر الحوالي، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، ج9، ص: 13.

[3] الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، م س، ج14، ص: 327.

123]، للدّلالة على أنّ السّبيل المراد في الآية الأولى، هو ملّة سيّدنا إبراهيم عليه السلام ، وهي ملّة التّوحيد: ملّة الإسلام.

فلا تكون الدّعوة إلّا لتوحيد الله وتنزيهه عمّن سواه، وهي من أساسيات الخطاب الدّعوي، بل من أولويّاته. فمن دعا إلى ما دعا إليه النبيّ ﷺ فهو من دعاة الله، يدعو إلى الحقّ والهدى، ومن دعا إلى ما لم يدع إليه **مُحَمَّد** ﷺ فهو من دعاة الشيطان يدعو إلى الباطل والضّلال.

➢ أضاف لفظة "سبيل" إلى ذاته جلّ وعلا ﴿سَبِيلِ رَبِّكَ﴾، أوّلا تثبيتا للنبيّ ﷺ على الدّعوة، لما في كلمة "رب" من دلالات على عنايته ومعيّته سبحانه له في مسيرته الدّعوية، وثانيا للإشارة لعباده«...ليعلموا أنّه هو وضعه، وأنّه لا شيء يوصل إلى رضوانه سواه. وذكر من أسمائه الرب؛ ليعلموا أن الربّ... هو الذي وضع لهم هذه السّبيل لطفًا منه بهم، وإحسانًا إليهم، لينهجوها في مراحل حياتهم، فكما كان رحيما بهم في خلقه، كان رحيما بهم في شرعه...»[1]، وفي ذلك بيان للمنهج وأصله.

➢ الباء في قوله ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ هي للملابسة، فهي تُشير إلى أنّ الدّعوة لا تنفكّ عن الحكمة، فهي ملازمة لها في كلّ مستوياتها؛ فالموعظة الحسنة فرع من الحكمة، تمارس في مقام استمالة القلب وقد يُسلك بها مسلك الإقناع. والجدال بالتي هي أحسن لا يُمارس إلّا إذا انبنى على حكمةٍ حجاجية راشدة، تَستعملُ الحجّةَ لا الخصومةَ.

➢ أشار **ابن القيم**، إلى التّرتيب البياني للمراتب الثلاث بقوله: «جعل الله سبحانه مراتب الدّعوة بحسب مراتب الخلق. فالمستجيب القابل الذكيّ الذي لا يعاند الحقّ ولا يأباه: يُدعى بطريق الحكمة. والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخُّر: يُدعى بالموعظة الحسنة. وهي الأمر والنّهي المقرون بالتّرغيب والتّرهيب. والمعاند الجاحدُ: يجادل بالتي هي أحسن»[2]. فقد جاءت مراتب الدّعوة تعكس تدرجًا تداوليًا-نفسيًا في التّعامل مع المخاطَبين وهم على ثلاثة أصناف:

- **الصّنف الأوّل**: صنف مؤمن، مذعن للحقّ، مستجيب له، «وهؤلاء هم الذين كان

[1] عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس "في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، م س، ص ص: 318-319.

[2] ابن القيم الجوزية، تفسير القرآن الكريم، تح: إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ، ص: 359.

منهم الصّحابة الكرام، فهؤلاء الذين أمر الله رسوله ﷺ أن يَصبر نفسه معهم، فقال سبحانه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: 28]»[1]. وهذا الصنف لا يحتاج إلى ترهيب أو مجادلة، بل إلى خطاب رصين بالحكمة، يتّسم بالتدرّج، ومراعاة لطاقة المتلقّي واستعداده النّفسي، حتّى لا تُثْقِل عليه التّكاليف ولا تُربكه التّعاليم قبل تمام التّهيئة.

- **الصّنف الثّاني**: صنف وقع في الغفلة «إمّا غفلة أصليّة لازمة كغفلة المنافقين، فيكون غافلا عن ذكر الله لا يريد الله ولا رسوله ولا الدّار الآخرة؛ وإمّا غفلة تُعرض للمؤمنين بسبب الشّهوات، ونتيجة لحبّ الدنيا، ونتيجة لإغواء الشيطان»[2]. عالج الله من تعتريه الغفلة بأن يُدعى بالموعظة الحسنة، إمّا ترغيبا أو ترهيبا، لتليين قلبه وتحريك وجدانه دون قسوة أو عنف.
- **الصنف الثالث**: صنف مُعْرِضٌ يعاند ويحاجج، «فالأسلوب الأمثل مع مثل هذا في الدّعوة هو قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾»[3]. فكما رأينا سابقا أنّ الحكمة جاءت مطلقة لأنّها لا تكون إلّا حسنة، وقُيّدت الموعظة بالحَسنة لأنّ الواعظ قد يُغْلِظُ القول فيُفسد المقصود. أمّا الجدال فلا يكون إلّا بين متخاصمين متعارضين، لذلك وجب أن يكون بالتي هي أحسن ولأنّه يقتضي «صدور الفعل من الجانبين...كقوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون: 96]»[4].

وجيء بفعل المجادلة على عكس الحكمة والموعظة، لأنّ الجدال عارض في الدّعوة، ولأنّ الإذن به مقيَّدٌ بأن يكون بالحسنى. والضمير في ﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾ «عائد إلى المشركين بقرينة المقام؛ لظهور أنّ المسلمين لا يجادلون النبيء ﷺ ، ولكن يتلقّون منه تلقّي المستفيد والمسترشد»[5]،فالجدال لا يكون إلّا مع المعاندين، والمعارضين الرّافضين.

- قَصْرُ الدّعوة على الحكمة والموعظة الحسنة «أمّا الجدل فليس من باب الدّعوة، بل

[1] سفر الحوالي، دروس للشيخ سفر الحوالي، م س، ج9، ص:11.
[2] سفر الحوالي، دروس للشيخ سفر الحوالي، م س، ج9، ص: 12.
[3] م ن، ج 9، ص: 13.
[4] الطّاهر بن عاشور ، التّحرير والتّنوير، م س، ج14، ص: 328.
[5] ينظر: م ن، ج 14، ص: 328.

المقصود منه غرض آخر مغاير للدّعوة وهو الإلزام والإفحام فلهذا السبب لم يقل ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن، بل قطع الجدل عن باب الدّعوة تنبيها على أنّه لا يُحَصِّل الدّعوة، وإنّما الغرض منه شيء آخر»[1]. فالجدال ليس مسلكا مقصودا بذاته، ولا يكون إلا بقدر الحاجة إليه.

والسّبب في هذا القصر راجع إلى أنّ الوظيفة التّداولية للجدال تختلف جذريًا عن وظيفة الدّعوة: فالدّعوة خطاب تنويري-تحفيزي، يهدف إلى إيقاظ العقل، وترقيق القلب، واستمالة الإرادة نحو الخير، أمّا الجدال، فوظيفته إلزامية—حجاجية، يسعى لإثبات الرأي وإبطال النّقيض، وقد ينطوي على تحدٍّ للخصم أو دفعٍ للمقاومة، ممّا يجعله غير مناسب دائمًا للمقام الدّعوي، خصوصًا في بداياته.

ولأنّ الأصل في الجدال «أنّه لا يُؤَدِّي إلى ثمرة في الدّعوة»[2]، لأنّ الغرض منه في الأساس هو إقامة الحجّة، وإلزام الخصم والتغلّب عليه في مقام الاستدلال. في حين أنّ الدّعوة لا تهدف بما فيه لسان حالها: خطابُها، إلى تبكيت المخاطَبين وإلزامهم، بقدر ما تهدف إلى إنارة عقولهم وصقل قلوبهم، لما فيه خير دينهم ودنياهم.

❖ **خلاصة القول:**

لقد اقتضت الآية الكريمة: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ١٢٥ ﴾ [النحل: 125]، أن يشتمل الخطاب الدّعوي على هذه المراتب الثلاث من الدّعوة، ليس على صفة التّباين الصّارم والتّقسيم الثابت ، ولكن على صفة التّداخل الوظيفي[3]. وهذا ما نجده مجسّدا في الخطاب الدّعوي القرآني، ولكن قد تجتمع المراتب الثلاث في بعض الخطابات البشريّة وقد تنفرد، بحسب المقام والمتلقّي، فالمراتب الثلاث ليست مراتب زمنيّة أو مراحل متتابعة، بل هي أدوات تداوليّة تكامليّة، يُفعّلها المخاطِب تبعًا لمقتضى الحال.

[1] الرازي، مفاتيح الغيب، م س، ج20، ص: 287.

[2] سفر الحوالي، دروس للشيخ سفر الحوالي، م س، ج9، ص: 13.

[3] ينظر: الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، م س، ج14، ص : 332.

ثمّ يُفهم من الآية أنّ الغاية النهائية للدّعوة ليست المجادلة أو الغلبة، وإنّما: تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى، وتبليغ شرعه كما بيّنه في كتابه وفسّره رسوله ﷺ، وتهذيب النّفوس وتعليم المتلقّين ما يُصلِح دينهم ودنياهم، بأسلوب يرضاه الله تعالى لا يفرضه الهوى أو الانفعال.

ولذلك، فإنّ الأسلوب الدّعوي الشرعي الأصيل هو ما جاء في صدر الآية: الحكمة والموعظة الحسنة، أمّا الجدال، فإنّه ذيلٌ على الدّعوة لا أصلٌ فيها، يُستدعى عند الحاجة، ويُقيَّد بشروط صارمة: أن يكون بالحسنى، وأن يُمارَس بقصد الإقناع لا القهر، وأن لا يُطغى به على المقصد الدّعوي الأصيل. فالخطاب الدّعوي، كما ترسمه هذه الآية، هو خطاب يقوم على: الصدق في المضمون، والحكمة في الوسيلة، والمرونة في التّوجيه، مع مراعاة تدرّج النّفوس وتباين مستويات الفهم والانفعال، وهذا ما يجعل من الآية الكريمة مرجعًا تأصيليًا متكاملًا لمنهاج الدّعوة الإسلامية في بعدها التّداولي والتّربوي.

الفصل الثّاني:

مقوّمات الخطاب الدّعوي في كنف السّورة "ق".

- المبحث الأوّل: أطر الخطاب الدّعوي.
- المبحث الثّاني: استراتيجيّات الخطاب الدّعوي.
- المبحث الثّالث: غايات الخطاب الدّعوي.
- المبحث الرّابع: رهانات الخطاب الدّعوي في مواجهة خطابات التّضليل.

المبحث الأوّل:

أطر الخطاب الدّعوي.

- الموضوع بوصفه أولويّة خطابية.
- لا مركزيّة المتكلّم.
- التّجاهل التّداولي المقصود للمتلقّي.

توطئة:

إنّ النّفس البشرية مجبولة على حبّ الدّفاع عن ذاتيتها وتقرير مطالبها وإيضاح أبعاد مقاصدها حتّى في المواقف الأكثر شدّة، كمشهد يوم القيامة، فإنّها تتمسّك بهذه النّزعة البيانية الإنسانية، يقول تعالى: ﴿ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا...١١١ ﴾ [النحل: 111]. ولقد صرّح القرآن الكريم بأنّ الإنسان بطبعه مجادل برغم وجود الحجج والبراهين الدّامغة والآيات السّاطعة والأمثلة المتعدّدة: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا٥٤ ﴾ [الكهف: 54].وهذا ما أشار إليه **ابن كثير** في قوله «... الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحقّ بالباطل إلّا من هدى الله بصره لطريق النّجاة»[1]. إنّ القرآن منذ أن نزل به الرّوح الأمين على قلب سيّدنا مُحَمَّد ﷺ وهو كتاب هداية ودعوة، الهداية أساس العقيدة، والدّعوة أساس نقل هذه العقيدة. إنّهما مسألة القرآن الأولى، ومسألة الغاية الكبرى التي يدور حولها، يقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ﴾ [البقرة: 2] .

إنّ الخطاب القرآني في مجمله خطاب دعوي بالدّرجة الأولى، اختلفت فيه وسائل الدّعوة من الأمر المباشر، إلى التّلميح وضرب الأمثال، وهذا ما نجده في القصص القرآني للأنبياء، والصالحين، وسير الأقوام التي أنكرت الرّسالات وانتهت إلى الهلاك، ويُمثّل تجليًّا بليغًا لهذا التّوظيف المقصود. بل إنّ توسيع مجال الخطاب ليشمل حتّى الكائنات غير العاقلة – كما في حديث الحيوان – يكرّس شمولية الدّعوة القرآنية، ويؤكّد أنّ النصّ القرآني في كليّته مشروع بلاغي دعوي يروم هداية الإنسان عبر استراتيجيات لغوية متعدّدة الأبعاد.

ومن أسماء القرآن: الوحي، قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ ﴾ [النجم: 4]، وقال كذلك: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ ﴾ [الأنبياء: 45]، وسُمّي القرآن وحيا لأنّه أُنزل كذلك، قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾ [الأنعام: 19]. فللوحي دلالتان:

- من حيث أنّه حدث، ، وهو المعنى المصدري- مصدر فعل وحى-يقول **ابن منظور**:« الوحي: الإشارة والكتابة والرّسالة والإلهام والكلام الخفي وكلّ ما ألقيته إلى غيرك»[2].
- ومن حيث أنّه اسم أو صفة ملازمة للقرآن« فكون القرآن" وحيا" هو المعراج الرئيس الذي

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م س، ج5، ص: 154.

[2] ابن منظور، لسان العرب، م س، ج15، ص: 379.

يرتقي القارئ له إلى سماء القرآنية! المصطلح المفتاح الذي به يكتشف طبيعة القرآن، ويُبصر نوره، ويتلقّى حقائقه الإيمانية ورسالاته الربّانية»[1] .

إنّ تلقّي القرآن بصفته وحيا هو المفتاح الأساس لاكتشاف رسائله الرّوحية التي تسري في كلماته، إنّه النّور الذي سار على هديه كلّ الدّعاة منذ أن خلق الله السّموات والأرض. ولقد تعرّضنا في أحد مباحث الفصل الأوّل إلى أهمّ التحديّات التي تواجه الخطاب الدّعوي، والتي من بينها غياب المنهج، وتشتّت السّبل وضياع الجهد، بالإضافة إلى الانحراف عن الميزان الشرعي لمسلك الوحي: برنامجا ومنهاجا.

إنّ اعتبار وحي القرآن، حدثا انتهى وانقطع بوفاة النّبي ﷺ ، يؤدّي إلى الابتعاد عن حبل الله، «عن أبي شريح الخزاعي، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: (أَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟) قَالُوا: بَلَى قَالَ: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ*طَرَفَهُ بِيَدِي اللهِ، وَطَرَفَهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا)»[2].إنّ القرآن مصدر هداية دائم لا ينفصل عن واقع الإنسان.

إنّنا نعيش ما يعرف بأزمةِ «... غياب التّداول الاجتماعي للقرآن الكريم»[3]، وفي محاولة إلى مواجهة هذه الأزمة، نصبو في هذا الفصل التّطبيقي، إلى استلهام أطر عامّة للخطاب الدّعوي من خلال تدارس الخطاب القرآني في سورة "**ق**". هذا الخطاب الذي لا يجاريه أيّ خطاب من حيث القوّة التّأثيرية ؛ ففيه تتضافر وتتعاضد جملة من الآليات سواء كانت لغويّة، أو تداولية في سبيل تحقيق الوظيفة الإقناعية، فلا يترك أيّ مجال لمقارعة حججه.

هذا المعنى يعضده **الصنعاني**(ت1182هـ) بقوله: «ولو تأمّل النّاظرون والمناظرون تأديبات القرآن وكيفية إقامة البرهان الذي هو غاية البيان، لاستغنوا به عن تأليف اليونان، وتعلّم آداب البحث لفلان وفلان»[4]، فلقد أيّد الله أولياءه بما يوجب لهم الحجاج بالحقّ وعن الحقّ، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ

---

[1] فريد الأنصاري، هذه رسالات القرآن فمن يتلقاها، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط3، 2014، ص: 42.

* معنى سبب هنا هو الحبل: ابن منظور، لسان العرب، م س، ج1، ص: 458.

[2] الطبراني، المعجم الكبير، تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ج22، دار النشر: مكتبة ابن تيمية ،القاهرة، مصر، ط2، (دت)، ص: 188.

[3] فريد الأنصاري، م س، ص: 11.

[4] الأمير الصنعاني، إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، الدار السلفية، الكويت، ط1، 1985، ص: 153.

بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: 33]؛ ذلك أنّ الأطر المرجعية للحجاج ومبادئه الأولى تنبثق من الكتاب والسنّة، إذ يشكّلان المنبع الأصيل الذي تستقي منه الثقافة الإسلامية أُسس التّوجيه الحواري وآليات الإقناع الشرعي.

من المسلَّم به أنّ القيم الإسلامية في الكتاب والسنّة، خالدة وثابتة ومجرّدة من حدود الزّمان والمكان، مصدرها إلاهي مقدّس، أمّا أساليب إبلاغها وتوصيلها للنّاس، وبالتّالي دعوتهم إلى اعتناقها والعمل وفقها وبها، فهي اجتهادات بشريّة يكتنفها الخطأ والصّواب. لذلك كان من الضروري في نسج معالم الخطاب الدّعوي، اتخاذ القرآن الكريم موردا رئيسا، منه يُتلقّى النّور والهدى، وعليه تُبنى القواعد والرؤى.

وبالتّالي، سيكون مرجعنا خلال كلّ هذا الفصل، كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، نستخلص منهما ما وفّقنا الله إليه من عناصر نبني عليها تصوّرنا لمقوّمات الخطاب الدّعوي، لذلك كان لنا في سورة "**ق**" هذه التأمّلات الحجاجية.

1- الموضوع بوصفه أولويّة خطابية:

لكلّ خطاب موضوع يدور حوله وفي صلبه، ونقصد بالموضوع تلك «البنية الدّلالية التي تصبّ فيها مجموعة من الآيات بتضافر مستمرّ، قد تطول أو تقصر حسب ما يتطلّبه الخطاب من إيجاز أو إطناب، أو شرح وتمطيط»[1]. وهنا نحن بصدد معرفة القضايا ذات الأولوية التي يجب أن تكون في صدارة اهتمام صانع الخطاب الدّعوي، وبالتّالي تكون هي المواضيع القاعدية التي يبني عليها خطّته في الدّعوة.

لقد تعرّضنا في المدخل إلى "المفصّل" من القرآن، وقلنا أنّه يسمّى "المحكم" أيضا؛ لتناول سوره المسائل التي بها يُحكم دين الفرد، وهي أمور العقيدة والدّار الآخرة. فهما تمثلّان مسألة وجود هذا المخلوق في هذا الكون ومسألة مصيره، ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرّر، ذلك أنّ الأسلوب القرآني يدعها في كلّ عرض جديدة، حتّى لكأنّما يطرقها للمرّة الأولى.

[1] ينظر: مُحَمَّد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2009، ص:180.

بناءً على ما سبق ذكره، فإنّ سورة "**ق**"؛ باعتبارها فاتحة المفصّل -كما ذكرنا- تحمل كلّ خصائصه التّعبيريّة والموضوعيّة، حيث أنّ الموضوع الرّئيس الذي تتناوله إنّما هو تقرير عقيدة البعث، كمسألة مركزيّة، إلى جانب ثوابت الدّين المتمثّلة في القرآن ونبوّة الرّسول ﷺ. سورة "**ق**" تخاطب إنسانا غارقا في الغفلة، تهزّه لتخرجه من حالة الشكّ والرّيبة إلى حالة اليقين، تنزع عنه غطاء التردّد، تحيط به، تحاصره، تضغط على مواطن الضّعف فيه، فلا يجد مفرّا من التّسليم والإذعان حتّى وإن لم يقرّ بذلك.

لم يسمح الخطاب القرآني بتجاوز عبارة ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣ ﴾ [ق: 3]، لقد شَنّ حملة قويّة وعنيفة وذلك من بداية السّورة إلى آخرها، للردّ عليها وتكذيبها ودحضها. إنّ مسألة الكفّار الأولى لم تكن في وجود القرآن، بل إنّ إعراضهم عنه كان بما يقتضيه هذا القرآن: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ ﴾ [يونس: 15].

هم لا يعنيهم وجود قرآن عبارة عن كتاب قصصي، أو تاريخي، أو حتّى معرفي، هم لا يعنيهم كلّ هذا مادام هذا القرآن لا يتحكّم في حياتهم أو معتقداتهم، إنّ ما يخيف الكفّار حقّاً هو معنى العبودية لله وما يترتّب عنها من تَبِعات.

ونحن اليوم نعيش الموقف نفسه، إذ تنادي الحضارة الغربية الماديّة البهيمية بإلغاء فكرة البعث والدّار الآخرة، يريدون إلغاء النّفس ﴿ ٱللَّوَّامَةِ ﴾، لا يوجد بعث وبالتّالي لا وجود لما يسمّى حساب، ليتحقّق قوله تعالى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ ﴾ [القيامة: 5]. طبيعي أنّ الذي لا يؤمن باليوم الآخر سيظلم وسيطغى، يقول تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ ﴾ [الماعون:1-2- 3]. فلا مناص من وجود خطاب دعوي يتكفّل بالردّ على مثل هذه الأباطيل، ولن نجد أحسن من الخطاب الدّعوي القرآني نموذجا يُحتذى به.

إذن فالمسألة المركزيّة التي يتناولها الخطاب هنا تتمثّل في إثبات البعث وإقامة الحجّة على المشركين، وتسليمهم بها، وهي موضوع السّورة، سنحاول استعراض الآيات من سورة **"ق"** التي تعضُد هذا التّرجيح.

أ. القرآن مرجعيّة تأسيسيّة للخطاب الدّعوي:

قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ **[ق:1].**

يعدّ القسم في الخطاب القرآني من أبرز الأساليب البلاغية التي يُستثمرُ فيها عنصر التّأثير والإقناع، إذ لا يَرِد لمجرّد التّوكيد، بل يُؤدّي وظيفة إقناعيّة في إظهار أهميّة المقسَم عليه وتعظيم شأنه، ولشدّ انتباه المخاطَب، وإثارة وعيه للتأمّل في منزلته ومكانته المجيدة. إنّ القسم في السّياق القرآني إعلان ربّاني عن جلالةَ ما يُراد بيانه، وترسيخ لهيبة القرآن باعتباره المصدر الأعلى للهداية، ومظهرا من مظاهر مجده وخلوده.

يقسم سبحانه بأنّ المجد والعظمة والكمال والعزّة لهذا القرآن. يُشير استعمال القَسم إلى الثّقة المطلقة واليقين التّام والتّأكيد على صدق ما سَيَلي القسم من جواب. وجاءت ﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾ على وزن فعيل، وهي صفة مشبّهة تدلّ على الثّبات على خِلاف اسم الفاعل "ماجد"، «وأمّا كمال مجده الذي دلّت عليه صيغة المبالغة بوصف مجيد فذلك أنّه يفوق أفضل ما أبلغه الله للنّاس من أنواع الكلام الدّال على مراد الله تعالى»[1]. فالقرآن مهيمن ومسيطر على جميع الكتب السّابقة، وهو أيضا يُمجّد ويعَظّم من تمسّك به، نذكر هذا وسورة **"ق"** نزلت بمكّة، والمسلمون مستضعفون، وهذا قمّة التحدّي لمنكري البعث.

لقد حُذِف جواب القَسم وذلك «لتذهب نفس السّامع في تقديره كلّ طريق ممكن في المقام»[2]. وقد اختلف المفسرون في تقديره قياسا على ما جاء من قبيله في القرآن الكريم، ونرجّح في هذا المقام ما جاء به **المبرّد**(ت285هـ)، و**الزجّاج**(ت311هـ)، و**الأخفش**(ت315هـ)، «حيث قدّروا الحذف

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير، م س، ج26، ص: 277.

[2] ابن عاشور، م ن، ج26، ص: 277.

بـ" لتُبعثُنَّ"»[1]. فيكون تقدير الكلام (والقرآن المجيد لتبعثنّ). ولنا أن نقول أنّ المقسم عليه هو كلّ ما تثبته هذه السّورة من حقائق أخروية، من أولّها إلى آخرها.

ويذكر علماء اللّغة والبلاغة أنّ الحذف في الكلام لا يكون عبثا، وإنّما يكون لغرض وفائدة، وقد حُقَّ-من ثمّة- لل"**جرجاني**"(ت471هـ)، أن يصفه قائلا: « هوباب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسّحر، فإنّك ترى به ترك الذّكر أفصح من الذّكر، والصّمت عن الإفادة، أزيد للإفادة ونجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانا إذا لم تبن»[2].

نحاول هنا أن نستشف دلالة الحذف في سياق القسم ، فإنّ الجملة القرآنية مع الحذف في جواب القسم« تكون أشدّ وقعا على النّفس، وأتمّ بيانا، وأفصح من الذّكر» [3]. لأنّ الحذف هو من أقوى التّعابير التي يستشعرها العرب نظرًا لرهافة ذائقتهم اللغوية، إضافة إلى أسلوب القسم الذي غايته التّأكيد والتحدّي والتّهديد، خاطبهم الله سبحانه وتعالى بأسلوب القسم المقترن بالحذف «فهؤلاء يكفيهم الرّمز وتقنعهم الإشارة عن صريح العبارة. وقديما قال العرب في أمثالهم " تُقرع العصا لذي الحلم"»[4]. إنّ الأصل في الكلام هو الإفصاح والذكر، ولكن قد يكون عدم الإفصاح أقوى دلالة وتأثيرا في نفس متلقّي الخطاب؛ لأنّه يعزّز لديه الاقتناع لا الإقناع.

ولعلّ هذا ما لَمَّحَ إليه **حبنكة الميداني**(ت1425هـ) في سياق كلامه عن دواعي الحذف البلاغي أنّ منها «تخييل العدول إلى أقوى الدّليلين من العقل أو اللّفظ، باعتبار أنّ التوصّل إلى فكرة ما عن طريق الاستدلال العقلي أقوى لدى الإنسان من أن تبيّن له عن طريق دلالة اللفظ... ففي الحذف إثارة للفكر»[5].

---

[1] ينظر: ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب، م س، ج18، ص: 8.

[2] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود مُحَمَّد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ط3، 1996، ص: 146.

[3] عبد الفتاح لاشين، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، دار المريخ، الرياض، السعودية، (دط)،(دت)، ص:160.

[4] حسن حبنكة الميداني، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، سوريا، ج1، ط1، 1996، ص: 312 .

[5] م ن، ج1، ص: 337.

يعدّ الحذف من الأساليب البلاغية البارزة في الخطاب القرآني، وله وظيفة تتجاوز مجرّد الاختصار إلى إثارة الفكر وشحن الذهن، وفيه يُفسح المجال أمام المتلقّي لإعمال فكره في استكمال المقصود، فيتحوّل من متلقٍّ سلبي إلى مشارك فعّال في عمليّة الفهم والتّأويل. وهذا النّوع من الخطاب يُراعي عمق الإدراك ويُعزّز أثر المعنى في النّفس، وهو ما يُضفي على النصّ القرآني حيويّة وتجدّدا في التلقيّ عبر الأزمنة.

يعدّ القرآن الكريم المرجع الأساس في التّقعيد لبنية الخطاب الدّعوي اللّسانية، وذلك من حيث هندسته الخطابية وآلياته البلاغية ومساراته الإقناعية. فالخطاب القرآني يمتلك كلّ الخصائص التركيبية والدّلالية التي تجعل منه نموذجا متكاملا لبناء خطاب دعوي يستجيب لحاجات النّفس والعقل والوجدان. وقد تجلّى هذا في تنوّع أساليب الخطاب القرآني بين الحذف، والتّقرير، والاستفهام، والتّعليل... وفي مراعاته لسياق المخاطَبين ومستويات إدراكهم.

إنّ دراسة الخطاب الدّعوي المعاصر لا تكتمل إلا باستحضار البنية القرآنية كإطار منهجي، تُستلهَم منه الأدوات، وتُقاس عليه الفاعلية الدّعوية في بُعدها الحجاجي، فالقرآن لا يقدّم خطابا دعويّا فحسب، بل يقدّم نموذجا قابلا للتّحليل والتّطبيق والتّجديد ضمن الأطر الشرعيّة والمعرفيّة الرّاسخة.

ب. تفعيل الدّلالات الكونيّة في الخطاب الدّعوي:

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١ ﴾ **[ق: 11].**

من سنن القرآن الكريم في بناء البرهان أن يربط الغيب بالإدراك الحسّي، فيقرّب المفاهيم العقديّة الكبرى من واقع التجربة الإنسانيّة، ومنها القياس بين إخراج النّبات من الأرض وإحياء الموتى، فالقادر على إخراج النّبات من الأرض(الحيّ من الميّت)، وإحياء الأرض بعد موتها بماء المطر، قادر على إحياء الموتى يوم القيامة.

ومشهد نزول المطر مرتبط بمشهد البعث، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ ... ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ

إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهْوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[1]. بهذا الرّبط البياني، يُصبح المشهد الطبيعي برهانا عقليا ومجالا للتفكّر في قدرة الله، وهو ما يجعل الإيمان بالبعث ليس مجرّد تسليم، بل نتيجة منطقيّة لسُنَنٍ مشهودة في الكون.

وبناء على ذلك، يتعين على المتكلّم في الخطاب الدّعوي أن يستلهم من المنهج القرآني هذا المسلك البياني، فيُحسن توظيف الظواهر الكونية في خطابه، لا بوصفها مشاهد معزولة، بل باعتبارها أدلة حيّة تخاطب العقل والوجدان، ويتوجّب عليه أن يجعل من هذه الآيات مدخلا لإثارة السؤال الوجودي في نفس المتلقّي، فينقله من المشاهدة العابرة إلى التأمّل الهادف، ومن الانبهار بالمخلوق إلى الانبهار بالخالق.

إنّ الربط بين الآيات الكونية والحقائق الإيمانية، يمنح الخطاب الدّعوي بعدا علميا وعقليا ينسجم مع متطلّبات الإنسان المعاصر، يُعلي من شأن العقل كأداة لفهم الرّسالة الربّانية، وهكذا يتحقّق مقصود البلاغ، حين تصبح آيات الكون جسرا يوصل المتلقّي إلى نور الوحي، ويجعل من التأمّل سببا في الهداية.

ت. ثبات الخطاب الدّعوي:

قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥﴾[ق:15].

يبرز في النصّ استفهام بلاغي شديد اللهجة، إذ جاء مشبّعا بشحنات دلاليّة متعدّدة، تتوزّع بين الإنكار والتّقرير، والتوبيخ، والتقريع، ممّا يضفي على الخطاب طابعا نقديّا لاذع اللّهجة، يهزّ المخاطَب ليفضح تناقضه ويقوّض منطقه، ويُبرز هشاشة موقفه. إنّ هذا الاستفهام يضعه في مواجهة مع ذاته ، فيُدعى إلى مراجعة مسلّماته التي لا يملك لها برهانا، وهنا تتجلّى القوّة البيانية للخطاب القرآني، إذ يتحوّل الاستفهام إلى أداة لتثبيت الحقّ، وزعزعة الباطل، وكشف تصوّر المخاطَبين.

إنّ الخطاب القرآني يُنكر على الكافرين شناعة مقولتهم باتّهام الذّات الإلاهية بالعجز، «والاستفهام المفرغ بالفاء استفهام إنكار وتغليط لأنّهم لا يسعهم إلا الاعتراف بأنّ الله لم يَعْيَ بالخلق الأوّل إذ لا

[1] ينظر: مُحَمَّد البخاري، صحيح البخاري، م س، ج6، ص: 165.

يُنكر عاقل كمال قدرة الخالق وعدم عجزه»[1]. قد يبدو أنّ الغاية من الأسلوب الإنكاري الذي ورد في الآية، هي التشفّي والانتقاص من المنكَر عليه، وهذا غير وارد، وقد نبَّه إلى ذلك **الجرجاني** في قوله: «واعلم أنّا وإن كنّا نُفسّر(الاستفهام) في مثل هذا بالإنكار، فإنّ الذي هو محض المعنى أنّه ليتنبه السّامع حتّى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيي[كذا] بالجواب»[2]. فليست الغاية من إنكار فعل مكذّبي البعث هي تبكيتهم وقمعهم، بقدر ما هي تنبيههم وردعهم، وهذا ما يجب أن يتحقّق في الحجاج الدّعوي الإنساني.

ثم يتمّ تقرير عنادهم وإصرارهم على الكفر ظاهريا لا باطنيا، دليله تتمّة الآية: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾، وهم «يعلمون ذلك ويعلمون أنّ الخلق الأوّل للأشياء أعظم من إعادة خلق الأموات ولكنّهم تمكّن منهم اللّبس الشّديد فأغشى إدراكهم عن دلائل الإمكان فأحالوه»[3]. وما أبلغ الردّ على الكفّار بالإضراب الإبطالي*، وتثنيته بالجملة الاسمية (هم في لبس) للدّلالة على تمكّن حالة المرج منهم، فهي ثابتة لا تغادرهم البتّة، ويزيد تأكيد تلك الحالة التي هم عليها، توظيف حرف الجرّ "في" إشارة إلى انغماسهم في لبسهم حتّى صار كالظرف وهم مظروفون فيه على سبيل الكناية، وجاءت "لبس" نكرة للمبالغة في كثرة مرجهم واختلافهم.

كما أنّه تعالى يوبّخهم على قُبح صنيعهم ونقيصة مقابلتهم لنعم الله عليهم ظاهرة وباطنة «تشير فاء التّفريع إلى أنّ هذا الكلام مُفرَّع على ما قبله وهو جملة ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [ق: 6] وقوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ [ق: 8]، المعَرِّض بأنّهم لم يتبصّروا به ولم يتذكّروا. وقوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ [ق: 9] وقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾»[4]. فالآية

---

[1] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م س، ج26، ص: 297.

[2] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، م س، ص: 119.

[3] م ن، ج26، ص: 298.

*معناه أن يبطل المعنى السّابق ويأتي بمعنى جديد مغاير له، مثال: زيد شجاع بل جبان، وفي القرآن الكريم: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: 11].

[4] الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، م س، ج26، ص: 297.

عطف على ما قبلها من ذكر لآلاء الله على العباد، ومقابلة الكفّار لتلك النّعم بالجدل والجحود والعناد.

لذلك ينبغي أن يتّسم المتكلّم في الخطاب الدّعوي بثبات راسخ على الحقّ، يستند فيه إلى يقين نابع من الوحي لا من اجتهاد شخصيّ، إنّ الثّقة الواعية تُحصّن الخطاب من الاضطراب أمام تشكيك المنكرين أو ادّعاءات المغرضين. فالدّاعية الثابت لا ينجرّ إلى منطق الخصم، ولا يسمح بتشتيت خطابه، بل يحافظ على وجهته، ويعيد بناء وترتيب النّقاش وفق معايير الحقّ القرآني. وهذا ما نلمسه بجلاء في الخطاب القرآني نفسه، حيث تتكرّر عبارات الثبات والتوكّل، مثل قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾ [هود: 112] ، وقوله: ﴿ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩ ﴾ [النمل: 79]، فثبات الدّاعية ليس خيارا بل هو التزام إيماني ومسؤولية دعويّة.

ث. يقين الخطاب الدّعوي:

قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ ﴾**[ق:20].**

يواجه الخطاب القرآني منكري البعث بعرض أحداث يوم القيامة بوصفها وقائع مؤكّدة، تُقدّم بأساليب تُحمّل المخَاطَب مسؤوليّة تلقّي هذه المشاهد باعتبارها وقائع مستقبلية مؤكّدة، إنّ القرآن لا يترك للمنكرين مساحات للتّأويل أو الإنكار، بل يُرسي أمامهم واقعا مهيباً، تتّسق فيه سلطة الخطاب مع يقين المضمون.

وتختلف الأساليب في تقرير تلك الحقائق إذ نجد في الآية الكريمة استعمال الفعل الماضي ﴿ وَنُفِخَ ﴾ للدّلالة على التّحقيق، مثال قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ [النحل: 1]، «فجيء بالماضي المراد به المستقبل المحقَّق الوقوع»[1]. والقرينة هنا مقامية فالسّياق القرآني يقتضي أنّ النفخ في الصور لم يحلّ بعد. «عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ (كَيْفَ أَنْعَمُ وَقَدِ الْتَقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَى سَمْعَهُ، يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفُخَ فَيَنْفُخُ)[2]، والنّفخة هنا هي النّفخة

[1] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م س، ج14، ص: 96.

[2] الترمذي، سنن الترمذي، م س، ج5، ص: 290.

الثّانية بدليل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠﴾، وقد اقتصر القول على الوعيد دون الوعد لاستيفاء الغرض من الخطاب وهو التّحذير والتّهديد.

يتميّز الخطاب القرآني بطرحه اليقيني القاطع، ذلك لأنّ له «سلطة لغوية عليا، تعلّل الارتكاز القويّ للتّمثيل منها»[1]، لا من جهة الأسلوب فقط، بل من جهة حضور الحقيقة بوصفها أمرًا مفروغًا منه لا يقبل التردّد أو الظنّ. ومن هنا فإنّ الخطاب الدّعوي، وهو يُستمدّ من هذا الأصل، لا يجوز أن يقدّم تلك الحقائق بأسلوب متردّد أو اعتذاري(apologectic)، بل عليه أن يُحاكي يقينيّة الطرح القرآني، في المضمون والمنهج، ليُبقي على مهابة الحقيقة ووضوحها في وعي المتلقّي.

إنّ ضعف أثر الخطاب الدّعوي في بعض السّياقات المعاصرة راجع – في كثير من الأحيان– إلى غياب هذا اليقين، حيث تُقدّم العقائد بلغة دفاعيّة أو احتماليّة، ممّا يُضعِف من أثرها الحجاجي، في حين يُملي النموذج القرآني أن تكون اليقينيّات الإيمانية مطروحة بثبات، وبلُغة تُشعِر السّامع أنّه أمام حقيقة لا جدال فيها، بل عليه أن يعيد موقعه منها، لا أن يفاوضها.

ج. الحثّ على التبصّر في الخطاب الدّعوي:

قوله تعالى: **﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ٤٢ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ٤٣ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ٤٤﴾[ق:43-44].**

وفي سياق تكذيب المشركين، يواصل الخطاب القرآني عرض مشاهد يوم القيامة رأي العين، فللقرآن قدرة عجيبة على اختراق حواجز الزّمان والمكان، له القدرة على استحضار الصورة– استعمال الأفعال المضارعة– فتبصر الدّار الآخرة من خلال آياته. ممّا رواه **التّرمذي**(ت279هـ) و**أحمد** من حديث **ابن عمر** قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ، فَلْيَقْرَأْ ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾ وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾)[2].

---

[1] قوتال فضيلة، حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التّداولية، دار كنوز المعرفة للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2017، ص:281.

[2] التّرمذي، م س، ج5، ص: 358.

يُوجّه القرآن خطابه إلى هؤلاء المستهزئين بالبعث المنكرين له، بلغة كلّها تحدّ وإفحام مركّزا على مواطن الضّعف فيهم مستعملا أسلوب التّخويف والتّرهيب، فهو يقول لهم: ستسمعون الصيحة بالحقّ الذي أنتم تمارون فيه، ستسمعونها يقينا لا ريب فيه ولا جدال، يقول **ابن عاشور**: «بالحقّ بمعنى: بالصدق وهو هنا الحشر، وصف بالحقّ إبطالا لزعم المشركين أنّه اختلاق»[1].وجيء باسم الإشارة لتعظيم أمر المشار إليه، وهو اليوم الذي يسمعون فيه الصيحة بالحقّ، إذ اقتضى المقام إبراز أهميّته وتمييزه بعناية خاصّة لما ينفرد به من خبر جلل وشأن عظيم.

لقد وُصف يوم القيامة بـ"يوم الخروج"، في مواضع عدّة من القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: 43]، وقال أيضا: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۖ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: 51-52]، . وذلك لأنّ الناس يخرجون فيه من قبورهم، في مشهد مهيب، إلى أرض المحشر للحساب والجزاء، فيتحقّق بذلك المعنى التامّ لـ "الخروج" من دار الفناء إلى دار البقاء

إنّ توظيف الخطاب الدّعوي لخاصيّة التبصّر، يُسهم في جعله يتجاوز كينونته خطاباً وعظياً، نحو خطاب تعبيري حيّ يجعل المستمع لا يكتفي بالفهم، بل يشعر وكأنّه يُبصِر الحقيقة، ممّا يحوّل المعرفة من مستوى الفهم إلى مستوى المعايشة، فيتولّد الانفعال، ويتحقّق الاقتناع.

ثمّ يأتي التّقرير لحسم المسألة فلا مجال للجدال، بالجملة المؤكّدة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ برابطين بلاغيين يتّسمان بالقوّة: أسلوب التّوكيد(إنّ)، والضمير المنفصل(نحن)، وذلك لتنبيه الغافل المتمادي في الضّلال أنّ محياه ومماته بيد الله وحده، وكذا مصيره ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾، وقُدّم الجارّ والمجرور على المبتدأ لإفادة الحصر. فلا يكون المصير إلا لله، فيجازي كلًّا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرًّا فشرّ. فمن باب أولى أن يرتدع هؤلاء المكذّبون بيوم الدين .

ويُختتم السّجال بربط نهاية السّورة بأولها وفيه تذكير بمسألتها الكبرى ، مسألة البعث التي جحدها الجاحدون، والتي كانت أوّل ما أُثير عند مُفْتَتَحِ السّورة: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ

[1] الطاهر بن عاشور، التحرير والتّنوير، م س، ج26، ص: 331.

بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾، جاء الختام لتقويض ذلك الادّعاء الباطل ونسفه من أساسه بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴿٤٤﴾﴾، بتقديم الجارّ والمجرور لتخصيص اليسر به تعالى. وكأنّه يقول لهم: إنّ الأمر الذي تنكرونه وتستصعبونه لدرجة نفي حدوثه، ليس أهون ولا أيسر منه على الله سبحانه، الذي إذا قضى أمرا فإنّما يقول له كن فيكون، «فعلى هذا الأساس العقدي العظيم، وجب أن يبني الدّاعية خطابه، وأن يسوق أدلّته وشواهده»[1].

إنّ تجريد الخطاب الدّعوي من مضامين القرآن المركزية، وخاصّة تلك المتعلّقة بالدار الآخرة، لا يُفضي فقط إلى إضعاف فاعليته، بل يُفرغه من روحه وهويّته الأصلية، ويحوّله إلى مجرّد خطابٍ إنشائي فاقدٍ للعمق والسّلطة الحجاجية. فاستحضار تلك المضامين يكون بوصفها «مكمّلة للاشتغال الحجاجي في الخطاب، إذ تعمل على دعم نظيراتها بمنحها الحصانة»[2]، وهي حصانة دينية مجسّدة في سلطة القرآن. فالموعظة التي لا تستند إلى حقيقة البعث والنّشور، ولا تستحضر مآلات الإنسان بعد الموت، تفتقد للقدرة على زلزلة القلوب، وإحداث التحوّل المنشود في وعي المتلقّي وسلوكه.

إنّ الحديث عن الآخرة ليس مجرّد موضوع من بين مواضيع الخطاب، بل هو ركيزة جوهرية تمثّل الامتداد الطبيعي لفكرة الاستخلاف والمحاسبة، وتضفي على الخطاب طابعه الإيماني الذي يسمو بالمتلقّي عن الانشغال بالمحسوس إلى التفكّر في المصير. ومن ثمّ، فإنّ تغييب هذا البُعد في الخطاب الدّعوي يُنتج خطابًا سطحيًا، عاجزًا عن التّأثير، لا يُعبّر عن طبيعة الدّين بوصفه دعوة إلى الحقّ والنّجاة، في الدّنيا والآخرة معًا.

❖ خلاصة القول:

نستخلص ممّا سبق أنّ هناك مسائل مركزية في الخطاب الدّعوي لا يجب التّهاون فيها أو إغفالها أو تهميشها. وليس هذا من الدوغمائية* في شيء، إنّما يجب على السّائر في طريق الدّعوة أن تكون

---

[1] فريد الأنصاري، مجالس القرآن، م س، ج2، ص:74.

[2] قوتال فضيلة، م س ، ص: 281.

* دوغمائي: عقيدي، جازم، مؤكّد بغير دليل. د. لطفي الشربيني، معجم مصطلحات الطب النفسي، مركز تعريب العلوم الصحية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ص: 45.

له أولويات لا يحيد عنها أبدا ، إنّه ليس مُطَمْئِنًا للنّاس على دنياهم ولا مبشّرا بزخارفها، بقدر ما هو مبلّغ وحامل رسالة. يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾ [المائدة: 67]. إنّ هذه الرّسالة تقتضي عرضا قرآنيا فعلى الدّاعية أن يجعل مرجع خطابه، وحادي دعوته منوطا بالوعد والوعيد.

لو رجعنا إلى سياق سورة "**ق**"، نجد هذه المقولة متصدّرةً للخطاب: ﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم **مُّنذِرٞ** مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ ﴾، حين تأمُّل البنية الدّعوية في الخطاب القرآني، نجد أنّ الإنذار والوعيد يشكّلان الوظيفة والدّعامة الرئيسة فيها، لا من جهة التّهديد فحسب، بل من جهة إيقاظ الوعي، وتنبيه الإنسان إلى خطورة الغفلة عن مصيره الأخروي. فالرّسول، في كثير من المواضع، يُقدَّم بوصفه مُنذر، وهذا ليس اختزالا لمهمّته بقدر ما هو إبراز لجوهرها العقدي .فعن **ابن عبّاس**- رضي الله عنهما – قال: «لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤ ﴾ [الشعراء: 214] صعد النّبي ﷺ الصفا فجعل ينادي:" يَا بَنِي فِهْرٍ! يَا بَنِي عَدِيٍّ!" لبطون قريش حتّى اجتمعوا فقال: " أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟" قالوا: نعم؟ ما جرّبنا عليك إلا صدقا، قال: " فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)»[1].

فتُمارس وظيفة الإنذار في الخطاب الدّعوي لا من باب التّرهيب المجرّد، بل من خلال تصوير المصير بتفصيل حيّ، وإقامة البرهان العقلي والوجداني، فالغاية ليست التّهويل، بل توليد أثر التبصّر الذي يُفضي إلى الرّجوع والإنابة.

2- لا مركزيّة المتكلّم:

لا يقوم الخطاب الدّعوي في بنيته الأصيلة، على مركزية المتكلّم بوصفه ذاتا مهيمنة، بل يستمدّ مشروعيته وقوّته من مرجعيّته النصيّة، فالخطاب الدّعوي لا يقدّم المتكلّم، بوصفه محورا، وإنّما يُغيّبه لصالح الرّسالة التي يُبلّغها. فالدّاعية أو ما نسمّيه في الدرّاسات اللّسانية "المتكلّم" أو "المخاطِب" إنّما هو في الأصل "مبلّغ" لدعوة الله، وحدّ التّبليغ يجعله متجرّدًا من ذاتيته.

[1] الملا علي القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، م س، ج 8، ص: 3369.

مصطلح" الذّاتية" عُرف مع اللّساني الفرنسي **بنفينيست**(ت1976م) حينما قال «عندما أخرج من ذاتي لأُعيد إقامة علاقة حيّة مع كائنٍ ما، ألتقي -أو أُنشئ بالضرورة - "أنت"فهذه الصفات: الداخلية (الذاتية) والتّعالي، هي صفات خاصة بـ"أنا "، وتنعكس في "أنت". يمكننا إذن تعريف "أنت" على أنّه الشخص غير الذّاتي (غير الفاعل ذاتيًا) الذي يواجه الشخص الذّاتي الذي يُمثّله "أنا"»[1].

ومن هنا، فضمير التكلّم - حسب **إميل بنفينيست** - يدلّ على الذّاتية، وضمير المخاطَب يدلّ على غير الذّاتية، يعني هذا «أنّ ضمير المتكلّم يحمل دلالات فلسفية وجودية (الوجود الإنساني) ، ودلالات فينومينولوجية (إدراك الذّات للموضوع) ، ودلالات سيكولوجية (علاقة الذّات بالوعي) ، ودلالات لسانية وتداولية»[2]. فالضمائر لا تحمل أيّ معنى في ذاتها «إلّا إذا ارتبطت بقائلها أو متلفّظها ضمن ملفوظ لساني معيّن في جملة أو خطاب ما»[3]، فالدّلالة ليست كامنة في الضمير ذاته، بل في علاقته بالملفوظ والسّياق.

تترابط الذّاتية واللّغة إذن داخل الحقل اللّساني، فاللّغة تعبير عن الكينونة، «فكلّ مقطع خطابي، كما تقول **أوريكيوني**، يحوي، بطرائق ودرجات مختلفة بصمة من تلفّظ به»[4]، انطلاقًا من هذا الفهم، فإنّ تقليل حضور ضمير المتكلّم والصيغ الانفعالية في الخطاب الدّعوي، خاصّة وأنّه بطبيعته خطاب وجداني، من شأنه أن يعزّز انفتاح المتلقّي عليه؛ إذ يشعر أنّ الخطاب لا يخصّ المتكلّم وحده، بل يشمله هو أيضًا، مما يوسّع من دائرة التّأثير والتلقّي.

---

[1]« quand je sors de moi pour rétablir une relation vivante avec un être, je rencontre ou je pose nécessairement un tu... Ces qualités d'intériorité et de transcendance appartiennent en propre au " je " et s'inversent en " tu ". On pourra donc définir le "tu "comme la personne non-subjective en face de la personne subjective que " je" représente». Emile Benveniste, problèmes de linguistique générales, tome 01, Editions Gallimard,1966,p :232.

[2] ينظر: جميل حمداوي، الاتجاهات السيميوطيقية، التيارات والمدارس السيميوطيقية في الثقافة الغربية، مج1، المكتبة الشاملة الذهبية، ص: 195، اطلع عليه يوم [2025/04/25، 10:45]، متاح على:
96890-195-2.https://ketabonline.com/ar/books/96890/read?page=195&part=1#p-

[3] م ن، اطّلع عليه يوم [2025/04/25، 11:30]، ص: 195.

[4] Catherine Kerbart Orecchioni, L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Librairie Armand-Colin, Paris, 1980, p: 157.

نقلا عن: مُحَمَّد نجيب العمامي، الذاتية في الخطاب السردي، دار مُحَمَّد علي للنشر، صفاقس، تونس،ط1، 2011، ص: 12.

وبالعودة إلى التّعريف المتداول للحجاج فهو يوصف بأنّه «دراسة التّقنيات الخطابية التي تقود الأذهان إلى الإذعان لما يُعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك الإذعان»[1].

فالخطاب الدّعوي بوصفه خطابا حجاجيا من الدّرجة الأولى يصبو إلى تحقيق الإقناع بإحداث التّأثير المؤدّي إلى الفعل. بعبارة أخرى «إنّه ينطلق من تفعيل الفكر ليصل إلى تفعيل العمل وتحقيقه، وسيلته في ذلك خطابية، وقناته هي التّأثير في ذهن المتلقّي»[2]. وهنا نطرح تساؤلا: هل يصبو الدّاعية إلى حمل المخَاطبين إلى التّسليم لأفكاره وآرائه الشخصية، أم يحملهم إلى الإذعان والتّسليم لله ؟

إذا تأمّلنا في طبيعة الخطابات الإنسانية دنيويّة المنهج والغاية، كالخطاب الإشهاري مثلًا، فإنّنا نجد أنّ الهدف الحجاجي الأساسيّ منها هو التّأثير في المتلقّي لإقناعه بجدوى منتج معيّن ودفعه إلى اقتنائه، بما يحقّق مصلحة ماديّة مباشرة للجهة المرسِلة للخطاب. وينسحب هذا الأمر كذلك على الخطابات الأيديولوجية أو الفكرية، التي تهدف إلى ترسيخ قناعات محدّدة، أو تبرير مواقف وأفكار معيّنة، أو توجيه منظومة اعتقادية لدى المتلقّي. وعلى الرغم من اعتماد هذه الخطابات على آليات الإقناع والتّأثير، إلا أنّ غايتها النهائية غالبًا ما تظلّ مرتبطة بمصالح فردية أو جماعية محدودة، لا تتجاوز الأُطر الأرضيّة للمصلحة والمنفعة.

في المقابل نجد أنّ من أهمّ مميّزات الخطاب الدّعوي أنّه خطاب ربّاني الغاية والوجهة، وربّاني المصدر والمنهج، نُقِل عن الشافعي أنّه قال: «ما ناظرت أحدا إلاّ قلت: اللّهم أَجْر الحقّ على قلبه ولسانه، فإن كان الحقّ معي اتَّبَعَني، وإن كان الحقّ معه اتَّبَعْتُه» . وبالتّالي يذوب شخص "المتكلّم" في شخص الدّاعية الذي يصبح يتكلّم بلسان دعوته لا بلسان حاله، وهنا تنقلب كلّ الموازين!

لتعزيز ما ذهبنا إليه سنستعرض آيات من سورة "**ق**" لتبيان لا مركزية المتكلّم في الخطاب الدّعوي، هذه الخاصيّة التي تمنح الخطاب طابعا كونيّاً، إذ لا يتوجّه من فرد إلى فرد، بل من مرجعيّة مطلقة إلى

[1] étude des techniques discursives permettant de provoquer ou d'accroitre l'adhésion des esprits aux thèses qu'on présente à leur assentiment», Chaim Perelman et Lucie Tyteca, Traité de l'argumentation, Editons de l'université de Bruxelles, 5eme ed, Belgique, 2000, p:05.

[2] ربيعة العربي، بلاغة الحجاج وتقنيات التأثير، الحوار المتمدن، العدد:4046، 29-03-2013. اطّلع عليه يوم:[2025/04/26، 22:20]، متاح على: https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=351985

شخص يبحث عن الهداية. إنّ تغييب ذات المتكلِّم لا يعني غياب الأثر، بل هو شرط لتفعيله، إذ كلّما انسحب المتكلّم خلف الخطاب، اتّسعت دائرة التّأثير، وازداد حضور الخطاب في وعي المتلقّي، لا بوصفه رأياً يُقترح، بل بوصفه حقّا يُستنهض.

أ. **عدم الانشغال بالأسباب:**

لن نكتفيَ في هذا المقام بآية واحدة، فالسّياق كلّه سياق تسلية وتأنيس وتثبيت للرّسول ﷺ وأتباعه على عقيدة الثّقة والأنس بالله والتوكّل عليه وعدم الانشغال بالأسباب. فالدّاعية جند من جنود الله، ليس موكول له تحقيق النتائج بقدر ما عليه الأخذ بالأسباب. إنّ أغلبَ الأفعال الواردة في سورة"**ق**" منسوبةٌ إلى الذّات الإلاهيّة: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا ﴾،﴿ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾، ﴿ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا ﴾، ﴿ وَأَنۢبَتْنَا ﴾، ﴿ وَنَزَّلْنَا ﴾، ﴿ وَأَحْيَيْنَا ﴾،﴿ أَفَعَيِينَا ﴾، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ ﴾، ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا ﴾، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾، ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ ﴾.

فالله هو العليم، وهو الخالق، وهو الرّزاق، وهو المحيي وهو المميت وإليه المصير، فكلّ شيء في هذا الكون موكول له سبحانه. فمن اختلال العقيدة، جعل الأسباب بمنزلة مُسَبِّبها وموجِدها. فلا يظنّ المتكلّم نفسه أنّه هو المسيطر في خطابه الدّعوي، وأنّه هو مركز الحجاج وعليه يتوقّف تحقيق الغاية الحجاجية المتمثّلة في إقناع المخاطَب، حينذاك ستتولّد لديه إحدى هاتين النّزعتين المتناقضتين:

- إمّا الاغترار بالنّفس، الذي يؤدّي به إلى التعَصُّب لآرائه الشّخصية وإن لم تكن حقًّا، ولفكره هو، ويُحدث المجادلة المنبوذة التي نهى عنها الله سبحانه وتعالى فقط من أجل الانتصار لرأيه وهذا أمر غير مقبول، لأنّه يفتن القلب ويقّسيه، ويرقّق الوَرَعَ في المنطق والعمل، ويُنْبِتُ الضَّغينة ونُفور الآخر، ويُفْضي إلى الكبر والتَسَلُّط. وهنا يتحوَّل الخطاب الدّعوي إلى سِجالٍ لإثبات الذّات وتحقيق المصالح الشخصيّة فيَحيفُ عن مَساره الذي سُطِّر له.
- وإمّا الامْتِعَاضُ النّاتج عن عدم استجابة المتلقّي لخطابه، بعدم اقتناعه ممّا يولّد لدى المتكلّم نوعا من الضّيق والحسرة، قد تعود سلبا على مسار خطابه . ومثله من القرآن قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم

بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنعام: 35] والمقصود أنّه «لا ينبغي أن يشتدّ تحسرك على تكذيبهم، ولا يجوز أن تجزع من إعراضهم عنك فإنّك لو فعلت ذلك قرب حالك من حال الجاهل، والمقصود من تغليظ الخطاب التّبعيد والزجر له عن مثل هذه الحالة»[1]. فالنّتائج لا تقع على عاتق الدّاعية لأنّها تفوق قدراته وإنسانيته.

حين يفقد الدّاعية وعيه بتدبير الله المطلق وينشغل بحسابات النّتائج، يتحوّل خطابه إلى ممارسة منهزمة متوتّرة، تفقد اتّصالها بجوهر الرّسالة الدّعوية. فالخطاب الذي ينبع من رؤية ماديّة وضعية، لا ترى في العالم سوى منظومة من العلاقات السّببية المحكومة بالقوانين الأرضية، سرعان ما ينهار أمام تقلّبات الواقع، لأنّه يُقصي البعد الإيماني، وينزع عن الله صفة التّقدير والتّصريف.

عن **زيد بن خالد الجهني** قال: «صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من اللّيل فلمّا انصرف قال: (هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ) قالوا الله ورسوله أعلم قال:(قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَ كَافِرٌ؛ فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ)»[2]. يؤكّد الحديث على ضرورة نسبة النّعم إلى الله وحده، ويُحذّر من نسبتها إلى الوسائط، بما في ذلك أمور التّوفيق في الدّعوة، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود:88] .

إنّ أحد المرتكزات المفاهيمية الكبرى في بنية الخطاب الدّعوي، هو فصل دائرة التّبليغ عن دائرة الهداية. فالدّاعية، من منظور قرآني، ليس مكلّفًا بتحقيق أثر معيّن في وعي المتلقّي، بل مكلّفٌ فقط بأداء البلاغ على وجهه الأمثل، كما دلّت على ذلك آيات كثيرة، من قبيل قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الرعد: 40].

[1] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، م س، ج12، ص: 521.

[2] النووي، شرح النووي على مسلم، م س، ج2، ص: 60.

إنّ تحمّل الدّاعية لمسؤولية الاستجابة يُعدّ انزياحًا خطيرًا عن التّصور الإيماني للوظيفة الدّعوية؛ لأنّه ينقله من موقع "المبلِّغ الأمين" إلى موقع "الفاعل المتسلِّط"، ويُحوّل الخطاب من كونه رسالة سماويّة إلى أداة للنّجاح الشخصي أو النّفع الآني، مما يُفرغ الدّعوة من بُعدها الرّسالي.

وفي هذا السّياق، لا يُعدّ القَبول معيارًا للحقيقة؛ فقد يُرفَض الحقُّ، ويُقبل الباطلُ، لأسباب تتعلّق بنفوس المتلقّين، أو بالبيئة الثّقافية، أو بالابتلاء الإلهي. ولذلك فإنّ صِدق الخطاب لا يُقاس بنتائجه الظاهرة، بل بانسجامه مع المرجعية النصّية وغايات الرّسالة. من هنا، فإنّ الدّاعية الحقّ هو من يتحرّر من النّزعة النّفعية في دعوته، ويؤمن أنّ الهداية فعلٌ إلهي صِرْف، لا يُنال بالخطابة البليغة وحدها، بل بالتّوفيق الربّاني. فالإخلاص في أداء الرّسالة، والاتّساق مع المنهج، هما أساس الفاعليّة الدّعوية، لا حجم التّأثير أو سرعة الاستجابة.

ب. عدم إلزامية الخطاب الدّعوي:

قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ **[ق:45].**

يُعدّ مبدأ عدم الإلزام أحد الخصائص البنيوية العميقة للخطاب الدّعوي في السّياق الإسلامي، إذ لا يستند هذا الخطاب في جوهره إلى سلطة القهر أو الإكراه، بل إلى سلطة الحجّة والبيان. فالغاية من الدّعوة ليست فرض القناعات بالقوّة أو التحكّم في الضّمير الإنساني، وإنّما بناء الاقتناع الحرّ عبر الوسائط البلاغية والحجاجية التي تلامس العقل والوجدان، بهذا المعنى، يصبح الخطاب الدّعوي أداة تواصل لا أداة تحكّم، ومسار تفاعل لا مسار قَسر.

وتكمن خطورة تجاهل هذا المبدأ في انزلاق الخطاب الدّعوي إلى مساحات التسلّط الرّمزي أو النّفسي، حيث يُحوَّل الخطاب من وسيلة هداية إلى آلية وصاية أو إدانة. في المقابل، فإنّ الحفاظ على "عدم الإلزامية" يُكسب الخطاب مصداقيته الأخلاقية، ويعزّز فعّاليته؛ لأنّه يمنح المتلقّي المجال الحرّ للتأمّل والاستجابة الذّاتية.

إنّ الخطاب غير الملزِم يُفعّل علاقة تواصلية أكثر توازناً، إذ لا يَتَمَوْقَعُ الدّاعية فوق المتلقّي، بل يشاركه المساحة المعرفية ذاتها، ويخاطبه كشريك في البحث عن المعنى، لا كهدف للهَيمنة. وبهذا يتحوّل الخطاب الدّعوي إلى فعل تواصلي يحترم الكرامة الإنسانية ويُؤمن بتدرّج الهداية.

بالعودة إلى سياق السّورة، فالله ﷻ قد ختمها بهذه الآية العظيمة، حيث يظهر في مطلعها التّهديد الشّديد مع الوعيد للكفّار، والبعد البلاغي في أنّ تكذيبهم وإنكارهم للبعث والتّوحيد، الله يعلمه وسيحاسبون عليه. أمّا تسلية الرّسول ﷺ لما كان يتعرّض إليه من تكذيب واستهزاء من مُشركي قريش، فتبرز ضمنيا في خطاب الله، وهذا ما أشار إليه أغلب المفسّرين، من بينهم **ابن كثير** بقوله: «وقوله جلّ وعلا: ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ ﴾، أي أنّ علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التّكذيب فلا يَهُولَنَّك ذلك كقوله: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩ ﴾ [الحجر: 97-99]»[1].

أمّا تتمّة الآية ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥ ﴾، فيبرز من خلالها المغزى الدّلالي للآية، ومن ثَمَّ للخطاب بأكمله والمتمثّل في التّوجيه المنهجي لدعوة الرّسول ﷺ ولكلّ داعية إلى الخير من بعده. فدعوة الإسلام ليست دعوة إكراه، تقهر النّاس وتجبرهم على الإذعان.

الإسلام دين حجّة وبرهان، يعرض قضاياه أمام الخلق، يعرّفهم بما لهم وما عليهم، ويترك لهم الاختيار ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ [الكهف: 29]، وما الرّسول إلّا نذير مُذكّر بالقرآن من يخاف الوعيد، ممّا يُشير إلى أنّ الخطاب الدّعوي لا يهدف إلى استزادة الأتباع عن طريق الإلزام والإكراه وغيره، بل إلى هدي القلوب والعقول انصياعا وطاعة. ليس على الدّاعية أن يركّز على الناتج من خطابه، من ردود فعل موافِقَة ومقتنعة، فأمر البشر وإيمانهم موكّل إلى الله، وإنّما عليه الانشغال بالخطاب ذاته وأحواله دون أحوال المتلقّين بوصفها نتائج لخطابه، إذ قد ينتج عن ذلك اعتزاز بالنّفس والغرور بما حقّق من أتباع، أو إحباط وتقاعس بسب الإعراض والرّفض.

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م س، ج7، ص: 385.

❖ **خلاصة القول:**

يتّسم الخطاب الدّعوي، بخِصِّيصَة مركزيّة تتمثّل في التجرّد التامّ من البواعث الذاتيّة والنوازع الدنيويّة، فالمرسل (الداعية) لا ينهَضُ بوظيفته من موقع الهيمنة أو الرغبة في الكسب، بل من موقع المبلِّغ الأمين الذي يُنجز فعل التّبليغ بوصفه أداءً لأمانة، لا أداةً للإقناع بغرض الهيمنة الرّمزية أو الاجتماعية. ويتجلّى هذا المعطى في تموضع الذّات المتكلّمة ضمن الخطاب بوصفها ذاتًا مخلِصَة، تُفعِّلُ ضمير الخطاب انطلاقًا من تكليف ربّاني، لا من دافع ذاتي أو غرضي.

إنّ الخطاب الدّعوي ينهض من هذا المنظور، على توازن دقيق بين البنية الحجاجية للخطاب والمرجعية القيمية التي تحكمه، حيث لا يُفعِّل الاستمالة والتّأثير كاستراتيجيات تداولية إلا بما يخدم غاية التّبليغ، لا بما يحقّق موقعًا سلطويًا للمتكلّم. بهذا المعنى، يندرج الخطاب الدّعوي ضمن ما يسمّى بـ "الخطابات المؤتمنة"(discours de légitimité[1] éthique)، أي تلك التي تنشأ من التزام قيمي يتجاوز وظيفة الإقناع الظّاهري إلى تأسيس علاقة خطابية قائمة على المصداقية.[2]

---

[1] La légitimité est le droit reconnu à une personne (ou plusieurs) de parler et d'agir au nom de principes, valeurs, règles, lois… Par son étymologie (du latin lex, legis : loi), la légitimité est proche de la légalité, mais elle s'en distingue par son sens : la légalité consiste à appliquer une loi, alors que la légitimité se réclame de principes qui, dans certains cas, peuvent être en contradiction avec une loi. Les principes qui fondent la légitimité sont de nature variée : principes moraux et politiques, habitudes, droits, normes... La hiérarchie de ces principes variant selon les individus et les sociétés, elle est source de nombreux différends: Hatzfeld, H. (2013). Légitimité , Dictionnaire critique et interdisciplinaire de la Participation, DicoPart (1ère édition). GIS Démocratie et Participation. https://www.dicopart.fr/legitimite-2013 اطّلع عليه يوم [2025/05/24، 22:55].

الشرعيّة هي الحقّ المعترف به لشخص (أو أكثر) في التحدّث والتصرّف باسم مبادئ أو قيم أو قواعد أو قوانين. ومن حيث الأصل اللّغوي للكلمة (من اللاتينية lex, legis وتعني "القانون")، فإنّ الشرعية قريبة من القانونية، لكنّها تختلف عنها في المعنى: فالقانونية تعني تطبيق قانون معين، بينما الشرعية تستند إلى مبادئ قد تتعارض في بعض الحالات مع القانون. والمبادئ التي تؤسّس للشرعية متنوعة بطبيعتها: فهي قد تكون مبادئ دينية أخلاقية أو سياسية، أو عادات، أو حقوق، أو معايير. ونظرًا لاختلاف ترتيب هذه المبادئ حسب الأفراد والمجتمعات، فإنّ ذلك يكون مصدرًا للعديد من الخلافات.

[2] عبارة "الخطابات المؤتمنة" ليست مصطلحًا تقليديًا أو متداولًا في الأدبيات الإسلامية أو اللّسانية، بل هي صياغة تحليلية استُخدمت لتوصيف نوعية معينة من الخطابات التي تتميز بكونها تحمل أمانة معرفية وأخلاقية، وتستند إلى مرجعية موثوقة. في هذا السياق، يُمكن فهم "الخطابات المؤتمنة" على أنّها تختلف عن الخطابات التي قد تُستخدم لأغراض دعائية أو ترويجية، حيث أنّ الأخيرة قد تُخضع الحقيقة للتّأويل أو التّلاعب لتحقيق أهداف معينة. أمّا الخطابات المؤتمنة، فهي تلتزم بالصدق والشفافية، وتُعتبر

إنّ أيّ انحراف عن هذا التجرّد يُخلّ بوظيفة الخطاب الدّعوي، ويُحوّله إلى خطاب إيديولوجي مشروط بشبكة من المصالح. أمّا حين يظلّ وفيًّا لمقتضى "البلاغ المبين" كما ورد في القرآن، فإنّه يُحافظ على مصداقيته وفاعليته، لأنّه يُنجز وظيفةً تداولية متكاملة: يُبلّغ، ويُقنع، ويَهدي، دون أن يُخِلّ بتوازنه البنيوي بين الرّسالة والمرسِل والمتلقّي.

يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧ ﴾ [الفرقان: 56-57]، جاء في التّحرير والتّنوير«ثمّ أمره بأن يخاطبهم بأنّه غير طامع من دعوتهم في أن يعتزّ باتباعهم إيّاه حتّى يحسبوا أنّهم إن أعرضوا عنه فقد بلغوا من النِّكاية به أمَلَهُم، بل ما عليه إلّا التّبليغ بالتّبشير والنّذارة لفائدتهم لا يريد منهم الجزاء على عمله ذلك»[1].

لما يتجرّد الدّاعية في خطابه الدّعوي، فإنّه بذلك يُخرج نفسه من دائرة الجدال والسجال، ويجعل المتلقّي في مواجهة مع ما جاء به الحقّ، فإمّا أن يُسلّم به وإمّا أن يكفر به، فما الدّاعية إلا مبلّغ . يقول تعالى: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ [الشورى: 48]، وقال كذلك: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩ ﴾ [المائدة: 99].

3- التّجاهل التّداولي المقصود للمتلقّي:

كلّما وقفنا على لفظ " الخطاب" تبادرت إلى أذهاننا دلالته على معنى الثنائية★ (متكلّم-مستمع) أو حسب نموذج **جاكبسون** (مرسِل-مُتلقّي)،« فالمرْسِل(أو المتَكَلِّم)، لا يُسمّى متكلّمًا إلّا

مسؤولية يجب أداؤها بأمانة. في مجال الدّعوة الإسلامية، يُعتبر الخطاب الدّعوي "مؤتمنًا" لأنّه يُفترض أن ينقل رسالة الإسلام بأمانة وصدق، مستندًا إلى الوحي الإلهي، دون تحريف أو تزييف. هذا النّوع من الخطابات لا يسعى فقط إلى الإقناع، بل يُمثل التزامًا أخلاقيًا بنقل الحقيقة كما هي، بغض النظر عن ردود فعل المتلقّي، ينظر:مُحَمَّد محفوظ ولد الزين، دورة ضوابط الخطاب الدّعوي، جمعية المستقبل للدعوة والثقافة والتعليم، اطّلع عليه يوم [17.55: 2025/05/25]، متاح على:
https://www.facebook.com/elmoustakbel.net/videos/9087468584617268

[1] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م س، ج19، ص ص: 57 -58.

★«حتّى حديث النّفس يعتبر خطابا، بإنزال النّفس منزلة المستمع؛ كما لو أنّ الذّات قد جُرِد منها ذاتٌ اعتبارية، فيكون التوجّه إلى الذّات غير مختلف في حقيقته عن التوجّه إلى الغير»، ينظر: طه عبد الرحمان، اللّسان والميزان أو التّكوثر العقلي، م س، ص:214.

إذا حصل القصدُ منه بتَوجيه الكلام إلى غيره، مع إرادة الإفهام، والمتلقّي(أو المستمِع)، لا يُسمّى متلقّيًا إلّا إذا كان هو الذي قصده الملقي بفعل إلقائه، وبفعل إفهامه»[1].

تقوم العلاقة التّخاطبية بين جانبين فأكثر ، يكون للمتكلّم فيها فضل السّبق في إقامتها. فإذا ما تحدّثنا عن الخطاب الدّعوي، نجد المتكلّم فيه أحرص ما يكون على تبليغ المستمع، لكن دون أن ينتهج أسلوب الاستجداء والاستعطاف. بل واجب الدّعوة هو الدخول في جميع تعاليم الدّين وعقائده. يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ [البقرة: 208-209].

جاء في تفسير الآية: « يقول الله تعالى آمرا عباده المؤمنين به المصدّقين برسوله أن يأخذوا بجميع عُرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زَواجِره، ما استطاعوا من ذلك... وقوله: ﴿ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ ﴾ أي عَدَلتم عن الحقّ بعد ما قامت عليكم الحجج، ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أي في انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب، ﴿ حَكِيمٞ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ في أحكامه ونقضه وإبرامه»[2]. إنّ الخطاب الدّعوي في الإسلام لا ينطلق من مشكلات الواقع فحسب، وإنّما يبدأ بترسيخ التصوّر العقدي السّليم الذي يجعل الفرد يدرك مسؤوليته أمام الله أوّلًا، ثمّ أمام مجتمعه. فالدّعوة إلى الصّلاة أو الصدق أو العدل، مثلًا، لا تُطرح كمجرّد قواعد سلوكيّة، بل تُستند إلى مرجعيّة عقديّة توحيديّة تجعل الامتثال لها عبادةً وطريقًا للفلاح في الدنيا والآخرة.

ولنا أن نقف على رسالة النبيّ ﷺ التي جاء فيها: «بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي ... إلى كسرى بن هرمز ملك فارس وكتب معه: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسَ سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى وَآمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ اللَّهِ فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً؛ لِأُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِنَّ إِثْمَ الْمَجُوسِ

[1] ينظر: طه عبد الرحمان، م س، ص: 214.

[2] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م س، ج1، ص: 423.

عَلَيْكَ). فلما قُرِئَ كتاب رسول الله ﷺ شقَّقه وقال: يكتب إليّ بهذا الكتاب وهو عبدي قال مُحَمَّد بن إسحاق: فبلغني أنّ رسول الله ﷺ قال: (مَزَّقَ اللَّهُ مُلْكَهُ) حين بلغه أنّه شقَّ كتابَه»[1].

نسعى إلى استخلاص جملة من الملاحظات:

أ. استهلال الرّسالة بتعظيم الله تعالى (البسملة)، ولا يخفى على الدّارس من أهميّة المقدّمة في شدّ انتباه المتلقّي، إنّ «...حسن الافتتاح داعية الانشراح ومطيّة النجاح»[2]، لأنّه أوّل ما يقرع الأسماع.

ب. تحيّة السّلام وما تشير إليه من عزّة الرّسالة ورفعتها، بالإضافة إلى التّنويه بسلطة المتكلّم.

ت. بيان شخصية المرسل وصفته (نلمس تواضع النبي ﷺ بوصف نفسه بالنبي الأميّ، وعدم ذكر أي لقب يميّزه إلّا أنّه رسول الله، فهو مُبلِّغ لدعوة الله)، وهذا يضفي سمة الموضوعية على الرّسالة.

ث. تخصيص كبار القوم وملوكهم بالمراسلة لأنّهم أقدر النّاس على التّغيير والتّأثير، لما يملكون من سلطة في اتّخاذ القرار. وهذا يَنِمُّ عن حكمة الدّاعية في اقتناص أفضل السُّبل وأقصرها للتّبليغ.

ج. وضوح العرض للدّعوة مع الإيجاز الوافي. لأنّ فهم المعاني أساس الإقناع، وقِصَرُ العبارة يسبغ على الدّاعية هيبةً، ويحفظه من الهَذْرِ و الثرثرة.

ح. التّذكير والإنذار بالمصير في حالة الإعراض والتولّي، سعيا إلى جعلها آخر ما يبقى في آذان المتلقّي وذهنه، فخاتمة الكلام«...أبقى في السّمع، وألصق بالنّفس؛ لقرب العهد بها، فإن حسنت حسن، وإن قبحت قبح، والأعمال بخواتيمها، كما قال رسول الله ﷺ»[3]. فالخاتمة هي آخر انطباع لنا عن فحوى الخطاب، بل هي عصارته.

ولعلّ من عوامل تفرّد هذه الرّسائل ، تأثّرها العميق بالأسلوب القرآني الذي شكّل لها مرجعية لغويّة وتواصليّة نهلت منها حتّى التشرّب. فالخطاب القرآني يتميّز بخصوصيته البنيوية، من حيث قدرته على مخاطبة العقل والوجدان معًا، دون أن يُخضِع منطقَه لاعتبارات الرَّغبة أو ميول المتلقّي، خلافًا لما تروّج له التيّارات الفكريّة الوضعيّة التي تُؤسس رؤيتَها على مركزيّة المتلقّي تحت شعار" المتكلّمُ صناعة

[1] أبو نعيم الأصبهاني، دلائل النبوة، تح: د مُحَمَّد رواس قلعة جي، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط2، 1986، ص: 348.

[2] ابن الرشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح: مُحَمَّد عبد الحميد، ج1، دار الجيل، ط5، 1981، ص: 217.

[3] ابن الرشيق، العمدة، م س، ص:217.

المتلقّي"*. وفي مقابل هذا ا لطّرح، يُقدّم الخطاب القرآني نموذجًا لبلاغة ملتزمة، تصدع بالحقّ كاملاً دون تجزئةٍ أو تحويرٍ، مُرتكزةً على معيار الثّباتِ في الموقف والقيمة، لا على نسبيّة القَبول والرَّفض. يقول تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ [الكهف: 29]. سنسعى إلى الاستئناس بما ورد في سورة "**ق**"، واستدعاء بعض شواهدها بما يُسهِم في توضيح الرّؤية.

أ. **الخطاب الدّعوي يتجاهل تكذيب المتلقّي:**

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢**﴾ **[ق:16-22].**

يتميّز الخطاب القرآني بطبيعة خطابية فريدة لا تُراعي المتلقّي بمعناه التكيّفي أو الانفعالي، كما هو الحال في بعض النّظريات الوضعية التي تُعيد تشكيل الخطاب انطلاقًا من أُفق الانتظارات الجماهيرية. فالخطاب القرآني لا يُعدّل رسالته وفق ميول المتلقّي أو استجاباته، بل يُبلّغ الحقيقة كاملةً بوصفها معيارًا أعلى، يتوجّه إلى الإنسان في مقام التّكليف لا في مقام الاسترضاء. وهذا ما يمكن تسميته بـ"تجاهل تداولي مقصود"، لا يُقصِي المتلقّي من الحضور، بل هو تأكيد على علوّ مرجعيّة الخطاب ووظيفته التغييريّة، فهو لا يُصاغ تحت ضغط التقبّل أو الرّفض، وإنّما يُبلَّغ وِفْقَ مقاييس الحقّ والصّدق. وهكذا يُصبح المتلقّي مَدعوًا لا ليُشكّل الخطاب، بل ليُعيد تشكيل نفسه ووعيه على ضوء خطاب مُطلق المرجعية، غير قابل للمساومة أو التكيّف حسب الأهواء. وهذا ما نلحظه في هذا الجزء من سورة "**ق**".

يتّسم الخطاب القرآني بترفّعه عن الانشغال بالردّ المباشر على ادّعاءات الكافرين أو مُجاراة شبهاتهم، إذ لا يُمنحُ التّكذيبُ مكانةً تؤهّلُهُ ليكون محورًا للخطابِ. فالقرآن لا يضعُ نفسَه في موقع

* هذا ما تنادي به نظريات ما بعد الحداثة التي قامت على أنقاض البنيوية، كنظرية القراءة والتلقّي والبلاغة الجديدة ونظريات الحجاج، والتي تجعل من القارئ، أو المتلقي أساسا للعملية التواصلية، أو الحجاجية.

الدِّفاع، بل يُوجِّهُ خطابَه بثقةٍ ويقينٍ، مرتكزًا إلى حقائقَ مطلقةٍ لا تحتاج إلى إثباتٍ يُمليه التّشكيكُ. وبهذا يعبّرُ الخطابُ القرآني عن تميّزِه البنيوي والمنهَجي، حيث يتقدّم بالحقّ دون الالتفات إلى ضَجِيجِ الباطل، فيمنحُ المتلقّي صورًا ناطقةً باليقينِ تتجاوزُ جدلَ الإنكارِ والتّكذيبِ.

يتّجِهُ السّياقُ القرآني في هذا المقطَع وجهةً مختلفةً، فبعد استعراض آيات الله في الكونِ، ومصيرِ الأقوام الذين كَذَّبوا الرّسل، يُواجه الخطابُ القرآني منكري البعث بأسلوب بالغِ العمق، إذ ينتشل فردًا منهم ويخصّه بخطابٍ يخترق أعماق ذاته. لا يعير الخطاب اهتمامًا لتكذيبه أو سخريته من اليوم الآخر، بل يواجهه بحقائقَ لا سبيل إلى إنكارها، حقائق يقينيّة يوردُها القرآن بتفاصيلَ دقيقةٍ، حتّى ليكادُ المتلقّي يشعر وكأنّه يعيش تلك اللّحظة بنفسه.

- **حقيقة الرّقابة الشّديدة المسلّطة عليه:**

إنّ المكذّبَ، أو المدّعي للّتكذيبِ والإنكارِ، موقنٌ بالحقِّ لكنَّه إمّا غافلٌ عنه، أو جاحدٌ له ظلمًا وعلوًّا، يقول تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: 33]. الخطاب القرآني ينزع عنه غطاء جحوده، بتقرير أصل خلقه ابتداء: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ على صفة التّحقيق (وهذا ما أفاده توظيف "لقد")، ثمّ بتقرير إحاطة علمه سبحانه به ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾، هو «أعلم بحاله ممّن كان أقرب إليه من حبل الوريد، عَبَّر عن قرب العلم بقرب الذّات تجوّزا لأنّه موجب له وحبل الوريد مثل في فرط القرب والحبل العرق وإضافته بيانية»[1]. فمعنى القرب في الآية هو قرب العلم والقدرة، فإحاطة علمه لا ينحجب عنها باطن ولا ظاهر، وقبضة قدرته لا ينفلت منها أحد. وممّا يزيد من إحكام تلك الرّقابة، وجود ملكين موكَّلين بتلقّي ما يلفظ من أقوال، ويُقْدِمُ عليه من أفعال. وما وجودهما إلا لإقامة الحجّة، وإلّا فعلمُ الله أكبر وأجلّ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: 14].

[1] أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، م س، ج8، ص: 128.

- **حقيقة الموت:**

إنّها الحقيقة الوحيدة التي لا يقدر الإنسان على إنكارها لأنّها تقع نُصب عينيه مرارًا وتكرارًا. الخطاب القرآني لا يلتفتُ إلى تكذيبه لما بعد الموت، إنّما يقرّره على أنّه واقع قريب التّحقيق، «وجعل الماضي في موضع المستقبل تحقيقًا وتثبيتًا للأمر، وهذا أَحَثُّ على الاستعداد واستشعار القرب، وهذه طريقة العرب في ذلك، ويبيّن هذا في قوله: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ﴾، ﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ ﴾ فإنّها ضرورة بمعنى الاستقبال»[1].

ولقد وظّف المعنى ذاته في الآية: ﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٤١ ﴾، فكما أنّ الموتَ حقيقةٌ قريبةُ التّحقيقِ، فكذلك البعث ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ٤٥ ﴾ [يونس: 45].

يصف الخطاب القرآني حالة منكر البعث، بالمرجِ، واللّبس لما هو فيه من الغفلة والرّيبة والشكّ والغَمْرة وهي أشبه بالسَّكْرة، لكنّها تختلف عن سكرة الموت التي هي بالحقّ، والباء هنا: إمّا للتّعدية، «كأن تقول " جاء الرّسول بالخبر"»[2]، والمعنى: «جاءت سكرة الموت بحقيقة الموت»[3]، فسكرةُ الموت أحضرت معها حقيقة البعث التي هو يماري فيها. وإمّا للملابسة مثل قوله تعالى: ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ ﴾ [المؤمنون: 20]، والمعنى: «ملتبسة بالحقّ أي بحقيقة الأمر أو بالحكمة»[4]. فكأنَّ سكرة الموت هي الحقّ ذاته.

وكلا المعنيين يؤدّيان نفس الغرض البلاغي الذي يتلخّص في تقرير ثبات الحقّ، فلا يوجد حقٌّ نسبي. الحقّ الذي كنتم تحيدون عنه، والحيد بمعنى الميل والعدول[5]، و"ما "تفيد معنيين: «إمّا "ما"

---

[1] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام مُحَمَّد، ج 5، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ، ص: 161.

[2] أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، م س، ج8، ص: 129.

[3] الفراء، معاني القرآن، م س، ج3، ص: 78.

[4] أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، م س، ج8، ص: 129.

[5] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، م س، ج3، ص: 159.

الموصولة ، أي: الذي كنت منه تبتعد وتنأى وتفرّ، قد حلّ بك ونزل بساحتك، وإمّا "ما" النافية فيكون المعنى: ذلك لم تكن تقدر على الفرار منه ولا النّأي عنه»[1].

إنّ أسمى غاية للإنسان أن يُخلَّد في هذه الدنيا، وأشدّ ما يحرص عليه هو سرمدية تلذّذه بمتاعها، يقول ﷻ: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [البقرة: 96]، فينقله الخطابُ من سكرته في الدنيا(وهي سكرة الغَفلة)، إلى سكرة الموت الذي يفرّ منه، ثمّ ينزع عنه غطاء الغفلة ليواجه الحقيقة التي كان يُنكرها ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

الخطاب الدّعوي، بوصفه امتدادًا لبنية الخطاب القرآني، يتأسّس على مبدأ الحقيقة، فهو لا يُنشئ معناه في أفق التلقّي المشروط ولا في ضوء استجابات المتلقّي، بل يُنتج خطابه من داخل قناعته الرّسالية بوظيفة البيان والإنذار. فهو خطاب يتجاوز منطق التّفاعلية التّفاوضية الذي تُؤسّس عليه النظريات التّداولية الحديثة، إذ لا يُقيم شرعيّته على الاعتراف الخارجي أو على تحقق التقبّل، وإنّما على المبدأ القائم على وعي المتكلّم بحقيقة ما يقول، لا بمدى اقتناع المخاطَب به.

وفي هذا السّياق، لا يُعنى الخطاب الدّعوي بموقف المتلقّي من حيث التّصديق أو التّكذيب، ولا يُعيد تشكيل معانيه وفقًا لآليات التّكيّف التّداولي، بل يسير في اتجاهٍ واحد يُمارس فيه الكشف لا الجدال، والإبانة لا التّبرير. فالمخاطَب ليس محور الرّسالة، بل هو موضوع فعلٍ لساني يُنتزع من إنكاره ويُعاد توجيهه نحو الحقيقة، عبر مسارات حجاجية لا تُساوم على مضمونها، بل تعيد ترتيب موقع المتلقّي داخل سلّم القيم والمعرفة.

إنّه خطاب لا يُهادن ولا يطلب الإقرار، بل يتقدّم بيقين داخلي، يكشف الحُجُبَ ويوقظ الفطرة، ويُمارس سلطة معرفيّة ولسانيّة لا تستجدي القَبول، بل تؤسّسه على صدمة الحقيقة، وعلى القطع مع وهم الحياد المعرفي الذي يدّعيه المنكر.

[1] ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م س، ج7، ص: 374.

ب. تمثّلات متلقّي الخطاب الدّعوي في القرآن:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ **[ق: 37].**

إنّ غاية ما يصبو إليه الخطاب الدّعوي«أن تكون الأعناق إليه أميل والنّفوس إليه أسرع والعقول عنه أفهم»[1]. أي أن يُحدث أثرًا عميقًا في المتلقّي من حيث الانجذاب، والتقبّل، والاستيعاب. ولتحقيق هذا الأثر لا بدّ من تضافر شرطين جوهريين في شخص المتلقّي: أولّهما استعداد نفسي وذهني يُهيّئه لتلقّي الخطاب بقبول وتفاعل، بحيث لا يكون أسيرًا لأحكام مسبقة أو مغلقًا على ذاته، بل منفتحًا على المعنى، متأهبًا للإنصات والتدبّر.

وثانيهما قدرة عقلية على التأمّل وإعادة تأويل الرسالة الدّعوية في ضوء تجربته الذّاتية وسياقه الوجودي، ما يسمح بترسّخ الخطاب في وعيه لا بوصفه خطابًا عابرًا، بل بوصفه نداءً يمسّ عمق الكينونة. وبهذا يتحقّق التّفاعل الحقيقي الذي يجسّد نجاح الخطاب الدّعوي في بلوغ غايته التّأثيرية والمعرفيّة.

- **حضور القلب:**

إنّ كلّ المواعظ والعبر التي ذكرت في سورة "**ق**"، لا يعيها ولا يدركها إلّا من كان له قلب حيّ، واع يتدبّر ويتفكّر. وقد أشار **البقاعي**(ت885هـ) إلى هذا المعنى بقوله: «أنّ صاحب القلب الحيّ له من النّورانيّة ما يجعله يستبصر القرآن، كأنّه يراه فيتفاعل معه، ومن لم يفعل ذلك كان كمن لا قلب له»[2]. لقد نزل القرآن بمكّة وكان فيها أبو بكر وأبو الحكم، فجعل من "**أبي بكر**" "**الصدّيقَ**"، وجعل من "**أبي الحكم**" "**أبا جهل**"؛ فمقياس حياة القلوب هو مدى انتفاعها من الموعظة حال عرضها عليها.

فيصبح معنى ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ «أي لمن أعمل قلبه فيما خُلق القلب له من التدبّر والتفكّر والنّظر فيما ينبغي أن ينظر فيه. فهذا على أن يجعل الذي لا يَعي ولا يَسمع ولا يَنظر ولا

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، (دط)، 1423هـ، ص: 31.

[2] ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآي والسور، م س، ج18، ص: 436.

يَتفكّر، كأنّه قد عدم القلب من حيث عدم الانتفاع به»[1]، وفي القول حثٌّ على النّظر والتّدبر وتقريعٌ على تركه، وذمٌّ لمن غفل عنه.

يقول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾ [الشورى: 52]، أي «أنّ القرآن للقلوب بمثابة الرّوح للأبدان حيث يحييها حياة أبديّة»[2].فمن واجب الخطاب الدّعوي أن يجعل أكثر مضامينه من القرآن الكريم، وأن يخاطب النّاس بالقرآن، وهذا ما كان عليه خطاب النبي ﷺ في بداية الدّعوة لكفّار قريش، كان خطابه قرآنا يُتلى.

يُعدّ حضور القلب سمة مركزية للمتلقّي النموذجي في الخطاب القرآني، بل هو الشّرط المعرفي والوجداني الذي يمنح فعل التلقّي معناه وفاعليته. فالمتلقّي الذي يتّصف بيقظة القلب واستعداده للتدبّر والتفكّر هو وحده القادر على التّفاعل مع الخطاب القرآني بما يليق بجلال مصدره وعمق غاياته.

وانطلاقًا من هذا التصوّر، فإنّ الخطاب الدّعوي – بوصفه امتداداً للخطاب القرآني – لا يُكتب له الأثر المرجوّ إلّا إذا توجّه إلى هذا النّمط من المتلقّين: أولئك الذين يمتلكون قلوبًا حاضرة، واعية، قادرة على التلقّي الفعّال والاستجابة المترسّخة. وعليه، فإن استحضار هذه الخاصيّة في بناء الخطاب الدّعوي يُعدّ ضرورة منهجية، تضمن له الاتّساق مع مرجعيته القرآنية، وتُعزّز من قدرته على الإقناع والتّأثير والتّحويل.

- **إلقاء السّمع:**

إنّ متلقّي الخطاب الدّعوي، إمّا أن يكون حاضر القلب والعقل فتنفعه الذكرى بما دلّت عليه الدّلائل العقليّة من فهم واعتبار، وإمّا أن يجاهد نفسه على الاستماع بدليل قوله تعالى: ﴿ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ ﴾. يُرْدِفُ **البقاعي** في تفسيره للآية الكريمة «بدأ القول بالنّاظر لأنّه أولى بالاعتبار، وأقرب إلى التذكّر، ثمّ ثنّى بالسّامع، الذي تنقل إليه الأخبار، فهو يلقي بسمعه كاملا قد جَرَّده من كلّ ما قد

[1] عبد القاهر الجرجاني، م س، ص: 304.

[2] ينظر: الألوسي، روح المعاني، م س، ج13، ص: 57.

يشغله أو يفتنه»[1]. فمعنى إلقاء السّمع أن لا ينصرف سمعه لغير ما يسمعه من الخطاب، وكأنّه ألقى بسمعه داخله، وهي كناية عن حضور القلب حال السّماع ، بمعنى أن يكون شهيدا «أي حاضرا بكُلّيته، فهو في غاية ما يكون من تصويب الفِكر وجمع الخاطر، فلا يغيب عنه شيء مما تُلِي عليه وأُلْقي إليه»[2]، فتحصل مرتبة الشهادة.

يُعدّ ضمان وصول الرّسالة الدّعوية إلى المتلقّي، مع تهيئة قابلية التلقّي لديه، من الركائز الأساسيّة للخطاب الدّعوي الفعّال؛ إذ لا يتحقّق الحجاج ما لم يُصادف تلقٍّ واعٍ. فليس المقصود مجرّد توجيه الخطاب إلى المتلقّي، بل يستلزم الأمر حضورًا ذهنيًا ووجدانيًا يتجسّد في إنصات فعّال، ينبع من رغبة صادقة في الفهم والتّفاعل. ويُعدّ الإنصات، في هذا السّياق، مؤشرًا دالًا على نيّة التلقّي واستعدادًا قبليًا للانخراط في غايات الخطاب ومعانيه، لا مجرّد سلوك تلقائي

وبناءً عليه، فإنّ المتلقّي النموذجي للخطاب الدّعوي هو من يتحلّى بانفتاح نفسي وإرادة واعية تمكّنه من استيعاب الرّسالة والمساهمة في تفعيل بعدها الحجاجي. وتبعًا لدرجة حضور هذه الرّغبة في التلقّي، تَتحدّد فاعلية الخطاب ومدى تأثيره في تشكيل البنية المعرفية والقيمية لدى المتلقّي.

❖ **خلاصة القول:**

إنّ من الغايات الكبرى التي يتوخّاها الخطاب الدّعوي، إيصال رسالته إلى جمهور المتلقّين وإقناعهم بمضامينه، بما يُسهم في تحقيق غايات الدّعوة وأهدافها الإصلاحية والتربوية. وفي هذا السّياق، تتجلّى أهميّة المتلقّي بوصفه شريكًا في العمليّة الخطابية لا مجرّد طرف سلبي يتلقّى دون تفاعل. فنحن لا نُقصي دور المتلقّي، بل نُقرّ بأهميته وفعّاليته، باعتباره أحد العوامل الرئيسة في تحديد مدى نجاح الخطاب الدّعوي.

غير أنّ ما نرفضه، في المقابل، هو تحويل هذا الدّور إلى مركزيّة متسلّطة تُخضِع الخطابَ الدّعوي لإرادة المتلقّي ورغباته، خاصّة فيما يتعلّق بموضوع الخطاب ومحتواه، إذ بذلك يفقد الخطاب الدّعوي استقلاليته وغائيته، ويغدو أسيرًا لأفق انتظار المتلقّي لا لأهداف الدّعوة ومرجعياتها. وعليه، فإنّ

[1] ينظر: الألوسي، روح المعاني، م س، ج13، ص: 57.
[2] الألوسي، م س، ج18، ص: 436.

الخطاب الدّعوي الرّشيد هو ذاك الذي يُراعي خصائص المتلقّي وحاجاته النّفسيّة والاجتماعية والمعرفية، دون أن يَخْضَعَ لها بالكامل. فهو يُوظّف من أجل ذلك الآليات الحجاجية والوسائل الإقناعية الكفيلة بجعل الرسالة أكثر قربًا وتأثيرًا، مستفيدًا من استراتيجيات الخطاب الحجاجي ، دون أن يُفرّط في ثوابته أو يُفرغ مضامينه من غاياتها.

فالمتلقّي، في هذا التّصوّر، لا يُعدّ مركزًا للخطاب بحيث يُعاد تشكيل الخطاب وفق رغباته وأهوائه، بل هو وِجهته التي يتّجه إليها الخطاب بهدف التّأثير والإقناع. وهذا التّمييز الدّقيق يحفظ للخطاب الدّعوي استقلاليته، ويحول دون انزلاقه إلى مجرّد خطاب ترويج يتماهى مع المتلقّي، عوضًا عن أن يسمو به ويقوده إلى الغايات العليا للدّعوة. وانطلاقًا من هذا التصوّر الوظيفي للخطاب، فإنّ فاعليته لا تتحقّق إلّا من خلال اعتماد آليات لغوية واستراتيجيات حجاجية قادرة على التّأثير في المتلقّي دون الارتهان لمزاجه، بل بتوجيهه نحو الإذعان العقلي والقبول الواعي بما يُعرض عليه من قيم ومعانٍ.

المبحث الثّاني:

استراتيجيّات الخطاب الدّعوي.

- الاستراتيجيّة الإقناعيّة.
- استراتيجيّة الصّدمة الحجاجيّة.

يعدّ الحجاج عنصرا دلاليا متضمّنا في الخطاب، ولما كانت غاية كلّ حجاج تتلخّص في إذعان العقول وتسليمها لما يعرض عليها من قضايا، فإنّ موضوع الحجاج يتطلّب دراسة استراتيجيات الخطاب التي من شأنها تأدية تلك الأغراض.

إنّ توظيف الاستراتيجيات أمر ضروري لبناء أيّ خطاب، ومنه الخطاب الدّعوي لأنّها «المسالك المناسبة التي يتّخذها المرسل للتلفّظ بخطابه، من أجل تنفيذ إرادته، والتّعبير عن مقاصده التي تؤدّي إلى تحقيق أهدافه باستعمال العلامات اللّغوية وغير اللّغوية، وفقا لما يقتضيه سياق التلفّظ بعناصره المتباينة ويجده المرسل لائقا»[1].

الاستراتيجية هي عمليّة ذهنية لا تتّضح إلا حين التلفّظ بالخطاب لأنّه تجسيد لها، فإعمال الفكر وترتيب المعاني في النّفس أساس في نظم الخطاب، لأنّ النّظم«صنعة يُستعان عليها بالفكرة لا محالة»[2]. ويتحتّم على صانع الخطاب أن يختار الاستراتيجية المناسبة للتّعبير عن قصده، وتحقيق أهدافه. «ويتمّ هذا الاختيار وفق معايير خاصّة بظروف إنتاج الخطاب أي بعناصر السّياق التّواصلية التي أُنتج فيها، وكذا العلاقة التّفاعلية بين طرفي الخطاب: المرسِلُ والمرسَلُ إليه، بالإضافة إلى مقاصد الخطاب وأهدافه»[3]. لذلك تعدّدت استراتيجيات الخطاب، وسنحاول من خلال هذا المبحث التطرّق إلى بعضها وفق ما يتناسب مع موضوع بحثنا.

1- الاستراتيجيّة الإقناعيّة:

إنّ مفهوم الخطاب، لا يتمثّل في مجرّد إقامة علاقة تخاطبية، بقدر ما يسعى إلى إقامة علاقة تبليغية، تدليلية وتوجيهية، «والإقناع هو عمليّة خطابية يَتوخّى بها الخطيب تسخير المخاطَب لفعلٍ أو تركٍ بتوجيهه إلى اعتقاد قول يعتبره كلّ منهما(أو يعتبره الخطيب)شرطا كافيا ومقبولا للفعل أو

[1] ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتّحدة، لبنان، ط1، 2000، ص: 62.

[2] دلائل الإعجاز، م س، ص: 51 .

[3] ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، م س، ص: 86.

الترك»[1].يعدّ الإقناع من أهمّ وظائف التّخاطب وغايته، فهو يرمي إلى«إحداث تغيير في الموقف الفكريّ أو العاطفيّ»[2] لدى متلقّي الخطاب، وعلى هذا الأساس قامت الاستراتيجية الإقناعية، والتي تعدّ من أهمّ الاستراتيجيات التي يعتمدها المتكلّمُ من أجل نشر خطابه الدّعوي، إذ أنّه يستعمل فيها آليات لغويّة، وأخرى غير لغويّة (شبه منطقية)، بالإضافة إلى سلوكه هو شخصيًّا الذي يعدّ علامة بارزة تساهم في الكثير من الحالات في إقناع المتلقّي، أو على الأقلّ تزيد من نسبة استعداده للتّوجيه الذي يمارَس عليه، أيًّا كان ذلك التّوجيه.

من أجل الوقوف على أهمّ آليات الاستراتيجية الإقناعية وكيفيّة توظيفها لتحقيق الإقناع لدى متلقّي الخطاب كان لنا هذه الوقفة مع السّياق القرآني.

أ. **الإقناع العقلي في الخطاب الدّعوي:**

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق:6-11]،

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ **[ق:38].**

غالبا ما يأتي ذكر البعث مصاحبا لآيات الله في الكون، وهذا نجده كثيرا في السّور المكيّة خاصّة، مثل قوله تعالى في سورة النبأ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [النبأ: 1-5]، يبدأ السّياق القرآني بالحديث عن يوم القيامة" ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ "، ثمّ فجأة ينحو منحى آخر مغايراً تماما للسّياق بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦

[1] صابر الحباشة، من قضايا الفكر اللساني في النحو والدلالة واللسانية، ص29، نقلا عن: شهيدا خضر كريم ، لسانيات الخطاب الحجاجي في سور الحواميم، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2020، ص: 68.

[2] هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية: نحو نموذج سيميائي لتحليل النصّ، تر: محمّد العمري، دراسات سال، الدار البيضاء، ط1، 1989، ص: 64.

وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ۝٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ۝٨ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ۝٩﴾ [النبأ: 6-9]، إلى آخر آيات الله في الكون ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ۝١٦﴾[النبأ:16]، ثمّ يعود إلى سياق الحديث عن اليوم الآخر: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧﴾ [النبأ: 17].

اختلف علماء التّفسير حول ربط السِّياق القرآني الحديثَ عن يوم القيامة بالتدبُّرِ في آيات الله في الكون، ولهم في ذلك تخريجان:

- الأشهرُ والأقربُ التقاطًا: أنّ القادر على هذا (خلق الكون ابتداءً بكلّ ما فيه من مخلوقات)، قادر على ذلك (إعادة البعث)، بدليل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق: 11]، وقوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡيِۦَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٣٣﴾ [الأحقاف: 33].
- فيه بعدُ نظر: إنّ التأمّل في الكون يجعلك تُدرك لدرجة اليقين أنّ هناك إحكامٌ وإتقانٌ وعنايةٌ وتناسقٌ. الكون محكم بكل جزئياته، في تناسب وتناغم وتوافق، ليس كلّ جزء متقن وسليم لوحده بل هو سليم ومتقن مع غيره، كلّ جزء من الكون مكمِّل ومسخَّر لغيره (سبحان الله والكون مسخَّر بكليّته للإنسان). تجد النبتة متوافقة مع الحيوان متوافقة مع معدة الإنسان، ترى: حركة الكواكب، تعاقب الليل والنّهار، حركة الرّياح...كلّ ذلك يجعلك توقن أنّ هناك إلاه أحد حكيم خَلق هذا الكون ودبّره.

في المقابل، النَّاظر في أحوال العباد يرى الغنيَّ والفقيرَ، الظّالمَ والمظلومَ، المنعَّمَ والمحرومَ...ويرى النّهب والسّرقة والقتل والتّعذيب والتّشريد...وكلَّ أنواع الظلم والطغيان. هل من المعقول أنْ يُخلق العباد ويُتركوا عبثا؟! لا بدّ من إكمال إحكام خلق الكون بإكمال تدبير شؤون العباد فيه، ليتجلّى كمالُ العدل، ولا يكون ذلك إلّا بوجود يوم آخر تُردُّ فيه المظالمُ إلى أهلِها، لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء: 47].

بالعودة إلى سورة "ق"، نجد السّياق القرآني قد انتقل من إثبات قدرة الله خصوصا، في النّقطة محلّ الإنكار والتّكذيب وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾، (سنتطرّقُ إلى هذه الآية الكريمة بأكثرِ تفصيلٍ في مَبحث لاحق)، إلى إثبات قدرته عزّ وجلّ عموما. فبالرّغم من شكوك المكذّبين بالبعث واضطرابهم، إلّا أنّ الخطاب القرآني لا يدعهم بل يُكلّم العقلاءَ منهم.

يبدأ الخطاب باستفهام إنكاري فيه تعجّب من المشركين: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾، أي: كيف غفلوا عن مجرّد النّظر إلى السّماء وهي فوقهم لإدراك قدرة الخالق ﷻ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج: 46] .

ويعدّ الاستفهام «الوسيلة الأكثر استخداما في أيّة مواجهة إقناعية تجري بين طرفين، وأداة المطارحة الكفيلة بمُساءلة اعتقادات الآخر واستجواب قناعاته»[1]، فكيف إذا كان من الخالق سبحانه؟! فهو أشدّ في النّعي عليهم لاقتِضائه أنّ دلالة المخلوقات المذكورة على إمكان البعث يكفي فيها مجرّد النّظر بالعين .

وطالبهم بالنّظر "إلى" السّماء وليس "في" السّماء، «لأنّ النّظر في الشيء يُنْبِئُ عن التأمّل والمبالغة، والنظر إلى الشيء ينبئ عنه»، لأنّ "إلى" تفيد انتهاء الغاية، فمجرّد وصول النّظر إلى السّماء كاف لحصول الغاية، وزيادة في التّأكيد جيء ب"فوقهم" وهي «حالٌ من السّماء. والتّقييد بالحال تنديد عليهم لإهمالهم التأمّل مع المكْنَةِ منه إذ السّماء قريبة فوقهم لا يكلِّفهم النّظر فيها إلّا رفع رءوسهم»[2]، هم ليسوا بحاجة إلى التنقّل، فالدّليل موجود فوقهم يرونه صباح مساء.

إنّ آيات الله في الكون لم توجد عبثا، ولم توجد للانتفاع بها فقط، وإلّا كنّا والأنعام سواء، إنّما وُجِدت الآيات ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾، قبل أن تكون رزقا هي تبصرة وذكرى

[1] عادل عبد اللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص: 207.

[2] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م س، ج26، ص: 286.

للعباد، وقيل أنّه «خلق السماء تبصرة، وخلق الأرض ذكرى، ويدلّ عليه أنّ السماء زينتها مستمرّة غير مستجدَّة في كلّ عام، فهي كالشيء المرئي على مرور الزمان، وأمّا الأرض فهي كلّ سنة تأخذ زخرفها، فذكر السّماء تبصرة والأرض تذكرة»[1]. وبهذا تكون التّبصرة للآيات المستمّرة والتذكرة عند التّناسي للآيات المتجدّدة ، ممّا يجعل من التّبصرة والذكرى محوري التّفكر والتدبّر في الآيات الكونية.

وإجمالا جمعت الآيات في السّياق بين:

- الإحكام : ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾،﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾،﴿ نَّضِيدٌ﴾.
- والجمال: ﴿ وَزَيَّنَّاهَا﴾،﴿ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، ﴿ بَاسِقَاتٍ﴾.
- والنّفع: ﴿ مُّبَارَكًا﴾،﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾، ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.
- والقدرة: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾.

وفي تقديرنا، لا ينبغي أن تنزاحَ حُجَجُ الإقناع في الخطاب الدّعوي عن هذه المحاور: الإحكام والجمال والنّفع والقدرة، في قضية التدبّر في الكون، التي تعدّ من القضايا المركزيّة وذات الأولويّة في خطاب الدّعوة. يجب أن تكون هذه الحجج مُستقاة من البيئة القريبة من المتلقّي، لا تحتاج منه إلى إعمالِ فكرٍ، أو استعمال خيالٍ لإدراكها، لكي لا يقع اللّبس وسوء الفهم وعدم الإدراك.

إنّ توجيه النظر إلى الكون بوصفه ظاهرةً حسيّة ملموسة لا يُسهم فقط في إغناء المحتوى المعرفي للخطاب، بل يعزّز من قوّة الحضور الذهني للفكرة لدى المتلقّي. فحين يُستدعى الكون لا من زاوية التّجريد النظري، بل من خلال استحضار صوره الحسيّة وتجليّاته المشهودة، تصبح الفكرة أكثر تجذّرًا في الوجدان، وأكثر قدرة على الإقناع. ومن هنا، فإنّ اختيار الألفاظ الحسيّة المجسِّدة، بدلًا من الألفاظ المجرّدة، يُعدّ عاملًا مهمًّا في تكثيف التصوّر وتيسير التمثّل لدى المتلقّي، بما يخلق حالة من التواطؤ الذّهني والانفعالي بين الخطاب وجمهوره.

[1] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، م س، ج28، ص: 129.

ذلك أنّ الحقيقة، من هذا المنظور، ليست بناءً ذاتيًا خالصًا، بل هي شيء يقع خارج الذّات، والضّامن لصِدقيتها هو الواقع المشاهد والمدرَك بالحواس. فكلّما اقترب الخطاب من الواقع الملموس، زادت إمكانية مصادقته من قبل السّامع، لا لأنّه يرضي حواسّه فحسب، بل لأنّه يقدّم له برهانًا يُرى ويُلمَس. وعليه، فإنّ التدبّر العميق في الظواهر الكونية لا يُعدّ مجرّد تأمّل وجداني، بل يُمثّل عنصرًا جوهريًا في بنية الخطاب الإقناعي، حيث يربط بين الإدراك الحسّي والتأمّل العقلي، ويمنح الخطاب بعدًا وجوديًا يعمّق أثره، ويزيد من قابليته للقَبول والتّصديق.

ب. الإقناع باستحضار التّاريخ في الخطاب الدّعوي:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ **[ق: 12-14]،**

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ [ق: 36].

يقابل الخطاب القرآني خطاب مُنكري البعث، بذِكْرِ الأقوام الذين كذَّبوا من قبلهم (وقد اجْتَمع في هذه السّورة ذكرُ أكبر حَشْدٍ من الأقوام الأكثر طُغيانا وإنكارا وجحودا لرسلهم). كيف كان مآلهم، وهو ما يعرف بالمثل التّاريخي «هو مثال واقعي يروي الأمور التي حَدثت من قَبْلُ للإقناع بدعوى ما»[1]. فهو واقعة تاريخية حدثت بالفعل، «حيث يقوم المثال بدور الفعل المنتهي في الماضي والمنجز والذي يقدّم أنموذجا للحاضر أو المستقبل»[2]، ويَستمدُّ سلطَتَه وفق السّياق الذي يذكر فيه. والسّياق القرآني هو سياق تهديد لمشركي قريش المنكِرين للبعث، كما أنّه سياق تسلية للرّسول ﷺ لما يُلاقيه من تَكذيبهم.

[1] مُحَمَّد مشبال، في بلاغة الحجاج: نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017، ص86.

[2] قوتال فضيلة، حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التّداولية، م س، ص: 329.

كما يملك المثال التّاريخي خاصيّة «الاستباق[1] وهي إمكانية الحدوث مرّة أخرى، فمبدأ التّكرار يعطيه القوة الإقناعية»[2]. إنّ نقطة التقاء المشركين بهؤلاء الأقوام الذين أُهلكوا هي الإقدام على فعل التّكذيب ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾، والذي سيؤدّي بالضّرورة إلى المصير نفسه ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾. فكأنّه يقول لهم: أنتم تُنكرون البعث وتُكذّبون به، كذلك كذَّب الذين من قبلكم، فحقَّ عليهم عذابي، وكذلك تُعذَّبون، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ [الملك: 18].

إنّ القصص القرآني يصف أهل الباطل من التمكّن المادّي ما قد يصل بهم إلى درجة العبث والبغي والتكبّر ثمّ الجحود، يقول ﷻ :﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الشعراء: 128]، ويقول أيضا: ﴿۞ إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: 76]. إنّ الحضارات الماديّة التي أُهلكت عبر التاريخ، لم تلق مصيرها إلّا وهي في أَوَجِّ تمكُّنها وطغيانها، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: 24].

ينتقل الخطاب القرآني من الاستدلال على إمكانية البعث إلى تعريضٍ بالتّهديد وتسلية للنبيّ ﷺ بالحديث عن:

- تعميم الإهلاك في جميع الأزمان الماضية لجميع الأمم، دليل على شمول قدرة الله تعالى، وممّا دلّ على ذلك قوله: ﴿وَكَمْ﴾ "كم" الخبرية للتّكثير، ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ الجارّ للتّكثير والتّعميم، ﴿قَبْلَهُم﴾ نزع الجارّ دلالة على جميع الأزمان، ﴿هُمْ﴾ زيادة في بيان قوّة الأقوام الذين عاشوا في تلك القرون، ﴿مِنْهُم﴾ مقارنة بقريش.
- التمكّن والطغيان المادّي وقمّة السيطرة والبطش لتلك الأقوام، وممّا دلّ على ذلك قوله:

[1] Gelas Bruno, la fiction manipulatrice ,in L'argumentation, Linguistique et Sémiologie, PUL 1981,p86. نقلا عن: محمّد مشبال، م س، ص: 87.

[2] ينظر: محمّد مشبال، م ن، ص87.

﴿ فَنَقَّبُواْ ﴾، «والتّنقيب: مشتق من النَّقْب بسكون القاف بمعنى الثَّقْبِ، فيكون بمعنى: خَرَقوا، واسْتُعير لمعنى: ذلّلوا وأخضعوا، أي تصرّفوا في الأرض بالحَفْر والغَرْس والبِناء ونَحْت الجبال وإقامة السِّداد والحُصون فيكون في معنى قوله: ﴿ وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ ﴾ [الروم: 9] في سورة الروم»[1].

- عَجْزُ تلك الأقوام أمام الموت وعدم التمكّن من الفرار منه، وممّا دلّ على ذلك قوله:

﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ ﴾، «والمحيص: مصدر ميمي من حاص إذا عدل وجاد، أي لم يجدوا محيصا من الإهلاك وهو كقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ [مريم: 98] »[2].

إنّ القرآن يوجّه خطابا كلّه تهديد وتقريع وتبكيت وتعجيز لمنكري البعث، خلاصته: كم أهلكنا من أقوام لا تعدّ ولا تحصى، عاشوا في القرون الماضية وبلغوا من التمكّن المادي ما بلغوا، ثمّ ماذا بعد أن نقّبوا في البلاد؟ ماذا بعد السيطرة والطغيان؟ هل استطاعوا الفرار من الموت؟

يجب أن لا يخلو الخطاب الدّعوي من ذكر قصص الأنبياء وأقوامهم لاستخلاص العبر، لأنّ استحضارها ما هو في الواقع سوى البحث«...عن المادّة التي تطلق الاتفاق والقبول تحت لواء الحقيقة»[3]، إنّها أهمُّ محطّات في التّاريخ البشري، بل إنّها التاريخ الحقيقيُّ الذي يجب أن يرجع إليه الدّاعية في استِحْضار أمثلته لبناء حججه. يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[يوسف: 111].

يُعدّ استحضار التّاريخ، باعتباره ظاهرة نفسية ذات أثر وجداني وجمعي، من الآليات الحجاجية الفاعلة في الخطاب الدّعوي، لما ينطوي عليه من وظائف متعدّدة تتجاوز السّرد الزمني للأحداث. فهو من جهة، يحمل طابعًا ردعيًا تجاه الحضارات المادّية التي تقوم على تصوّر أرضي للوجود، فيكشف

[1] الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، م س، ج26، ص: 323.

[2] م ن، ج26، ص: 323.

[3] L.Bellenger , les techniques d'argumentation et de négociation, Entreprise Moderne d'Edition, Paris, 1978, p :28.

مَحدودية رؤيتها وانفصالها عن السّنن الإلهية. ومن جهة أخرى، يضْطَلِعُ بدور تثبيتي وتواصلي تجاه المسلمين عبر العصور، من خلال ربطهم بسياق تاريخي موحٍ، يمنحهم سلوى نفسية وشعورًا بالاستمراريّة الحضاريّة.

وتُؤَكِّد دراسات البلاغة الجديدة فاعليّة هذا البعد في الإقناع، من خلال ما ترصده من آليات حجاجية تستثمر التجربةَ البشريةَ بوصفها مرجعًا يُحتجّ به. غير أنّ بلاغة القرآن الكريم تتفرّد في هذا السياق بدمجها لعدة آليات حجاجية ضمن بنية تعبيرية مكثّفة، تجمع بين المقارنة والعاقبة والمساواة بين المكذّبين على اختلاف العصور. وتمنح هذه المزاوجة الخطاب القرآني قوّةً إقناعية مضاعفة، لما تؤكّده من تحقّق سنن الهلاك في الماضي، وتوقّعها الحتمي في المستقبل، على نحو يُرسّخ اليقين في نفس المتلقّي.

❖ **خلاصة القول:**

ينبغي لصانع الخطاب الدّعوي أن يفعّل آليات الربط بين المتلقّي والعالم من حوله، من خلال استثارة ملكاته التأمّلية في آيات الكون، وتوجيهه إلى تدبّرها عبر حجج إقناعية محكمة تستند إلى أساليب بلاغية تُسهِم في تعزيز بنية الحجاج وتكثيف أثره. فالمتكلّم الفاعل لا يكتفي بتقديم المعنى، بل يسعى لمحاصرة المتلقّي ضمن بنية خطابية لا تترك له فسحةً للهروب أو الإنكار، فتدفعه إلى مراجعة مواقفه، وتفتح أمامه أفقَ التّوبة والعودة إلى الله. وفي هذا السّياق، لا يجوز للدّاعية أن يستسلم لليأس مهما بدا له من صدّ أو عزوف، فباب الأوبة إلى الله يظلّ مُشْرَعًا، والخطاب مطالَب بالاستمرار في التّذكير والدّعوة دون انقطاع.

كما أنّه من الخطأ أن يتوهّم الخطيب عزلة المتلقّي عن المعنى الدّيني، حتّى في حال إنكاره الصّريح؛ فغالب الملاحدة – كما تشير الدّراسات النّفسية والمعرفيّة – لا يُنكرون وجود الإله بقدر ما يستعيضون عن سؤال "من؟" بسؤال "كيف؟"، وهو ما يكشف عن اشتغال البعد الفطري لديهم بشكل غير مباشر. وكم من إنسان اهتدى بتأمّله في النّظام الكوني دون أن يمرّ بتجربة دعويّة مباشرة أو مواجهة حجاجية مُعْلَنَة.

أمّا عن الوظيفة البلاغية لتكرار قَصَصِ الأنبياء في الخطاب الدّعوي، فإنّها تتجاوز السّرد إلى إحداث تراكم دلالي ووجداني يُرسّخ هذه النماذجَ في ذاكرة المتلقّي، ويجعل منها مرجعًا وجدانيًا ومعرفيًا يتفاعل معه في لحظة التلقّي، بما يُحدث انفعالًا شعوريًا يمهّد لحالة من التقبّل العقلي والنّفسي، تكون بمثابة الخطوة الأولى نحو الاقتناع.

2- استراتيجية الصّدمة الحجاجية:

يمكن تسميتها أيضًا بـ"استراتيجية الانتشال من الغفلة"، بالنّظر إلى وظيفتها التّنبيهية التي تهدف إلى إيقاظ وعي المتلقّي من غفلته الروحيّة والمعرفيّة. وتستمدّ هذه التّسمية مشروعيتها الدّلالية من الحقل الطبّي، حيث تُستخدم "الصّدمة الكهربائية" كإجراء إنعاشي لإعادة تشغيل القلب في حالات التوقّف أو الاختلال، كما يُستعمل هذا التدخّل العلاجي في بعض الاضطرابات النّفسية لإحداث صدمة عميقة تؤدّي إلى إعادة التّوازن الوظيفي. وعلى هذا النّحو، فإنّ الصّدمة في السّياق الحجاجي تؤدّي دورًا مماثلًا، إذ تسعى إلى كسر الجمود الإدراكي، وزعزعة الأنساق الذهنيّة الرّتيبة، بما يسمح بإعادة تشكيل الوعي وإحياء قابليّة التلقّي لدى المخاطَب.

في حالات الغفلة الشّديدة، حيث يكون العقل مُغَيَّبًا، تصبح وسائل الإقناع العقلي غير ذات جدوى فلا مناص من استعمال المخاطِب لحجج أكثر قوّة وفعاليّة، خاصّة إذا كانت مباغتة حيث تكون الصدمة أكثر إقناعا، إذ «غالبا ما تكون الحجج المفاجئة هي الحجج الأكثرَ فعاليّةً»[1] ، لأنّها تجعل المتلقّي في حالة من الدّهشة والذّهول، وتُفقده القدرةَ على المناورةِ أو الاعتراضِ، فلا يجد أمامه سوى الانقياد والاستسلام للمعنى المعروض والتّسليم به.

لفهم آلية اشتغال هذه الاستراتيجية، نذكر حادثة سجود مشركي قريش – وهي رواية ثابتة في صحيح **البخاري** من حديث **ابن مسعود**– «لما قرأ عليهم الرّسول ﷺ أواخر سورة النّجم، فلمّا بلغ

[1] L. Bellenger, les techniques d'argumentation et de négociation, op.cit, p :52.

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ ۩ ٦٢﴾ [النجم: 62]، سجد المشركون والمسلمون إلّا رجلا واحدا أخذ بعض تراب ووضعه على جبهته، هو "أمية بن خلف" كما ورد في بعض الرّوايات»[1].

إنّه وعلى الرّغم من كون كفّار قريش لم يَثْبُتْ عنهم أنّهم آمنوا بعد هذه الحادثة، إلّا أنّ فعل السّجود قد وقع بالفعل ولا يمكن إهمال هذه الواقعة أو تجاهلها تاريخيا، والسؤال الذي يمكن طرحه، لماذا سجدوا إذن؟ في الإجابة عن هذا السّؤال تلتقي علّتان، إحداهما ظاهرة والأخرى مُضمرة:

- العلّة الظاهرة هي مكانة الرّسول ﷺ الذي لا يقول إلّا صدقًا، والذي عُرف في مكّة بالصّادق الأمين، فقد كان كُفّار قريش على يقين بأنّهم إن لم يَسجدوا – حتّى ولو عن غير إيمان بهذه الدّعوة– سيحلّ بهم ما حلّ بالأقوام الذين ذُكِروا في أواخرِ سورة النّجم من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ٥٣﴾ [النجم: 50-53]. لقد كانوا يعلمون أنَّ النّبيَّ ﷺ صادق، وأنّ الإنذار الذي يَعِدُهم به واقع لا محالة.

- أمّا العلّة المضمرة فتكمُن في سطوة القرآن، تلك القوّة التي تَنْفَذ إلى أعماق النّفس البشريّة فتهزّها، قوّة لا يمكننا تفسيرها، وفي الوقت نفسه لا يمكننا تجاهلها. تلك القوّة التي تحدّث عنها القرآن ذاته حينما قال سبحانه: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر: 21]. الجبل بصلابته وقوّته يتصدعّ حين سماعه للقرآن، فكيف بالإنسان، ذلك المخلوق البشري الضّعيف؟

ثمّ نأتي إلى وصف مراحل تأثير القرآن في النّفس وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٢٣﴾

[1] أبو اسحاق الحويني، دروس للشيخ أبي إسحاق الحويني، ج15، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، ص 7، اطّلع عليه يوم[2025/05/26، 17:50]، متاح على: http://www.islamweb.net

[الزمر: 23]، «إنّها لحظة الصّدمة بالآيات التي يعقبها الاستسلام الإيماني، بل والاستعداد المفتوح للانقياد لمضامين الآيات»[1]. ولذلك، فإنّه مهما تنوّعت أساليب الخطاب وتعدّدت المحسّنات البلاغية في محاولة التّأثير والإقناع، فإنّها تظلّ قاصرةً عن بلوغ أثر المواجهة الأولى مع آيات القرآن، تلك المواجهة التي توقظ الوجدان برهبتها، فتقشعرّ لها الجلود، ثم لا تلبث أن تستجيب لها القلوب في خشوع واطمئنان. هناك، يبلغ الخطاب ذِرْوَته، حيث يتحقّق الانقياد الكامل والخضوع التامّ غير المشروط.

يتعلّق الأمر هنا بما يمكن تسميته بالصدمة الإدراكية التي يتلقّاها المتلقّي عند احتكاكه الأوّل بالخطاب القرآني، حيث تفاجئه حقائق وجودية كبرى تهزّ يقيناته السّابقة، وتحدث اضطرابًا في بنيته الذهنية والنّفسية. وفي هذا الإطار، نسعى إلى الكشف عن سُبل توظيف هذا الأثر الصّدمي داخل الخطاب الدّعوي، بما يعزّز قوّته الإلزامية وقدرته على التّأثير العميق. وسيتمّ ذلك من خلال دراسة نماذج مختارة من آيات سورة "**ق**".

أ. **الرجّة الخطابية وأثرها في المتلقّي:**

قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ **[ق: 1].**

قاف! بهذا الحرف القويّ الشّديد تُفتَتَحُ السّورة، وهو في الوقت ذاته اسم السّورة، ذكر **ابن الخطيب**(776هـ): «أنّ الحروف تنبيهات قُدّمت على القرآن ليكون السّامعُ بسببها يُقبل على استماع ما يَرِدُ على الأسماع، فلا يفوته شيء من الكلام الرّائق والمعنى الفائِق»[2]، وفي ذلك ما فيه من التّنبيه القويّ على المسألة المركزيّة لهذه السّورة: حقيقة البعث بعد الموت. وقاف من الحروف المقَطَّعة*، هذه الحروف التي افتُتِحت بها بعض السّور، تحوي دلالات غامضة لم تفسَّر إلى يومنا هذا وبقيت في علم الغيب عند الله.

[1] إبراهيم السكران، الطريق إلى القرآن، مركز الفكر المعاصر، ط1، 2012، ص: 17.

[2] ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ج18، ص: 5.

* لقد أسالت مسألة تفسير هذه الحروف الواقعة في أوائل السور، الكثير من الحبر. ليس هذا مجال الفصل فيها، لذلك سنقتصر في حديثنا عنها على المعاني التي تخدم بحثنا.

بالرّغم من أنّ "قاف" ليس برأس آية، إلّا أنّ القارئ يجد نفسه مضطرّا للوقوف عنده، وهو في أحكام التّجويد مدّ لازم حرفي مخفّف☆. وقف يثير في النّفس فزعا وانتباها عاليين يجعلها تنتبه، تترقّب، تنتظر ما سيكون بعده؟!

لنَتَخيّل لحظة سماع كفّار قريش لرسول الله ﷺ وهو يصدع بسورة "**ق**" عند الكعبة لأوّل مرّة، كيف كان ردّ فعلهم؟ فإثارة انتباه الغافلين تستدعي توظيف أنجع الأساليب البلاغية، وليس أبلغ من افتتاحية تبدأ بحرفٍ قويّ البنية الصوتية كـ"قاف"؛ وهو حرفٌ مجهور، شديد، ومستعلٍ، يُحدث وقعًا سمعيًّا مميّزًا يشدّ السامع، ويثير انتباهه، ويُمهّد لتلقّي الرّسالة بتركيز وجداني وعقلي.

يُعدّ حرف "قاف" واحدًا من الحروف الهجائية التي يتشكّل منها نسيج اللّغة العربية، وهو، كسائر الحروف، لا يحمل معنًى مستقلًّا بذاته، بل يكتسب دلالته من السّياق التّركيبي للكلام. وإذ نزل القرآن بلسانٍ عربيٍّ مبين، فقد استعمل حروفًا مألوفة لدى العرب، دون أن يأتِ بأصوات أو رموز خارجة عن نظامهم اللّغوي. ومع ذلك، وقفوا عاجزين عن الإتيان بمثل هذا القرآن، رغم معرفتهم التامّة بمقوّماته الصّوتية والبيانية، وهو ما يُمثّل ذروة التحدّي لهم.

وقد تجلّى هذا التحدّي بوضوح في سورة "ق"، التي اتّسمت منذ مطلعها بروح المجابهة والإنكار لادّعاءات منكري البعث، حيث لم يسمح النصّ القرآني بتمرير تلك المزاعم دون ردّ، بل افتتح السّورة بالحرف "قاف"، مُعلنًا به تحدّيه من اللّحظة الأولى، وكأنّ الحرف نفسه يمثّل تمهيدًا صوتيًّا لحالة من الحسم الحجاجي والبياني في وجه المكابرين.

من الضروري استخدام وسائل تنبيهية في الخطاب الدّعوي تكون أكثر تأثيرا وجلبا للمتلقّين، تضغط على مراكز الاستجابة لديهم ، وتهيئ لإنشاء استعداد التلقّي والقبول. فالتّنبيه، في هذا السّياق، ليس مجرّد لفتٍ للانتباه، بل هو مدخل جوهري لإعادة تشكيل وعي الغافلين، واستثارة إدراكهم الغائب عن الحقائق الكبرى التي يُركّز عليها الخطاب الدّعوي.

☆ المدّ اللازم الحرفي المخفف: هو مدّ يليه حرف ساكن، يكون حكمه: مدّه 6حركات عند جميع القرّاء. ويشير الطّاهر بن عاشور إلى حركة الحرف قاف بقوله:« النّطق به ساكن الآخر سكون هجاء في الوصل والوقف بإجماع القرّاء» .ينظر: الطاهر بن عاشور، م س، ج26، ص: 277.

فتوظيف الحرف المفرد "قاف" في مطلع سورة "ق" هو مثال قرآني بالغ الدّلالة على هذا النّمط من التّنبيه. فهو لا يُؤدّي وظيفة صوتية فحسب، بل يعمل كبؤرة إيقاظ، تستنهض السّامع من غفلته، وتُعدّه للانخراط في مسار من التلقّي الجادّ. فالقرآن لا يكتفي بعرض مضامينه، بل يُتقن صناعة لحظة التلقّي، بدءًا من بنية الصوت وانتهاءً بعمق المعنى. وهكذا يُصبح التّنبيه وسيلة لغاية أسمى، هي انتشال الإنسان من غفلته، وإعادته إلى دائرة التبصّر والتأمّل في المصير والحقيقة.

ب. إلزامية تطويق الخطاب الدّعوي للمتلقّي:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ * قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾[ق:16-30] .

يمثِّلُ هذا المقطع من السّورة صلبَها، وكأنّه مقطع قائم بذاته، يُحاصر الإنسان في لحظة مواجهة وجوديّة حادّة، ينتزعه من سياقه الاجتماعي، ويجرّده من سند الجماعة، ليقف وحيدًا أمام ذاته، في مواجهة مباشرة مع خباياه، ومخاوفه، ومسؤوليته الفردية. فالإنسان، بطبعه، يستمدّ قوّته من الانتماء الجمعي، ويستكين في ظلّ الجماعة، فإذا ما انفرد بنفسه، انكشفت هشاشته. وهذا المشهد يُعدّ من أقوى الخطابات القرآنية الموجَّهة إلى منكري البعث، لما يحمله من شحنة وجدانية وتهديد وجودي يمسّ أعمق مناطق الوعي الإنساني.

أهمّ ما ميّز هذا الخطاب:

- ألفاظه قويّة، شديدة مناسبة لمقام التّخويف والتّرهيب، مثل: سكرة، رقيب، عتيد، حديد،

معتد، مريب، منّاع، ظلّام، وعيد...

➢ فواصلُه: قصيرة، متتالية، تتسارع فيها الأحداث، لا تترك مجالا للردّ أو حتّى للتّفكير، لاستيعاب ما يجري، إنّه الذهول أمام الصّدمة بل هي الصّدمات!

- **صدمة القبضة :**

قبضة الخلق، قبضة العلم، وقبضة القدرة، حين يُفاجأ منكر البعث بأنّ كلّ لفظ نَطَقَ به، وكلّ حركة صدرت عنه، كانت مرصودة بدقّة من قِبل الملكين، تُصعَق نفسه بصمتٍ مُروّع، وتغشاه لحظة وعي كاشفة لم تكن في حسبانه. لقد عاش حياته منكِرًا للحساب، مطمئنًّا إلى وهم الحريّة المطلقة، غير مدرك أنّ مجال رؤيته محدود، وأنّ خلفه ملكين «أحدهما ﴿رَقِيبٌ﴾ مُتَتَبّع لكلّ حركاته، حافظ لها، شاهد عليه يوم القيامة، والآخر ﴿عَتِيدٌ﴾، حاضر لا يغيب، معدّ للحفظ والشهادة»[1].

يأتي الخطاب القرآني فيسلب منه آخر معاقل الإنكار، ويُسقط عنه قناع الطمأنينة الزّائفة. هنا، تتحوّل الصّدمة إلى زلزلة نفسية؛ إذ يجد نفسه مكشوفًا، مجرّدًا من التّبرير، محاطًا بشهادة دقيقة لا تقبل النّفي. إنّها لحظة انكشاف كامل أمام عدالة لا تُغفل صغيرةً ولا كبيرةً، لحظة تفرض عليه مواجهة ذاتية لم يستعدّ لها، وتغلق أمامه أبواب الإنكار والفرار.

- **صدمة الموت:**

يُشكّل الموت في الخطاب القرآني صدمة وجودية مقصودة، تُعيد الإنسان إلى وعيه بعد طول غفلة. فهي الحقيقة الوحيدة التي لا يملك الإنسان الفكاك منها، مهما بالغ في تجاهلها أو توهّم الحياد عنها. وقد أشار **ابن عطية**(ت584هـ)، إلى دقّة هذا التّوصيف حين قال:« ومعنى هذا الحيد أنّه يقول: أعيش كذا وكذا، فمتى فكّر في قرب الموت حاد بذهنه وأمله إلى مسافة بعيدة من الزّمن»[2]، في تصوير بليغ لكيفية تهرّب النّفس من مواجهة حتميّة المصير.

ولأنّ الإنسان يستأنس بالحياة ويغرق في لذّاتها، كان من جوامع وصايا النّبي ﷺ لأصحابه الإكثار من ذكر هادم اللذّات. إنّ القرآن لا يعرض الموت بوصفه نهاية فحسب، بل كرجّة عنيفة

[1] ينظر: الماوردي، النكت والعيون، تح: السيد ابن عبد المقصود، ج5، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (دط)، (دت)، ص:346.

[2] ابن عطية، المحرر الوجز في تفسير الكتاب العزيز، م س، ج5، ص: 161.

توقظ الغافل، وتُعيد ترتيب وعيه، وتجبره على مواجهة حقيقته. وكفى بالموت واعظًا، حين يُقدَّم في سياق صادم، لا يترك للذهن مهربًا، ولا للقلب غفلة.

- **صدمة البعث:**

رغم تكذيب الإنسان به وإنكاره له إلّا أنّه سيُبعث، وسيُحاسَب على كلّ أفعاله –قد تقدّم الحديث عن هذا المعنى– وهنا يأتي ذكر الملكين الذين يرافقانه يوم المحشر: «سائق يُزجيه في السير، يَسوقه إلى ما هو كاره لعلمه بما قدّم من النقائص، وشهيد يشهد عليه بما عمل»[1]. فيُساق الإنسان مُكْرَهًا، بعد ما كان مخيّرا، إلى محكمة الآخرة ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾ [غافر: 17]. إنّ الخطابَ القرآني يُفاجئه بمشهد يُجرّده من وهمِ السّيطرة، ويضعه في مواجهة حاسمةٍ مع المصير، بأسلوب كلّه تهويل وتخويف وترهيب.

- **صدمة انكشاف الغطاء:**

يُفعِّل الخطاب القرآني صدمة انكشاف الغطاء بوصفها لحظة حاسمة من لحظات الوعي الأخروي، يُنتزع فيها الإنسان من عالم الغفلة والتوهّم، ويُوضع وجهًا لوجه أمام ما كان يُنكِره أو يُعرِض عنه. وقد اختلف المفسّرون في دلالة "الغطاء" المذكور، بين من رأى فيه كشفًا حقيقيًا للبصر يُمكِّن الإنسان عند البعث من رؤية ما كان محجوبًا عنه من عوالم الغيب، وبين من فسّره تفسيرًا مجازيًا، معتبرًا الغطاء رمزًا لهيمنة الغفلة، وانشغال الإنسان بالمحسوسات وانحباسه في أفق دنيوي ضيّق. وهذا ما رجّحه جمهور المفسّرين، «فكلّ إنسان يكون يوم القيامة نافذ البصر، مُستبصرا، قد زال عنه غطاءه من غفلة وانهماك في المحسوسات والإلف بها وقصر النّظر عليها»[2].

إنّ يوم القيامة هو لحظة انكشاف بصريّ وباطنيّ معًا، تزول فيه حُجب الغفلة وتتكشّف الحقائق التي طالما غفل عنها الإنسان، ويأتي قوله تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ [الأنبياء: 97]، ليُجسّد هذا الانكشاف المفاجئ، مقرونًا بتقريع حادّ، يُصدم فيه الإنسان بحقائق لم يكن يُنكرها عن

[1] البقاعي، نظم الدرر، م س، ج18، ص424.

[2] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، م س، ج26، ص: 308.ينظر: الآلوسي، روح المعاني، م س، ج13، ص: 334

جهل، بل عن تغافل متعمّد واتّباع للهوى. وهكذا، يتحوّل الخطاب القرآني إلى أداة صادمة تُعرّي الغافل من أوهامه، وتُعيد بناء الوعي من تحت أنقاض الإنكار.

- **صدمة انهيار كلّ وسائل الدفاع:**

إنّها لحظة مفصلية في مسار المواجهة بين الإنسان والحقيقة التي أنكرها. ففي يوم القيامة، تُسلب من الكافر كلّ آليات الدّفاع والمراوغة التي كان يتحصّن بها في الدنيا؛ فالجوارح، التي طالما كانت أدوات للإنكار أو التّجاهل، تُنطق بالحجّة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠﴾ [فصلت: 20]، ووُضع الكتاب ينطق بالحقّ حتّى يقول المجرمون: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: 49]، في هذا السّياق، يتحوّل الخطاب القرآني إلى آلية تبكيت قاطعة، تُعرّي المكذّب من كلّ وسيلة، وتُسقِطُ عنه آخر دفاعاته، ليواجه عجزه الكامل في حضرة العدل الإلهي. إنّها لحظة انهيار تامّ، لا يُسمَح فيها بالتّبرير ولا بالإنكار، بل يُساق الإنسان إلى مواجهة ذاته المجرّدة، محاطًا بشهادات لا يستطيع دفعها ولا الطعن فيها.

- **صدمة الإلقاء في النار:**

يحمل فعل "الإلقاء" في الخطاب القرآني دلالة قوية على الهوان والانحدار القسري، فهو لا يُعبّر عن انتقال إرادي، بل عن سقوط مذلّ يُجسّد المصير المحتوم لكلّ من كفر بيوم الدّين «كلّ عنيد مُعْرض عن الحقّ، كل منّاع للخير، معتد في منطقه وسيرته وأمره، مريب يشكّ بالتّوحيد»[1]، فاتّخذ إلهه هواه فأرداه إلى سواء الجحيم. يُفعّل الخطاب القرآني صدمة تحقيرية بالغة، تجعل المخاطَب يقف على مشارف المصير المهين، ليراجع مواقفه قبل أن يُلقى كما يُلقى الشيء المسترذل، لا الكائن المكرَّم.

- **صدمة إنطاق جهنّم:**

يُنطق الله عز وجل يوم القيامة جهنّم كما أنطق الجوارح، وفي نطقها أشدّ التّهديد للمخاطبين من كافر ومشرك وغافل، الكلّ يسمع حديثها لما تقول: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠﴾، «فلا يظنُّ أحد من

[1] ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م س، ج17، ص: 17.

المدفوعين إليها أنّه بمفازة منها بأن امتلأت وضاقت عليهم. وفي الاستفهام ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ تنبيه لأهل العذاب على وجه التّعريض»[1]. وهذا النّطق، بما فيه من شخصنة مرعبة لجهنّم، يُفعّل صدمة وجدانية عميقة في نفس المخاطَب، إذ يدرك أنّ هذا الكائن ليس ساكنًا ولا صامتًا، بل واعٍ دائم الطلب، لا يشبع ولا يضيق، بل يستزيد من الدّاخلين إليه من الإنس والجنّ.

وفي تعليق الجواب عن سؤالها، وتركه بلا ردّ، تكثيف للوعيد، إذ يصبح الصّمت ذاته حاملًا للرّعب، ودليلًا على أنّ التّهديد قد بلغ غايته. هكذا يُسدِل الخطاب القرآني السّتار على مشهد رهيب، يُراد به زلزلة وعي الغافل، ودفعه إلى التوبة قبل أن يكون من وقودها.

يتّسم الطابع العام للآيات السّابقة بطابع تهديدي صارم، يتجلّى في أسلوب التّخويف والتّرهيب والوعيد، وهو وقعٌ مقصود، يتناسب مع درجة الغفلة والانغماس في الإعراض التي طبعت حال المخاطَبين. فقد بلغوا من التبلّد والشرود حدًّا يجعل الخطاب العقلي غير ذي جدوى، إذ تجاوزوا عتبة الاستدلال إلى مناطق يُغلَّف فيها الوعي بالغفلة والانفصال عن الحقيقة. ومن ثمّ، جاءت حدّة الخطاب انسجامًا مع طبيعة المرحلة التي يمرّ بها المتلقّي؛ فلا مجال للاستمالة أو الإقناع، بل لا بدّ من صدمة خطابية توقظ، وتُربك، وتعيد التّوازن إلى مخاطَبٍ اختلّت مَوازينُه.

يقتضي الخطاب الدّعوي في بعض السّياقات أن يُشدّد لهجته، متى استدعت حال المتلقّي ذلك، إذ لا تتساوى جميع النّفوس في استعدادها للتلقّي، ولا ينفع اللّينُ مع من غلبته الغفلة واستحكم فيه الإعراض. وفي مثل هذه الحالات، يكون الحزمُ ضرورةً بلاغية وتربوية، لا غايةً في ذاته، بل وسيلة لمخاطبة مناطق الضعف في النّفس، ومواجهة المتلقّي بمخاوفه لا لقهره، بل لإعادة توازنه واستنفار وعيه. ومثلما يتطلّب علاج بعض الأمراض إجراءات حازمة تبدو في ظاهرها قاسية، لكنّها وحدها القادرة على إنقاذ المريض، فإنّ التّشديد في الخطاب الدّعوي قد يكون السبيل الأنجع لبعث الحياة في وعيٍ آخذ في التّلاشي.

[1] ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م س، ج26، ص: 317.

❖ **خلاصة القول:**

حينما تَستنفِدُ الوسائلُ العقلية التقليدية أثرها، يُصبح من الضروري أن ينتقل الخطاب الدّعوي إلى استراتيجيات أكثر فاعلية وتأثيرًا، دون أن ينزلق إلى منطق القمع أو الإكراه الذي يطبع بعض الخطابات الإيديولوجية السّاعية إلى فرض قناعاتِها على المتلقّي بشكل مباشر أو مُضمر. إنّ الخطاب الدّعوي، في جوهره، لا يُخاطب المتلقّي لفرض السيطرة عليه، بل لتحقيق مصلحته، حتّى وإن غابت عنه أو جهلها.

ومن هنا تبرز فعّالية الصّدمة الحجاجية، باعتبارها أداة بلاغية تُحدث رجّة في الوعي، وتُعيد تشكيل العلاقة بين المتلقّي والخطاب. ويكتسب هذا الخطاب قوّته من قبضته التّأثيرية، تلك التي لا تُمارَس بالقهر، بل تتحقّق بتوظيف آليات لغوية وسياقية دقيقة: من اختيار المفردة المناسبة، وتجنّب الإطناب المملّ، إلى اعتماد الإيجاز الموصل، تحقيقًا لليقظة والانتباه وسرعة الاستجابة. هكذا يحتفظ الخطاب الدّعوي بقدرته على الإلزام دون إكراه، وعلى الهيمنة دون تسلّط.

وإذا كانت الاستراتيجيات الخطابية تشكّل البنية الوظيفية للخطاب الدّعوي، فإنّها لا تُفهم على نحو مكتمل إلّا في ضوء الغايات التي تتوجّه نحوها. فالخطاب الدّعوي لا يُبنى لمجرد التّأثير الآني في المتلقّي، بل يُصاغ لتحقيق غايات عليا تشكّل جوهر هذا الخطاب، وتمنحه خصوصيته داخل الحقل التّداولي الإسلامي.

إنّ كلّ آلية بلاغية أو حجاجية تُوظَّف في الخطاب الدّعوي، إنمّا تُستثمر في ضوء الوجهة القيمية والرّسالية التي يتحرّك نحوها الخطاب الدّعوي، إذ لا معنى لتقنيات الخطاب ما لم تكن موصولة بغايات تهدف إلى ترشيد المتلقّي، لا مجرّد إرضائه، وإلى تحرير وعيه، لا ترويضه.

المبحث الثّالث:

غايات الخطاب الدّعوي.

- الغايات المعرفيّة.
- الغايات الوجدانيّة.
- الغايات الاجتماعيّة.

إنّ المتحدّث عن الخطاب الدّعوي لا بدّ وأن يتعرّض في سياق حديثه عن غايات هذا الخطاب ، «فهي من جانب تمثّل الرؤية والفلسفة الكليّة التي تُعرِّف بمضامين الدّين الإسلامي... ومن جانب ثان تمثّل الأطر الكلية، وقاعدة الانطلاق التي يجب أن يتمركز حولها عمل الدّعاة...ومن جانب ثالث تمثّل نمطا من الأولويات الثابتة التي يستهدفها الخطاب الدّعوي»[1]، وهذا ما يمنح الخطاب الدّعوي رؤيا واضحة في غاياته ومساراته.

وتنقسم الغايات الخطابية إلى ثلاثة مجالات رئيسة: «الغايات المعرفية، والغايات الوجدانية، والغايات الاجتماعية»[2]. هو تقسيم إجرائي وظيفي يهدف إلى ضبط التّحليل وتيسير الفهم، لا إلى إقامة حدود فاصلة صارمة بين هذه المستويات. إذ تظلّ العلاقة بينها تفاعلية ومفتوحة، حيث تتداخل الغاية المعرفية مع نظيرتها الوجدانية، وقد تنعكس كلتاهما على البُعد الاجتماعي، بما يعكس الطبيعة التّكاملية للخطاب الدّعوي وغاياته المتشابكة.

1- الغايات المعرفية:

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾[ق: 6-10].

إنّ القرآن يخاطب «ما في الإنسان من ملكة البصيرة والإدراك، ويستثير منه دواعي الفكر والوعي ويحرّضه على طلب الحقائق المتعلّقة بالخلق اكتشافا، وبالخالق توحيدا، فيكون التّصديق بها هداية، والتيقّن بها إيمانا»[3].وهي الغايات التي وجب على الخطاب الدّعوي أن يحقّقها لدى المتلقّي.

[1] ينظر: أيمن فايز عطا الله، مقاصد الدعوة الإسلامية: دراسة تأصيلية، حولية كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة، مج2، جامعة الأزهر الشريف، مدينة نصر، مصر، ع:37، 2023، ص: 15.

[2] ينظر: م ن، ص: 16.

[3] ينظر م ن، ص: 30.

أ. **تحقيق الهداية:**

الهداية نوعان*: هداية الدّلالة والإرشاد، وهداية التّوفيق؛ أمّا هداية الدّلالة،« فهي التي يقدر عليها الرّسل وأتباعهم؛ قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ [الرعد: 7]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: 52]، فأثبت الله لهم الهُدى الذي معناه الدّلالة والدّعوة»[1].

أمّا فيما يخصّ النّوع الثّاني من الهداية، والمتمثّل في هداية التّوفيق، فهي بيد الله ﷻ وحده، وهي من خصائص الألوهية، فقال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص: 56] «فالهُدى هنا بمعنى خَلْقُ الإيمان في القلب»[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ ۝٥﴾ [البقرة: 5].

تُعدّ هداية الإرشاد من المهامّ الجوهريّة الموكّلة إلى الدّعاة، باعتبارهم ورثة الأنبياء في تبليغ الرّسالة وتوجيه المتلقّين إلى الحقّ. ومن هذا المنطلق، يستهدف الخطاب الدّعوي تكوين التصوّر الإيماني الشّامل الذي حدّده الإسلام لعلاقة الإنسان بربّه، أساسه الإيمان والإحسان، ولعلاقته بالوجود من حوله، تأسيسًا على معاني الخلافة والتّكليف.

وتتمثّل الغاية المركزية لهذا الخطاب في نقل قناعة الإيمان إلى المخاطَبين، والسّعي إلى توليد التّصديق والقَبول في نفوسهم. وتتمثّل هذه القناعة في ركائز العقيدة الثلاث التي تضمّنتها آيات سورة البقرة، وهي:

- إيمان بالغيب، وهو الإيمان بالله وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:3].
- الإيمان بالأنبياء، والمشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن

* يوجد نوع آخر من الهداية هي الهداية العامّة وهي التي ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:50]، وهي إلهام جميع المخلوقات لما يقيم حياتهم، ويندرج تحته الإنسان والحيوان.

[1] ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م س، ج1، ص: 160.

[2] م ن، ج1، ص: 160.

قَبۡلِكَ ﴾ [البقرة: 4].

➢ اليوم الآخر، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾ [البقرة: 4].

تلك هي أهمّ مقاصد الهداية التي يستهدفها الخطاب الدّعوي، وتمثّل أهمّ المحاور التي انتظمت حولها سور القرآن الكريم كلّها (والتي تمثل سورة "**ق**" مثالا عنها).

يقوم الخطاب الدّعوي على أساس مخاطبة العقل وترسيخ التّفكير البرهاني، رافضًا التّقليد الأعمى والاتّباع بلا دليل، وهو ما عبّر عنه الفتية المؤمنون في سورة الكهف باستنكارهم لشرك قومهم دون حجّة عقليّة واضحة، في قولهم: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٍۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ۝١٥ ﴾ [الكهف: 15]. وإلى جانب هذا البُعد العقلي، يحرص الخطاب الدّعوي على تجسيد الهداية في الواقع العملي، بنقلها من مستوى التصوّر الذهني إلى السلوك والممارسة الفعلية، سواء على صعيد الفرد أو ضمن النّسيج الجماعي، تحقيقًا لوحدة الاعتقاد والعمل في آنٍ معًا.

ب. تحقيق العلم:

المقصود به نمط التّفكير، وكيفية التّعامل مع الأمور بما يسمح للعقل أن يمارس وظيفته« في تفهّم المعقولات وتحليلها، والبحث عن علل الأشياء وأسبابها، والتّعاطي مع الأقوال والأفعال»[1]، والنّظر في الكون وما يحيط به من مخلوقات؛ إنّه عبادة التدبّر والتذكّر التي تُفضي بلا ريب إلى معرفة الخالق، وهو العلم الذي حثّ عليه سبحانه في قوله: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ [العلق: 1]، وأقسم سبحانه بآلته بقوله: ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ ﴾ [القلم: 1]، ومدح أهله بقوله: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٩ ﴾ [الزمر: 9]، وهو الذي طلب الاستزادة منه بقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ۝١١٤ ﴾ [طه: 114].

ذلك هو العلم الذي يستلزم على الخطاب الدّعوي استدامة الحثّ عليه، وذلك بالنظر إليه كونه:[2]

[1] ينظر: أيمن فايز عطا الله، مقاصد الدعوة الإسلامية: دراسة تأصيلية، م س، ص: 40.

[2] ينظر: م س، ص ص: 40-44.

- **طاعة وعبادة:**

ضرورة اعتبار العلم وسيلة لمعرفة الله ﷻ، فعلى صانع الخطاب الدّعوي أن يتّخذ من موجودات الكون وعوالمه مادّة يغذّي بها خطابه، ويقوّي بها حججه، ليمرّر قناعاتِه للمُستَمعين، ويدرّبهم في الآن ذاته على عبادة التفكّر والتدبّر. إنّ العقل والعلم هما سبيلا الاعتقاد الجازم، والإيمان المبْنِي على اليقين.

- **حرفة وصناعة:**

يُعدّ العلم عمليةً منهجية تقوم على تفاعل منظَّم بين العالِم والمتعلّم، ضمن إطار من المناهج والمقّررات والسّياسات العلمية، مع احترام دقيق لتخصّصات المعرفة وتكاملها. ومن هذا المنطلق، فإنّ تكوين الدّعاة القادرين على إنتاج خطاب دعوي رصين، يستند إلى أُسس علميّة متينة، لا يمكن أن يُترك للعشوائية أو الارتجال، بل ينبغي أن يتمّ وفق برامجَ تعليمية مخطَّطة ومدروسة، تُراعي الخصوصية الدّعوية من جهة، والمقتضيات المعرفية والتّكوينية من جهة أخرى، بما يضمن التّوازن بين التّأصيل الشّرعي والقدرة على التّواصل والإقناع.

- **خلافة وحضارة:**

ومؤدّى ذلك أنّ الاضطلاع بوظيفة الاستخلاف وتحقيق مقاصد العمران لا يكون إلا عبر بوّابة العلم والمعرفة؛ فالعلم هو الأداة التي تؤهّل الإنسان لفهم سُنن الوجود والتّعامل معها على نحو راشد ومسؤول. ومن هنا، تبرز مسؤولية المتكلّم في الخطاب الدّعوي في ترسيخ هذه القناعة لدى المتلقّين، من خلال بثّ الوعي بأهميّة العلم كشرط أساسي للنّهوض، لا باعتباره وسيلة دنيوية فحسب، بل مكوّنًا جوهريًا في تحقيق المقصد الاستخلافي للإنسان في الأرض.

- **حماية ووقاية:**

يُمثّل العلم أداة معياريّة أساسيّة في التّمييز بين الصّحيح والفاسد من المعتقدات، والصّادق والكاذب من الأقوال، والنّافع والضارّ من الأفعال، وهو بذلك يُعدّ درعًا معرفيًا يحمي المتلقّي من الارتهان لأيّ سُلطة خارجة عن سُلطة الشّرع. ومن هنا، ينبغي على المتكلّم في خطابه الدّعوي أن يُوظّف العلم بوصفه وسيلة لتحصين المخاطب، وتمكينه من مقاومة أشكال الهيمنة المختلفة، سواء

كانت غريزية تستدرجه، أو دينية تُضلّله، أو دنيوية تُغريه، حتّى يكون وعيه منضبطًا بمرجعية الشرع ومحصّنًا من الانقياد الأعمى.

وتحقيقًا لمقصد العلم في الخطاب الدّعوي، تَبرزُ ضرورة اعتماد مجموعة من المبادئ التّربوية والمعرفيّة، في مقدّمتها تعزيز ثقافة السّؤال لدى المتلقّي واستثارة الفضول لديه خطابيا، وتنمية الوعي النّقدي بوصفه شرطًا لمشاركته الفاعلة في العمليّة الحجاجية، لا كمجرّد متلقٍّ سلبي أو مقلّد. كما ينبغي تفعيل آليتي الاستقراء والاستنباط، من خلال تدريب المتلقّي على ربط الجزئيات بالكليّات، والفروع بالأصول، بما يُرسّخ الفهم العميق والاستيعاب المنهجي. ويكتمل هذا المسار المعرفي بتشجيع لغة الحوار والاختلاف، ونبذ مظاهر التعصّب، والدوغمائية، والانغلاق الفكري، حتّى يكون الخطاب الدّعوي أداة بناء لا تقييد، وتحرير لا استتباع.

2- الغايات الوجدانية:

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: 31-33].

تُعدّ غاية التزكية من أعظم الغايات التي ينبغي أن يتمحور حولها الخطاب الدّعوي، لما تحمله من مشروع أخلاقي متكامل يهدف إلى صناعة الإنسان وتربيته تربيةً قائمة على الهداية والإيمان بالله واليوم الآخر. فالخطاب الدّعوي لا يقتصر على نقل المعرفة أو تصحيح التصوّرات، بل يتحمّل مسؤولية وضع برنامج أخلاقي تربوي يُعيد تشكيل شخصية المخاطَب، بما يجعل سلوكه متّسقًا مع القيم الإيمانية، ومُعبّرًا عن حالة وعي ديني عميق. وتتمثّل ثمرة هذا المسار في أن يتحقّق في المتلقّي وصف القرآن الكريم: ﴿أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾، فهو «الذي يرجع من الذنوب ويستغفر... الذي يحفظ توبته من النّقض»[1] والأواب والحفيظ كلاهما من صيغ المبالغة أي يكون كثير الأوب شديد الحفظ للفروض شديد الخوف من المعاصي.

[1] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، م س، ج28، ص: 145.

ويُشيرُ قوله تعالى: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾، إلى جوهر العلاقة التي ينبغي أن تربط الإنسان بخالقه، وهي علاقة تقوم على الإنابة والخضوع التامّ، لا في جانب العبادة فقط، بل في مختلف شؤون الحياة، تشريعًا وسلوكًا ووجدانًا. ومن هنا، يضطلع الخطاب الدّعوي بمهمّة مركزية في ترسيخ هذا النّمط من العلاقة في نفوس المخاطَبين، من خلال توجيههم نحو إدراك أنّ الإسلام ليس مجرّد منظومة شعائريّة، بل موقف كليّ من الوجود يُبنى على التّسليم المطلق لله، والرُّجوع إليه في كلّ أمر، وهو ما يُشكّل أحد الأركان الكبرى في مشروع التزّكية.

تُعدّ التّزكية عمليّة تهذيب شاملة تهدف إلى تطهير الفكر والعمل من الخُبث والانحراف، ولا تُؤتي ثمارها إلّا من خلال العلم الصّحيح، والاستجابة الصّادقة لمركزيّات الدّعوة والإذعان لمقتضياتها. فالتّربية الأخلاقية المنفصلةُ عن العقيدة الرّاسخة تظلّ خطابًا غير مُجْدٍ ولا فعّالًا، إذ لا يمكن تهذيب من لم يُقرّ بالحقّ ولم ينخرط في مشروع الهداية.

وتحقيقًا لهذا المقصد الجليل، ينبغي أن يعمل الخطاب الدّعوي على محورين أساسيين:

- إحياء القيم الحضاريّة الإسلاميّة التي تَراجع حُضورها في الواقع، كقيمة التّعاون، والعمل الجماعي، والنّظافة، والحفاظ على البيئة والمرافق العامّة، واحترام الوقت، وذلك من خلال تخصيص خطب دعويّة توعويّة تتناول هذه القيم بطرق إبداعية في الطرح والإلقاء.
- تفعيل المنهج الإسلامي في التّزكية، بربط البعد المعرفي التّنظيري بالتّطبيق العملي، حتّى لا تبقى التّزكية مجرّد مفاهيم مثاليّة، بل تتحوّل إلى سلوك يوميّ ملموس يعكس صدق الإيمان وفاعليّة التّربية.

3- الغايات الاجتماعية:

قوله تعالى: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ق: 24-26].

يجمع القرآن بين العقيدة وبين العلاقات الاجتماعية، لأنّ هذه حصيلة تلك؛ فالذي جعل مع الله آلهة- قد يتبادر إلى الأذهان عند ذكر الآلهة، صورة الأصنام التي كانت قريش تعبدها، لكنّ الآلهة متعدّدة و

أشدّها الخفيّة منها؛ فالهوى إله، وحبّ المال إله، وحبّ السلطان إله، وأيّ سلطة غير سلطة الله في قلب العبد هي إله يعبدها من دونه–سُرعان ما تظهر آثار انحرافه العقدي في واقعه العملي، إذ يُصبح منّاعا للخير، مفسدًا في الأرض، معتديًا على الحقوق، مستبيحا لها بغير وجه حقّ، متحلّلاً من الضوابط الأخلاقيّة. ومن هنا، تتجلّى إحدى الغايات الاجتماعية الكبرى التي يسعى الخطاب الدّعوي لتحقيقها، وهي وحدة الأمّة وبناء مجتمع سليم يقوم على الإصلاح الاجتماعي.

أ. وحدة الأمّة:

يُقصد به «تعزيز الشعور بانتماء المسلم لجسد الأمّة الإسلامية الكبير، وتجلية ما يَترتّب على هذا الانتماء من واجبات»[1]. إنّ مفهوم الأمّة الإسلاميّة، وهو مفهوم حضاري لم يكن معهودا عند العرب، قد جاء به الإسلام ليُحدث نقلة نوعية في البنية الاجتماعية للعرب، إذ نبذ كلّ أشكال الجاهليّة من عنصريّة، وتعصّب قبلي، واستغلال، وأرسى مبادئ الأخوّة والعدل والتّكافل.

لقد توفّرت للعرب قبل الإسلام كلّ مقوّمات التجمّع من وحدة اللّسان والعرق والمكان، ومع ذلك لم تتشكّل عندهم أمّة موحّدة إلّا مع مجيء الإسلام، الذي وحّد الانتماء على أساس العقيدة لا العصبيّة. ومن هنا، فإنّ من الغايات الجوهرية للخطاب الدّعوي أن يُرسّخ هذا المفهوم في نفوس المخاطَبين، ويُبيّن ما يترتّب عليه من واجبات عمليّة، أبرزُها نبذ الطائفيّة والحزبيّة والتعصّب الضيّق، باعتبارها من أهمّ العوامل التي قوّضت وحدة الأمّة وأضعفت نسيجها الدّاخلي. فالخطاب الدّعوي مطالب بأن يُعيد توجيه الوعي الجمعي نحو هذا الانتماء الجامع، بوصفه أساسًا في بناء مجتمع متماسك يَنْهَضُ برسالته الحضارية.

يُحمَّل الخطاب الدّعوي مسؤولية التّصدّي للنّزاعات الحزبيّة والانقسامات الفكريّة، وذلك من خلال تنقيته من كلّ أشكال المشاحنات والخطابات الإقصائيّة التي من شأنها أن تُضعف بنيته الرّسالية وتمسّ بوظيفته التّوحيدية. كما يُفترض به أن يُولي اهتمامًا بالغًا بقضايا الأمّة الإسلاميّة الكبرى، وعلى رأسها قضيّة فلسطين وقضايا الأقليّات المسلمة المضْطَهدة، بوصفها همًّا مشتركًا يُجسّد وحدة الجسد الإسلامي، الذي إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى. ومن هنا، يصبح من

[1] أيمن فايز عطا الله، مقاصد الدعوة الإسلامية: دراسة تأصيلية، م س، ص: 74.

مهامّ الخطاب الدّعوي الأساسيّة غرس الشعور بالانتماء للأمّة الإسلامية في وجدان المخاطَبين، وتكريس هذا الانتماء كعنصر حيوي في بناء الوعي الجمعي المشترك.

ب. الإصلاح الاجتماعي:

يُقصد بالإصلاح في المجال الدّعوي تحقيق وظيفة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، بوصفها جوهر الرّسالة الدّعوية وركيزة من ركائز النّهوض المجتمعي. فالخطاب الدّعوي الذي يغفل عن الدّعوة إلى الإصلاح، والتّحذير من الفساد، وفضح المفسدين، ومقاومة الظلم والطغيان، هو خطاب مبتور ومشوّه، يُسهم – بوعيه أو من دونه – في تزييف الحقائق وتعطيل وعي النّاس.

إنّ ترك المجال مفتوحًا لأهل الهوى والباطل ليتحكّموا في السّاحة دون مواجهة، لا ينسجم مع روح الإسلام ولا مع مسؤولية الدّعاة، الذين يُفترض أن يكونوا حملة مشروع إصلاحي شامل، يقف في وجه الخطابات المخرّبة التي تستهدف تقويض ثوابت الأمّة ونسف مقوّمات وحدتها. ومن هنا، فإنّ الخطاب الدّعوي الحقيقي هو خطاب مقاوم، واعٍ، صادق في انحيازه للحقّ، وفاعل في مواجهته للانحراف.

ولتحقيق غاية الإصلاح الاجتماعي ضمن الخطاب الدّعوي، لا بدّ من الالتزام بجملة من الشّروط المنهجيّة التي تضمن فعاليّته وتأثيره.

- أوّلها واقعيّة الخطاب في تحليل قضايا الواقع واستيعاب تعقيداته، من أجل تقديم حلول إصلاحيّة موضوعيّة قابلة للتّطبيق، بعيدًا عن الطروحات المثاليّة أو الشعارات المجرّدة.
- وثانيها اعتماد مبدأ التدرّج في الإصلاح، باعتباره سنّة تربوية واجتماعية، تُراعي طبيعة النّفوس ومحدودية قابلية التغيير، حتى لا يُدفع الناس إلى الحقّ دفعة واحدة فيرفضوه دفعة واحدة[1]؛ وهو ما يستدعي وضع خطط مرحلية دقيقة تُبنى على التّقدير والتّمهيد.
- وثالثها تفعيل شعيرة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وفق ما تقتضيه الآداب الإسلامية في

[1] مقولة لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ﷺ، ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج5،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط1، 1404هـ، ص: 185.

الخطاب، بغية ترسيخ روح المسؤولية الأخلاقيّة والجماعيّة لدى المتلقّين، وتحفيزهم على الانخراط في مشروع الإصلاح بوصفه واجبًا مشتركًا لا تقتصر مسؤوليّته على الدّاعية وحده.

❖ **خلاصة القول:**

للخطاب الدّعوي غايات ينفرد بها عن باقي الخطابات الأخرى لما يحمله من طابع شامل يُزاوج بين مصالح الدّين والدّنيا، ويجمع بين منفعة العاجل والآجل. وهذه الغايات، على تنوّعها، تنضوي ضمن غاية كبرى مركزية هي التّبليغ، التي تعكس البعد العالمي للرّسالة الإسلاميّة، وتؤكّد طبيعتها السرمديّة بوصفها رسالة صالحة لكلّ زمان ومكان. «إنّ الإحاطة بهذه الغايات ضروريّة لترشيد هذا الخطاب وتحديد أولويّاته، وضبط مسيرته، إنّها تساهم في سدّ الفجوة الحّاصلة بين القائمين عليه، وتُوَحِّد كلمتَهم وتَعْضُدُ صفَّهم»[1]، ومن ثَمَّ، فإنّ خصوصيّة الخطاب الدّعوي لا تكمن فقط في مضامينه، بل في وظيفته التّبليغيّة التي ترتبط برسالة الأنبياء، وتجعل منه أداةً لصياغة الوعي، وبناء الإنسان في أبعاده العقدية، الأخلاقية، والاجتماعية.

يُعدّ تحديد الغايات في الخطاب الدّعوي مرتكزًا تأسيسيًّا يُوحّد جهود العاملين في الحقل الدّعوي، رغم اختلاف الوسائل والأساليب المعتمدة. فهذا التّحديد يُوفّر أرضية مشتركة تنطلق منها الرّؤى، ويُسهم في تعزيز الانسجام بين صانعي الخطاب، مما ينعكس إيجابًا على المتلقّي ويُيسّر عملية نقل القناعات وتحقيق التقبّل.

كما يُؤدّي وضوح الغايات إلى تطوير مضمون الخطاب وتحقيق قدرٍ أعلى من الواقعية والاتّصال المباشر بالجمهور، وهو ما يُقلّص الفجوة بين المرسِل والمتلقّي. ومن جهة أخرى، فإنّ وضوح الأهداف يُسهّل تحديث الوسائل وتكييفها مع معطيات العصر، ممّا يُعزّز من فاعلية الخطاب، ويُؤمّن له الاستمراريّة والتّجديد دون أن يفقد ثوابته.

إنّ السّعي إلى تحقيق الغايات الكبرى للخطاب الدّعوي يقتضي تسخير كلّ الاستراتيجيّات اللّفظيّة وغير اللّفظيّة، الكفيلة بنقل المعلومة الصحيحة للمتلقّي المعاصر الذي أصبح في عصر

[1] ينظر : أيمن فايز عطا الله، مقاصد الدعوة الإسلامية: دراسة تأصيلية، م س، ص: 101.

المعلوماتيّة، لا يتلقّى معارفَه ومعتقداتِه من خلال الفضاء الرّقمي المفتوح، حيث تختلط الحقائق بالادّعاءات، وتتنازع الأفكار دون ضوابط أو مرجعيات. ومن هنا، تبرز ضرورة استثمار المنصّات الرقمية لنقل الخطاب الدّعوي بصيغة مُؤَصَّلة، مُبَسَّطة، ومُقْنِعَة، تَحُول دون تَغَلْغُلِ الخطابات المشَوِّشَة، وتُعيد للرّسالة الدّعوية حُضورَها الفاعل في ساحة الخطاب المعرفي المعاصِر.

لقد أضحى من الضروري، في ظلّ تصاعد الحملة التّضليليّة الممنهجة ضد ثوابت الأمّة، العمل على مواجهة الخطابات المغْرِضَة التي تتسَلَّل عبر الوسائط الحديثة، مستغلَّةً اتِّساع الفضاء الرّقمي وصعوبة ضبطه. إذ لم تعد المنابر التّقليدية كافية لحماية الوعي الجمعي، بل بات المطلوب تأسيس خطاب دعوي فعّال ومُقنع، يُزاوج بين الأصالة والاحترافيّة، ويملك القدرة على تَفْنيد الشُبُهات، واستعادة الثّقة بالمرجعية الإسلاميّة، مع الحضور المتوازن في السّاحات الرقمية، حيث تتشكّل اليوم قناعات الأفراد وهُوِّياتهم.

المبحث الرّابع:

رهانات الخطاب الدّعوي في مواجهة خطابات التّضليل.

- مواجهة تزييف الواقع.
- التّحرير من التبعيّة والانهزام النّفسي.

توطئة:

لقد أضحى خطاب التّضليل في العصر الرّاهن من أبرز الوسائل تأثيرًا في تشكيل الرأي العام وتوجيهه بما يخدم مصالح ما يُعرف بصنّاع القرار، وذلك نتيجة لانخراط الجماهير الواسع في تلقّي هذا النّوع من الخطابات، لما له من قدرة كبيرة على ترسيخ سلوكات ومواقف لدى المتلقّي من خلال ما يقدّمه من مضامين موجَّهة ومُحكمة البناء. فكثير من الأفراد، وخاصّة العَوامّ، يبنون آراءهم ويتّخذون مواقفهم بناءً على ما يتلقّونه – عن وعي أو دون وعي – من خطابات التّضليل، التي لا تدّخر جهدًا في توظيف مختلف آليات التّأثير والإقناع، حتّى وإن اعتمدت على أساليب مشبوهة أومغلوطة.

لقد انحرفت بعض الخطابات، التي تتوسّل بمختلف الوسائط الإعلامية، بدرجة كبيرة عن رسالتها المفترضة في توعية الشعوب، لتتحوّل إلى أدوات لصناعة واقع مزيّف، وتغييبٍ للعقول، وتهييجٍ للعواطف، وتسطيحٍ للوعي الجمعي. فقد جرى تسخير الوسائط السّمعية البصرية، والمكتوبة، والإلكترونية، وغيرها، في خدمة تشكيل رأي عام موجَّه ومُصطنَع.

إنّ خطابات التّضليل تتلاعب بوعي الجماهير من خلال أساليب متعدّدة، مثل «...استقراء خطأ أو إخفاء وقائع أو إبرازها بشكل خاطئ»[1]، قد تكون الوقائع في ذاتها صحيحة، إلا أنّ طريقة تقديمها – من حيث التّوقيت أو الزاوية المختارة للعرض أو التّغطية الإعلامية – تجعلها تنحرف عن حقيقتها، وهو ما يُفضي إلى تشويه الوعي. وتُعدّ قضية غزّة مثالًا صارخًا لهذا النّمط من التّضليل.

لا يكمن هدف خطابات التّضليل في مجرّد نشر المغالطات وبثّها إلى الجمهور، بل يتجاوز ذلك إلى تشكيل مواقف راسخة، وبناء قناعات موجَّهة، والتّأثير في الأفكار والمعتقدات، من خلال تنميط آليات التّفكير وتوجيهها نحو قراءة الواقع لا كما هو عليه، بل كما يُراد له أن يُفهم ويُتصوَّر. وبهذا،

[1] Philippe PAL, « La désinformation : un concept rentable », Editions Fauxtroll, Lorient, 2006, pp22-23،

نقلا عن: بعزيز براهيم، تقنيات وأساليب التضليل الإعلامي المعاصرة بين تغييب الوعي وتوجيه اهتمامات الأفراد، مجلة ستراتيجيا[كذا]: مجلة دراسات الدفاع والاستقبالية، ع: 06، السداسي الثاني 2016، ص: 56.

يتحوّل المتلقّي – شيئًا فشيئًا – إلى مجرّد تابع أو مستهلك لما يُقدَّم له، فاقدٍ لقدرته على التّفكير النّقدي، مسلوب الإرادة والتّمييز.

وممّا لا شكّ فيه أنّ خطابات التّضليل التي تنتشر عبر مختلف المنصّات ووسائل التّأثير المعاصرة، تمارس أشكالًا متعدّدة من التّلاعب بالمعلومة وتوجيه الإدراك، الأمر الذي يخلّف آثارًا عميقة على المتلقّي بشكل خاصّ، قد تصل إلى إقناعه«... بالتصرّف ضدّ مصلحته باسم مشاعره أو أهوائه»[1]. وعلى النّسيج المجتمعي بشكل عامّ. إذ تمثّل هذه الخطابات تهديدًا مباشرًا لمنظومة القيم الدينيّة والاجتماعيّة والثقافيّة، وتُسهم في تفكيك الوعي الجماعي وتشويش الرأي العامّ. وقد أفرز هذا الواقع ضرورة ملحّة لبلورة خطاب دعوّي رشيد، يتّسم بالوعي والقدرة على التّفكيك والتّحصين، ويملك أدوات المواجهة المعرفية والبيانية الكفيلة بالتصدّي لتلك المغالطات، وتقديم خطاب بديل يُعيد توجيه الوعي العامّ نحو الحقائق والمقاصد الأصيلة.

إنّ خطابات التّضليل، بوصفها آلية لإعادة تشكيل الوعي العامّ وتوجيه الإدراك الجمعي، ليست ظاهرة معاصرة فحسب، بل هي ممارسة قديمة تمتدّ جذورها في أعماق التّاريخ الإنساني. ولعلّ من أبرز الشّواهد على ذلك ما تعرّض له النّبيّ ﷺ في بدايات الدّعوة الإسلامية، حيث واجه حملة تضليليّة مُمَنْهَجَة قادها كفّار قريش سعياً للهيمنة على الرأي العامّ، ومحاولة لإجهاض الرّسالة في مهدها.

لقد سخّروا مختلف الوسائل الخطابية المتاحة آنذاك، من تشويه لشخصه ﷺ ، إلى اختلاق الافتراءات، والتّشكيك في صِدْقيّة الوحي، سعياً لإضعاف أثر الخطاب القرآني في النّفوس، «ولا يقتصرُ التلقين على فترة زمنية محدودة، بل الهدف هو إحداثُ تغييرٍ لا رجعة فيه في السلوك: إنسانٌ جديد»[2]، أو بتعبير آخر تابع نموذجي. وقد سجّل القرآن هذه الحملة التّضليلية، موثّقاً أساليبهم، وكاشفاً زيف ادّعاءاتهم، بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت: 26].

[1] Fabrice d'Almeida, la manipulation, Presse Universitaire de France ; Paris , 3ème édition,2011, p :27.
[2] Ibid., p :83.

لما أدرك مشركو قريش كَمالَ الخطاب القرآني في مضمونِه وبيانِه، وعجزَهم عن مجاراتِه أو نقضِ حجّتِه، حاولوا حَجْبَ نور هديه بغبار من الأباطيل والشّبهات، يضربون على وتر التّشكيك، ويريدون بالأمّة التّفكيك، وجعلوا مع الله الهوى شريكا. فعن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: «كانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وهو بِمَكَّةَ إذا قَرَأَ القُرْآنَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَكانَ المُشْرِكُونَ يَطْرُدُونَ النّاسَ عَنْهُ ويَقُولُونَ: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾»[1]. إعراضهم عن الدّعوة لم يكن كافيا لهم، بل عَمَدوا إلى تَلقين غيرهم أساليبَ اللّغوِ، من المكاء والصَّفير والصّياح، للتّشويش على صوت الحقّ، حتّى لا يصل إلى الآذان فتخشع، وإلى القلوب فتلين. ومع ذلك، بقي الوحي متجاوزًا لكلّ هذا الضّجيج، وماضياً في إتمام نوره، كما وعد الله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: 8].

ما أشبه الأمس باليوم، «فهذا من شأن دعاة الضّلال والباطل أن يَكُمّوا أفواهَ النّاطقين بالحقّ والحجّة، بما يستطيعون من تخويفٍ وتسويلٍ، وترهيبٍ وترغيبٍ ولا يدَعوا النّاس يتجادلون بالحجّة ويتراجعون بالأدلّة؛ لأنّهم يوقنون أنّ حجّة خصومهم أنهَضُ، فهم يسترونها ويُدَافعونها لا بمثلها ولكن بأساليب من البُهتان والتّضليل، فإذا أعيتهم الحيلُ ورأوا بوارِقَ الحقّ تَخفق خشوا أن يعمّ نورُها النّاس الذين فيهم بقيّة من خير ورشد عدلوا إلى لغو الكلام ونفخوا في أبواق اللّغو والجعْجعةِ لعلّهم يغلبون بذلك على حجج الحقّ ويغْمُرون الكلام القول الصالح باللّغو، وكذلك شأن هؤلاء»[2].

إنّ التّأسيس لخطاب دعوي جادّ يُعدُّ من الضّرورات الملحّة في ظلّ ما يشهده الواقع المعاصر من تفشّي خطابات التّضليل والتّشويش، إذ يُمكن لهذا الخطاب أن يُشكّل جدار صدٍّ معرفي وقيمي في وجه تلك الموجات، عبر تقديم بديل يتّسم بالصّدق، والوضوح، والغاية الهادفة. فالمسألة لا تتعلّق بمجرد الردّ على الشبهات، بل بإرساء خطاب يتّسم بالمصداقية، ويتوسّل بأساليب البيان الرّشيد، والمخاطبة الواعية للوجدان والعقل معًا.

[1] السيوطي، الدرّ المنثور، م س، ج7، ص: 320.

[2] الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، م س، ج24، ص: 277.

وفي هذا السّياق، نروم الوقوف على بعض التّدابير البلاغية والتّداولية التي اتّخذها الخطاب القرآني لمواجهة حملات التّشويه والتّضليل، وذلك من خلال عرض نموذج تطبيقي مُستقى من سورة "**ق**".

1- مواجهة تزييف الحقائق :

قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ ﴾[ق:2-5].

يكشف الخطاب القرآني بعمقٍ ووضوحٍ عن خبث كفار قريش ومكرهم، حين عمدوا إلى تزييف إحدى أعظم حقائق العقيدة، وهي البعث بعد الموت، إذ اعتبروها من قَبيل المستحيلات التي لا يقبلها العقل. لم يكتفوا بموقف التّكذيب، بل تجاوزوه إلى ممارسات تضليليّة متعمّدة، وظّفوا فيها أساليب التّهويل والمبالغة، مستهدفين من يخالطونهم من أتباعهم وأفراد مجتمعهم، في محاولةٍ لتثبيت هذا الإنكار في الوعي الجماعي. وقد صوّر القرآن هذا المشهد ببراعة تصويرية وبلاغية، تنقل لحظة التّشكيك والتّزييف الجماهيري في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ ﴾.

أ. فضح الشبهة الجماهيرية :

موضع الشّاهد في قوله تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ ﴾، حيث يكشف السّياق عن مقام تهكّمي يَسخر فيه المشركون من فكرة البعث. فهم لا يقدّمون شبهة عقلية ذات بناء منطقي، بل يكتفون بإظهار التعجّب الشّديد، دون بيان سبب واضح، وكأنّ التعجّب في ذاته حُجّة تُغني عن البرهان. ويُصوّر هذا المشهد بأسلوب جماهيري مثير، يُراد به التّأثير في المتلقّي لإقناعه، إذ يبدو المتكلّمون في غاية الاندهاش ممّا طُرح، فيتلقّى السّامع ذلك الانفعال كحقيقة أوليّة، دون أن يتبيّن منشأه، فينشأ لديه شعور نفسي بأنّ التّصديق بالبعث نوع من السّذاجة أو الغرابة المُفْرِطَة، وهو بالضّبط التّأثير المقصود من هذا الخطاب.

ثمّ يتجلّى سبب تعجّب المشركين في قوله تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ﴾ من خلال أسلوب استفهاميّ تعجّبيّ إبطالي، كما أشار إلي ذلك **ابن عاشور** «الاستفهام مستعمل في التّعجيب والإبطال، يريدون تعجيب السّامعين من ذلك تعجيب إحالة لئلاّ يؤمنوا به وجعلوا مَناط التّعجيب الزمان الذي أفادته (إذا) وما أضيف إليه، أي زمن موتنا وكوننا ترابا، حُذِف المستفهم عنه، ودلّ عليه لفظ: ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ﴾، وتقديره: أنعود إلى الحياة بعد أن نموت ونفنى ونصير ترابا؟! فذلك عندهم أقصى الاستبعاد»[1]، فلا يُستعمل الاستفهام هنا للاستفهام الحقيقي، بل للتّعجيب المبَطَّن بالإبطال، بغرض إحداث أثرٍ نفسي في المتلقّي يصرفه عن التّصديق بالبعث. فالمشركون لم يطرحوا تساؤلًا معرفيًا يبحث عن جواب، بل عمدوا إلى إلقاء تعجّب مبالغ فيه ليُحيلوا المسألة إلى مقام المستحيل، وجعلوا من ظرف الزمان (إذا متنا وكنا ترابًا) محورًا للتعجّب والاستبعاد، دون التّصريح بالمستفهم عنه، الذي دلّت عليه صيغة: ﴿ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ ﴾، أي: أَنُبعث بعد الموت والفناء؟! وهو عندهم غايةٌ في البُعد والإنكارِ.

وهذا الأسلوب يُصنّف ضمن ما يُعرف بـ"زخرف القول"، كما وصفه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيّٖ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢ ﴾ [الأنعام: 112]، حيث تُقدَّم الشبهةُ بزينةٍ لغويةٍ مُؤَثِرَة تهدف إلى التّضليل لا البيان.

لقد صاغَ المشركون شبهتَهم في إنكار البّعث بأسلوبٍ جماهيري قائمٍ على الانفعال والتّهويل، لا على البرهان. فهم، لشدّة استبعادهم للفكرة، يعجزون حتّى عن ذكرها تصريحًا، وكأنّها كما هي بعيدة عن أذهانهم، فهي ثقيلة كذلك على ألسنتهم. ويُفضي هذا الأسلوب إلى ترهيب المتلقّي من مُخالفة الرّأي السّائد؛ إذ يخشى أن يُتَّهمَ بالشّذوذ عن القاعدة الجمعية، فينكمش عن التّصديق لا عن قناعة، بل تحت ضغط نفسي واجتماعي يجعل الإنكار هو الموقف "العقلاني" المقبول ضمن الإطار الثّقافي للمجتمع المكّي آنذاك.

[1] ينظر: ابن عاشور، م س،ج26، ص: 279.

نفس المشهد يذكره القرآن في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: 78]، وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾ [سبأ: 7].

نلمس الآلية االتّضليليّة نفسها القائمة على التّهويل والتضخيم، إذ تُقدَّم الحقيقة بأسلوب يجعلها في نظر المخاطَب متعذّرة التصوّر أو مستحيلة التحقّق، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾ [سبأ: 7]. إنّه نمط من أنماط التّضليل، تُبثّ فيه الشبهة إلى صدور السّامعين لا عبر الحجّة والبرهان، بل من خلال التّأثير النّفسي والانفعالي، لإنتاج حالة من التردّد أو الرفض المسْبَق. هذا هو جوهر التّضليل، قد تختلف وسائلُه، وتتبدّل وجوه مروّجيه، لكنّ جوهره يبقى واحدًا: قلب الحقائق وتشويهها بغرض زعزعة الثّقة بها.

ب. تفنيد التّشكيك وتحصين الرأي العامّ:

بعد أن استعرض النصّ القرآني هذا المشهد المضلّل الذي صاغه مُنكرو البعث، وأخرجه بأسلوب حيّ ينقل إلى القارئ أجواء العرض الجماهيري للشُّبهة، ينتقل إلى لحظة التّفنيد والردّ. فيبدأ الخطاب القرآني تفكيك البنية الجدلية لذلك الإنكار من جذورها، لا بالاِسْتِطْرادِ في الجَدل، بل بضرب الشُّبهة في أصلها.

في قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ ﴾، فالإضراب بـ"بل" يُشير إلى انتقالٍ من مقدّر محذوف «وهذا من إيجاز الحذف فالإضراب الانتقالي يقتضي كلاما يُنتقل منه، والقسم بدون جواب لا يعتبر كلاما تامًّا، وحُسْنُه أنّ الانتقال مُشعِرٌ بأهميّة المنتقَل إليه»[1]. والغرض من هذا الانتقال تسليطُ الضّوء على ما بعده، إذ يُصبح المنتقَل إليه هو مركز الثِّقل الدّلالي في الخطاب.

هذا الإيجاز، يُبرز الإنكارَ الشّديدَ لتعجّبِ هؤلاءِ المشركين، ويُحمّلُه دلالةً استهجانية. ففعل "عَجِبُوا" يُفجّر السؤال في ذهن السّامع: ممّ يتعجّبون؟ إنهم يتعجبون من أمرٍ لا يدعو للعجب، بل يستدعي الإيمان والتّصديق، وهو مجيء منذرٍ منهم، يدعوهم إلى الحقّ. فالبنية البلاغية للآية تقوم على

[1] ينظر: الطاهر بن عاشور، م س، ج 26، ص: 278.

المفارقة بين عجب لا موجب له، وبين دعوة قائمة على الحقّ، لكن قلوبهم أغلقت دونها، فانحصر إدراكهم في الانفعال بدل الفهم، وفي السخرية بدل التدبّر.

عبّر المشركون عن تعجّبهم من اجتماع صفة الرّسالة وصفة البشرية، وهو ما اعتبروه مدعاة للاستبعاد والاستهزاء. ويؤكّد **ابن عاشور** هذا الترتيب في أولويّات التعجّب، فيقول:« ولذلك وُصِف الرّسول ﷺ ابتداء بصفة مُنذر قبل وصفه بأنّه منهم ليدلّ على أنّ ما أنذرهم به هو الباعث الأصلي لتكذيبهم إيّاه وأنّ كونه منهم إنّما قوّى الاستبعاد والتعجُّبَ»[1]. يتبيّن من ذلك أن تعجّب المشركين لم يكن نابعًا من طبيعة الرّسول البشرية بحدّ ذاتها، بل من الرّسالة التّحذيرية التي جاء بها، وما تحمله من تَقْوِيض لمنظومتهم العقائديّة والاجتماعية، فجاء ذِكْرُ بَشَريته تعزيزًا لرفضهم، لا سببًا أصليًّا له.

يُختَتم الردّ الإلهي على شبهة المشركين بشأن البعث بتقرير حقيقة عظيمة تُجسّد كمال العلم الإلهي، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ ﴾، «أي الله يعلم ما تأكل الأرض من لحوم موتاهم وعظامهم وأشعارهم»[2]، حيث يُعلن القرآن يقينًا مطلقًا بعلم الله التّفصيلي بما تأكله الأرض من أجساد الموتى من لحمٍ وعظم وشعر، علمًا لا يعزب عنه شيء، مهما صَغُر أو تشتّت أو اختلط بالتراب. ففي هذا النص ردّ حاسم على دعوى المشركين باستحالة البعث، إذ استندوا إلى ظنّهم بعدم إمكانية إعادة الأجساد بعدما بَلِيَت وتفرّقت، فجاء الجواب القرآني مؤسَّسًا على تقرير شمول العلم الإلهي ودقّته، باعتباره دليلاً كافيًا على إمكان البعث.

وفي مقام آخر، يُعزّز القرآن هذه الفكرة بقوله: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا ﴾ [الأنعام: 59]، حيث يُشير النصّ إلى علم الله بكل ورقة تسقط من شجرة، في كلّ زمان ومكان، علمٌ لا يُدرك مداه البشر ولا يُحيطون به. وإذا كان هذا العلم يشمل ما لا يُؤبَه له من الأوراق المتساقطة، فكيف بما يتّصل بخلق الإنسان وإعادته؟

[1] ينظر: الطاهر بن عاشور، م س، ج26، ص: 279.

[2] ينظر: الآلوسي، روح المعاني، م س، ج13، ص: 324.

ويؤكّد **ابن عاشور** «أنّ هذا الكلام بيانٌ للإمكان رعيا لما تضمّنه كلامهم من الإحالة لأنّ ثبوت الإمكان يَقْلَعُ اعتقاد الاستحالة من نفوسهم وهو كاف لإبطال تكذيبهم ولاستدعائهم للنّظر في الدّعوة»[1]. فقوله تعالى إيماء إلى دليل جواز البعث، فالعالِم بتلك الأجزاء بمقتضى عموم العلم الإلاهي، لا يُعجزه جمعها وتركيبها أجساما، فالقادر على الجمع والتّأليف، ليس الرجوع منه ببعيد.

ولا يتوقّف الردّ القرآني عند حدود بيان العلم الإلهي المفصّل بأجزاء الأجساد بعد فنائها، بل يرتقي إلى مستوى أوسع وأشمل، حيث يقول تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾. في انتقال من العلم الخاصّ إلى العلم الكليّ المحيط. وقد جاء تنكير لفظ ﴿كِتَٰبٌ﴾ للدّلالة على التّعظيم، وهو «تعظيم التّعميم، أي عندنا كتاب كلّ شيء»[2] ، فهو عالم بتفاصيل الأشياء. وجاء العدول في لفظ ﴿حَفِيظٌ ۝٤﴾ عن اسم الفاعل "حافظ" أي «حافظ أجزاءهم وأعمالهم بحيث لا ينسى شيئا منها»[3] ، للدّلالة على المبالغة، فهو ليس مجرّد صفة فاعليّة لحظيّة، بل صفة ذاتيّة ثابتة تفيد إحاطة كاملة بكلّ ما يقع، صغيرًا كان أو كبيرًا. فـ"حفيظ" في هذا السياق تدلّ على الكمال في الحفظ والدّقة في التّوثيق، فلا يندّ عن علم الله شيء دقّ أو جلّ.

وفي ختام هذا السّياق، يصوّر القرآن حال المكذّبين تصويرًا نفسيًّا عميقًا، في قوله: ﴿فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾، «أي مختلف مختلط، قال **الزجّاج** وغيره: لأنّهم تارة يقولون: ساحر، وأخرى شاعر، وطورا ينسبونه إلى الكهانة، وأخرى إلى الجنون»[4]، وهذا التّذبذب في الموقف لا يعكس تنوّعًا في النّظر، بل يُظهر تشتّتًا في الموقف، واضطرابًا في الإدراك، ويدلّ على عجزهم عن اتّخاذ موقف متماسك من الحقّ.

[1] ابن منظور، م س، ج26، ص: 281.
[2] م ن، ج26، ص: 283.
[3] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، م س، ج28، ص: 125.
[4] م ن، ج28، ص127.

فهم، بخلاف المؤمن الذي يستند إلى يقين راسخٍ، يقعون في حالة من التردّد والقلق المعرفي، تجعلهم غير قادرين على إنتاج موقف ثابت، في حين أنّ الإيمان يورث الطمأنينة، والثّبات في الرؤية، والاتّساق في الفهم.

❖ **خلاصة القول:**

من خلال الآيات الكريمة السّابقة، يتبيّن بوضوح أنّ الخطاب القرآني لم يخضع لمنطق الحملة التّضليليّة التي أطلقها منكرو البعث من كفّار قريش، ولم ينجرّ إلى أسلوبهم في المماحكة أو المسايرة، بل واجه افتراءاتهم بأسلوب ربّاني قائم على تفنيد الشّبهات من جذورها، ونسف الأكاذيب التي أرادوا بها التّشكيك في العقيدة، وذلك بهدف قطع الطّريق أمام أيّ لبس قد يعتري المتلقّي، أو شكّ قد ينشأ في ذهنه من جرّاء سماع تلك الأباطيل.

لقد فَضح القرآن مكرهم وكَشف اضطرابهم، ونعَتهم بصفات المرج والخلط والتردّد، وهي صفات تدلّ على غياب الثّبات الفكري والانهيار الدّاخلي الذي يصل بهم إلى حدّ الهذيان الخطابي. فهم لا يعارضون الحقّ بالحجّة، بل يخترعون الأكاذيب ويلبسونها لبوس الحقّ، متّبعين في ذلك أساليب الخطابات المضلِّلة التي تسعى إلى فرض الهيمنة على وعي المتلقّي، عبر تزييف الحقائق وتقديمها في قوالب برّاقة تَسحر العقولَ وتُضلّ القلوبَ، حتى تُصوَّر الباطلَ حقًّا، والحقَّ باطلًا.

وإنّ هذا النّموذج يتكرّر في كلّ زمان، في صورة خصوم الدّعوة الذين لا يملكون إلا الافتراء وإثارة الشّبهات حول الإسلام وأهله، بهدف تشويه صورته والنّيل من مصداقيته. وهنا تبرز المسؤولية الكبرى الملقاة على عاتق الخطاب الدّعوي، إذ لا يسعه أن يتّخذ موقفًا حياديًا أمام هذا النّوع من الحملات المغْرِضَة، بل عليه أن يتصدّى لها بوعي وحكمة، مستنيرًا بالمنهج الربّاني الذي رسمه القرآن الكريم وسار عليه الرسول ﷺ.وقد عبّر القرآن عن هذا المنهج في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: 33]. إذ يُبيّن أنّ المواجهة لا تكون بالتّجاهل ولا بالتّراجع، بل بتقديم الحقّ المبين والتّفسير الأحسن، بما يفكّك الشّبهة، ويكشف زيفها، ويُرسي معالم الهداية في وجه الخطابات المضلّلة المنظَّمة.

2- التّحرير من التبعيّة والانهزام النفسي :

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِى ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ * قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدِ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق: 26-30].

وقوله أيضا: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِى ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ [ق: 36].

لقد عالج القرآن ظاهرة "التّبعيّة" معالجةً دقيقةً وعميقة، فكشف عن أسبابها الكامنة في الضّعف النّفسي والانقياد الأعمى، ورسم مظاهرها في مواقف العناد والضّلال، وصوّر مشاهدها بأسلوب يُجسّد حجم الانهزام الدّاخلي لدى أصحابها، ثم حدّد مصيرها المحتوم وعاقبتها الوخيمة. فالمشرك، حين يُساق إلى جهنّم، لا يتقبّل مسؤوليته عمّا اقترفه من كفر وطغيان، بل يسعى إلى التملّص منها عبر إلقاء اللّوم على قرينه الذي كان يزيّن له الضّلال ويصرفه عن طريق الحقّ، سواء أكان هذا القرين شيطانًا مقيّضًا له، أم رفيقًا من الإنس أغواه وأثّر فيه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٞ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الصافات: 51-56].

ويأتي الردّ من القرين: ﴿* قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدِ ﴿٢٧﴾﴾، هو ردّ على الاحتجاج السّابق من الكافر، غير المذكور لكنّه مفهوم من سياق الردّ (وإن كان قد صُرّحَ به في سياق آخر في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِىۗ﴾ [الفرقان: 29])، إنّها من المشاهد المتكرّرة في الخطاب القرآني، مشهد الخصومة بين التّابع والمتبوع، وهو مشهد يُبرز لحظة الانكشاف الكامل للعلاقات الزّائفة، حيث تُهدم أوهام الاتّباع، وتنقلب الرّوابط المبنية على التّضليل والهوى إلى تبرّؤ وتبادل للاتّهام.

ويُجسّد القرآن هذا المشهد في عدد من المواضع، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ [إبراهيم: 22]، وقوله ﷻ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾ [البقرة: 166]، تلك هي خصومة أهل النّار، خصومة يائسة ذليلة، تنكشف فيها خيبة التعلّق بغير الحقّ، وانهيار العلاقات التي بُنيت على الباطل، في لحظة لا ينفع فيها ندم ولا يجدي فيها تبرّؤ.

لا مجال للاعتذار أو التّبرير في ذلك اليوم؛ فقد قُدِّمت في الدنيا كلّ وسائل الهداية، وبُعث الرّسل مبشّرين ومنذرين، حتّى لا تكون للنّاس حُجّة بعد الرّسل، يقول تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ [النساء: 165]، إنّه يوم الفصل، الذي فيه يُفْصَلُ بين الحقّ والباطل، بين المشرك والمؤمن، فلا يبقى إلا الجزاء العادل لكلّ نفس بما قدّمت.

❖ خلاصة القول:

إنّ دعاة الكفر والضّلالة يقفون دوما أمام دعوة الحقّ، وتراهم يبدّلون «أسماء أصنامهم كلما بهت مصطلح منها، أو مات بريقه الإيديولوجي والسياسي...ومهما تغيرت الألفاظ فالصّنم واحد، إنّه الشّهوة والثّروة، والسّيطرة على المال والاقتصاد»[1]. ولم يعد منحصرًا في حجر يُعبد، بل صار يتمثّل في كلّ رمز يُتّخذ مرجعية مطلقة، أو فكر يُقدّس بلا وعي، أو شهوة تتملّك النّفس وتوجّهها.

وقد تناول القرآن هذا الانقياد الأعمى للأهواء والمتبوعين في أكثر من موضع، مبيّنًا المآلات الكارثية لهذا الاتّباع، خاصّة حين يتنكّر المتبوعون لأتباعهم يوم القيامة بعد أن ينكشف زيف الباطل

[1] فريد الأنصاري، مجالس القرآن، م س، ج2، ص: 52.

ويظهر الحقّ، يقول تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١﴾ [إبراهيم: 21].

لقد شكّل حبّ التملّك والنزوع إلى التسلّط أحد أعمق الهواجس التي لازمت الإنسان عبر مختلف مراحل التّاريخ، فكان ولا يزال يسعى لتحقيق الهيمنة بمختلف السّبل والوسائل «لكنّ مشكلة "التبعيّة" ومسألة "الأتباع والمتبوعين" أبرزُ ما تكون وضوحا، وأكثرُ ما تكون خطورةً، في هذا العصر الحديث»[1]. ففي العصور القديمة، اتّخذت هذه النّزعة طابعًا ماديًّا صَرفًا، تجلّى في الحروب والاستعباد واستعراض القوّة. أمّا في السّياقات المعاصرة، فقد أصبحت هذه الغاية تُحقّق بوسائل أكثر خفاءً وفاعلية، عبر السيطرة الفكرية والإعلامية، والتّأثير في البنى الثقافية والاجتماعية، وتوجيه الوعي الجماعي نحو أنماط استهلاكية أو أيديولوجية تخدم مراكز النفوذ والسلطة.

إنّ أخطر ما تكون عليه قضية " التبعية"، عندما تتعلّق بقضايا الفكر والاعتقاد لأنّها أكثرها تأثيرا وأقلّها تمظهرا. فالانقياد الفكري غالبًا ما يتسلّل إلى العقول دون وعيٍ أو مقاومة، متخفيًا في رسائل دعائية، أو مشاهد سينمائية، أو صور فوتوغرافية عابرة. وهو بذلك يُنتج نوعًا من الاستعمار غير المرئي، استعمارٍ لا يستهدف الأجساد بقدر ما يغزو العقول ويوجّهها، الأمر الذي يجعله من أخطر أشكال الاستعمار التي شهدها التّاريخ الإنساني.

إنّ التصدّي للغزو الفكري الذي يستهدف العقول ليس بالأمر الهيّن، غير أنّه ليس مستحيلًا، فمواجهة هذا التحدّي الحضاري تتطلّب وجود رادع فعّال يَحُول دون تغلغل الرسائل التّبشيرية التي تُمرّر عبر الخطابات المضلّلة. ولا يتأتّى ذلك إلا من خلال بناء خطاب دعويّ متماسك، يتجاوز مجرّد ردود الفعل الدفاعية إلى أداءٍ تواصليّ فاعل ومبادر، يمتلك من الكفاءة والمهارات ما يؤهّله للقيام بدور قياديّ في توجيه الرأي العام، وصناعة الوعي، وإعادة الاعتبار للمرجعية الإسلامية في الفضاء العام.

[1] عبد الفتاح الخالدي، الأتباع والمتبوعين في القرآن، دار المنار للنشر والتوزيع، فرع عمان، الأردن، ط1، 1996، ص: 6.

لا يُراد من الخطاب الدّعوي أن يُنتج أتباعًا أو يُمارس هيمنة على العقول، بل تتمثّل مهمّته الجوهرية في تحرير الإنسان من أشكال التبعيّة الزّائفة، ومن السلطات الوهمية التي تفتقر إلى المشروعية الحقيقية أو القدرة الفعلية على التوجيه. إنّه خطاب يُقاوم الاصطفاف خلف مرجعيات مُغرضة أو مضلِّلة، ويسعى إلى إعادة توجيه الوعي الإنساني نحو الخضوع لله وحده، باعتباره المصدر الأوحد للحقّ والسلطان المشروع.

خاتمة

لقد سعينا من خلال هذه الدراسة الموسومة بـ : "مقوّمات الخطاب الدّعوي في كنف القرآن – تأمّلات حجاجية في سورة "**ق**"–، إلى الكشف عن البُنى الحجاجية في الخطاب الدّعوي عبر وقفات تأمّلية في سورة "**ق**"، مع التّركيز على الأساليب الإقناعية من خلال الأبعاد البلاغية التي تزخر بها السّورة، واستنباط أبرز الغايات التي يتوخّاها الخطاب الدّعوي.

وقد بيّنت الدراسة آليات اشتغال الخطاب الدّعوي بوصفه خطابًا حجاجيًا يُسهم في ترسيخ دعائم الرّسالة الإسلامية، ويُواجه في الآن ذاته حملات التّضليل الفكري المعاصرة.

وفيما يلي أبرز النتائج التي تمّ التوصّل إليها:

1- يتعيّن على الخطاب الدّعوي أن يحاكي يقينيّة الطرح القرآني، سواء على مستوى المضمون أو المنهج، بما يضمن الحفاظ على مهابة الحقيقة في نفوس المتلقّين ووضوحها في وعيهم. ذلك أنّ حضور اليقين في الخطاب لا يقتصر على بعده المعرفي، بل يُسهم في إضفاء سلطة معنوية تُعزّز صدقيته وتُرسّخ أثره في التمثّل والسلوك.

2- يُعدّ التركيز على القضايا العقدية الكبرى من أهمّ مرتكزات الخطاب الدّعوي، ولا يجوز التهاون في تبليغها أو تهميشها، لما لها من دور محوري في بناء التصوّر الإيماني السّليم. وتتمثّل هذه القضايا في: التّوحيد، والرسالة (النبوّة)، والإيمان باليوم الآخر، وهي ثلاثية تؤسّس لجوهر العقيدة الإسلامية، وتشكّل أساس الخطاب القرآني في دعوته للنّاس.

3- من أبرز خصائص الخطاب الدّعوي تجرّد المخاطِب من ذاتيّته، وتأدية دوره بوصفه مبلّغًا، فلا يسعى إلى فرض قناعاته الشخصية، ولا يعلّق جهوده على النتائج الآنية للخطاب، بل يركّز على أداء الأمانة وتوصيل الرّسالة وفق ما كُلِّف به.

4- يُؤسَّس الخطاب الدّعوي على مبدأ عدم الإلزام، إذ لا يُمارس إكراهًا فكريًا أو نفسيًا على المتلقّي، بل يتيح له فسحةً للتأمُّل الحرّ والاستجابة النابعة من القناعة الذّاتية. إنّه خطاب يُعامل المتلقّي بوصفه فاعلًا شريكًا في مسار البحث عن الحقيقة والمعنى، لا موضوعًا للهيمنة أو السيطرة، بما يعكس احترامه لكرامة الإنسان وعقله وإرادته الحرّة.

5- ينبغي للخطاب الدّعوي أن يحافظ على استقلاليته، وأن لا ينساق وراء توجّهات المتلقّي

أو يخضع لهيمنته التّواصلية، بل عليه أن يبقى موجّهًا ومنضبطًا بمنظومته المرجعية وقيمه الدّعوية، لا بمنطق الاسترضاء أو المجاراة.

6- يتعيّن على المخاطِب أن يُنمّي في المتلقّي ملكة التدبّر، من خلال تفعيل آلية الرّبط بين الإدراك الحسّي والتأمّل العقلي، بما يعمّق وعيه ويحفّزه لمراجعة مواقفه، إنّها استراتيجية الإقناع العقلي التي تخلق نوعا من التواطؤ الذهني والانفعالي بين الخطاب وجمهوره.

7- يُستحسن أن يتكرّر توظيف قصص الأنبياء في الخطاب الدّعوي، نظرًا لما تُحدثه من أثر بالغ في ترسيخ صفة النموذج في وعي المتلقّي، إلى الحدّ الذي تتحوّل فيه تلك النماذج إلى مرجعية وجدانية وتاريخية تُستدعى في لحظات التّقييم واتّخاذ المواقف. ويتمّ ذلك عبر تفعيل استراتيجية الإقناع باستحضار التّاريخ، عبر دمج عدّة آليات حجاجية، تجمع بين المقارنة، والعاقبة، والمساواة، بما يُكسب الخطاب بعدًا تربويًا.

8- حين تستنفد وسائل الإقناع العقلية مفعولها أو تُواجه حدود فاعليتها، يُصبح من الضروري أن يلجأ الخطاب الدّعوي إلى استراتيجيات أكثر تأثيرًا وعمقًا في التّأثير الوجداني والنّفسي للمتلقّي، مثل استراتيجية الصّدمة الحجاجية، على نحو يُعيد تفعيل استجابته ويوجّه انفعاله في خدمة الغاية الخطابية. ويأتي ذلك ضمن تكاملٍ وظيفي بين العقل والعاطفة.

9- يُعدّ الإيجاز أحد المقوّمات البلاغية الفاعلة في الخطاب الدّعوي، إذ يُسهم في شدّ انتباه المتلقّي وتحفيز استجابته السّريعة، من خلال تقديم المعنى بأقلّ قدر من الألفاظ دون إخلال بالوضوح أو التّأثير. فالإيجاز لا يقتصر على الاقتصاد اللّغوي، بل يعكس كفاءة الخطاب في انتقاء ما هو جوهري وترك ما عداه من الإطناب المفْضي إلى التشتّت أو الملل.

10- يتميّز الخطاب الدّعوي بكونه موجّهًا أساسًا لتحقيق مصالح المتلقّين الروحية والفكرية والأخلاقية، لا لتحقيق مصالح ذاتية للمخاطِبين. فهو خطاب يتجاوز النفعية الشخصية، ويتحرّك ضمن أفق رسالي يُعلي من مصلحة الإنسان في الهداية والرّشاد، ويجعل من خدمة المتلقّي غايةً أصيلة لا وسيلة ظرفية.

11- يتّسم الخطاب الدّعوي بشموليته التّداولية، إذ ينهض بوظيفة مزدوجة تمزج بين الاستجابة

لمقتضيات الواقع الإنساني الدنيوي وتوجيه المتلقّي نحو الغايات الأخروية، ضمن وحدة دلالية ومنهجية لا تفصل بين البعد الزمني والبعد الرّوحي. فهو خطاب يتقاطع فيه البعد الإصلاحي الاجتماعي مع البعد القيمي الأخلاقي، بما يجعله أداة تواصلية موجّهة نحو تحقيق التّوازن بين عمارة الأرض وترقية النّفس، وفق منظور تكاملي للوجود الإنساني.

12- يُناط بالخطاب الدّعوي المعاصر أداء وظيفة خطابية حاسمة في التصدّي للخطابات المضادة، سواء تمثّلت في الحملات المغرضة أو الأطروحات الفكرية المنحرفة، وذلك من خلال تبنّي موقف مبدئي واضح، يتجاوز الحياد السلبي أو المجاراة الخطابية غير المنضبطة. ويتأسّس هذا الموقف على المرجعية القرآنية بوصفها إطارًا معرفيًا ومنهجيًا يوجّه الخطاب نحو حماية الثوابت العقدية، ويمنحه أدوات حجاجية فعّالة لمواجهة الانحراف الفكري بالحكمة، والأسلوب البياني الرشيد.

13- تُعدّ الحاجة إلى بناء خطاب دعوي يتمتّع بفاعلية تداولية وقدرة قيادية على توجيه الرأي العام من أبرز التّحديات الراهنة، بما يستدعي خطابًا يتماهى مع مقتضيات العصر ويتفاعل مع سياقاته المتغيّرة. غير أنّ هذا التكيّف لا ينبغي أن يُفضي إلى انفصال عن البنية المرجعية للعقيدة، بل يجب أن يتمّ ضمن إطار تداولي يحافظ على الثوابت العقدية بوصفها الضّامن لهويّة الخطاب ومشروعيته. ومن خلال هذا التّوازن الوظيفي بين التّحديث والمرجعية، تتأسّس مصداقية الخطاب الدّعوي وتُؤمَّن شروط استمراريته في الفضاء التّداولي المعاصر.

بعض التّوصيات المقترحة:

1- تعزيز الدّراسات البينية بين اللّسانيات وعلوم الدّعوة:

الدّعوة إلى توسيع آفاق البحث من خلال ربط اللّسانيات بفروع علم الدّعوة، خاصّة في ما يتعلّق بتحليل الخطاب، البلاغة الجديدة، ونظريات الحجاج بما يُسهم في بناء فهم أعمق لبنية الخطاب الدّعوي ووظائفه الإقناعية.

2- استثمار المرجعية القرآنية كمنظومة لغوية إقناعية:

توجيه البحوث نحو استكشاف الخصائص اللّسانية والأسلوبية للخطاب القرآني، بوصفه النموذج الأعلى للبلاغة الدّعوية، وتحليل آلياته الإقناعية والتّواصلية بما يخدم تجديد الخطاب المعاصر.

3- إعداد مدوّنات لغوية للخطاب الدّعوي المعاصر:

العمل على جمع وتصنيف خطب ومحاضرات ومواد دعوية مرئية ومكتوبة ضمن مدوّنات قابلة للتّحليل اللّساني، تسمح بدراسة تطوّر الخطاب، وتنوّعه، وأثر الوسيط في بنائه (الوسيط يُعدّ عاملًا تداوليًا مهمًّا ينبغي للباحثين أخذه بعين الاعتبار عند تحليل الخطاب الدّعوي المعاصر).

4- تحليل أنماط التلقّي في السّياقات الثقافية المختلفة:

دراسة تفاعل المتلقّين مع الخطاب الدّعوي في بيئات متنوّعة ثقافيًا ولسانيًا، باستعمال أدوات تحليل التلقّي والنماذج التّداولية، لرصد فعّالية الخطاب.

5- التركيز على الخطاب الدّعوي الرّقمي:

دعوة الباحثين إلى الانخراط في تحليل الخطاب الدّعوي كما يُبثّ عبر المنصّات الرّقمية (وسائل التّواصل، اليوتيوب، البودكاست...)، مع دراسة الخصائص اللّسانية والتّقنية التي تميّزه عن الخطاب التّقليدي.

6- الاهتمام بتكوين الباحثين في اللّسانيات التّطبيقية والدّعوة:

دعم مشاريع تكوين جامعية وأكاديمية تؤهّل باحثين يجمعون بين التّكوين اللّساني والمعرفة الشّرعية والدّعوية، بما يخلق كفاءات علميّة قادرة على تطوير هذا الحقل.

7- بناء نماذج تحليل لساني للخطاب الدّعوي:

اقتراح نماذج تحليلية منهجية تتناسب مع خصوصية الخطاب الدّعوي، تجمع بين أدوات البلاغة، التّداول، والحجاج، وتُراعي طبيعة الخطاب.

قد يُلاحظ القارئ أنّ هذا البحث قد أولى اهتمامًا خاصًا بالبعد التّرهيبي في الخطاب الدّعوي ضمن سورة "**ق**"، وهو تركيزٌ مقصود ومنهجي، لا يُعبّر عن إغفالٍ لأبعاد أخرى كالتّرغيب أو الدّعوة بالحكمة، وإنّما ينبع من خصوصية النصّ المدروس. فسورة "**ق**" تُعدّ من السّور المكيّة التي امتازت بقوّة الإنذار وشدّة الوعيد، نظرًا لطبيعة المرحلة التي خوطب فيها مجتمع لم يكن قد تفاعل بعد مع الخطاب الإيماني التّوحيدي.

ومن هذا المنظور، فإنّ اختيار البعد التّرهيبي لم يكن تعسفيًا، بل يستجيب لخصوصية النصّ، ويُبرِز جانبًا بلاغيًا تداوليًا بالغ الأهميّة، طالما تمّ التّعامل معه بتوجّس في بعض الدّراسات الحديثة. وقد سعى هذا البحث إلى تحرير هذا البعد من الفهم التّلقيني أو التّرهيب القهري، لإبرازه في صورته القرآنية الأصيلة: أداةً للإيقاظ، لا للتّخويف المجرّد؛ وللدّعوة، لا للإقصاء.

وعليه، فإنّ هذا التّركيز لا يُعدّ تقليصًا لأبعاد الخطاب الدّعوي، بل محاولة لفهم أحد تجليّاته العميقة في ضوء أدوات التّحليل اللّساني ومقاصد الدّعوة القرآنية، مع الاحتفاظ بإمكانية استكمال النّظر في أبعاد أخرى، كالبعد التّرغيبي ، في أبحاث لاحقة إن شاء الله.

ونسأل الله التّوفيق... وله الحمد من قبل ومن بعد...

مكتبة البحث

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

✸ إبراهيم السكران، الطريق إلى القرآن، مركز الفكر المعاصر، ط1، 2012.

✸ ابن الرشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح: مُحَمَّد عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1981.

ابن القيم الجوزية:

✸ إعلام الموقعين عن رب العالمين، تح: مُحَمَّد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1991.

✸ تفسير القرآن الكريم، تح: إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان،ط1، 1410هـ.

✸ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تح: مُحَمَّد البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1996.

✸ ابن حجر، فتح الباري في شرح البخاري، المكتبة السلفية، مصر، ط «السلفية الأولى»، 1380-1390هـ.

✸ ابن خلدون، المقدّمة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1981.

✸ ابن رجب الحنبلي، فتح الباري، تح: محمود بن شعبان ومجموعة من المحقّقين، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ط1، 1996.

✸ ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، تح وتع: الشيخ أحمد عبد الموجود، علي مُحَمَّد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط1، 1999.

✸ ابن عبد ربه، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط1، 1404هـ.

✸ ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام مُحَمَّد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ.

✸ ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (دط)، (دت).

✸ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1،1998.

✸ ابن ماجة، سنن ابن ماجة، تح: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، ، دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي، (دط)، (دت).

✸ أبو اسحاق الحويني، دروس للشيخ أبي إسحاق الحويني، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

✸ أبو إسماعيل الهروي، منازل السائرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (دط)، (دت).

✸ أبو الحسين مسلم، صحيح مسلم، تح: مُحَمَّد فِاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، مصر، (دط)، 1955.

✸ أبو الحسن الندوي، روائع من أدب الدّعوة في القرآن والسّيرة.

✸ أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، دار الفكر، بيروت، لبنان، (دط)، 2000.

✸ أبو نعيم الأصبهاني، دلائل النبوة، تح:د مُحَمَّد رواس قلعة جي، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط2، 1986.

✸ أحمد الشرباصي، موسوعة أخلاق القرآن، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1987.

✸ أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية (أصولها ووسائلها)، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر، ط2، 1987.

✸ الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994.

✸ إياد كامل إبراهيم الزيباري، سياسة التدرج في تطبيق الأحكام الشرعية (سلسلة الرسائل والدّراسات الجامعية)، إشراف أ.د ساجر ناصر حمد الجبوري، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، (دط)،2017.

✸ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ط1، (1969-1984).

✸ البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تح: مُحَمَّد عبد الرحمان المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ.

✸ البيهقي، السنن الكبرى، تح: مُحَمَّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2003.

✸ الترمذي، الجامع الكبير(سنن الترمذي)، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1996.

✸ الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، (دط)، 1423هـ.

✸ جعفر شرف الدين، الموسوعة القرآنية، خصائص السور، تح: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت ا، لبنان، ط1، 1420هـ.

جلال الدّين السّيوطي:

✸ الدرّ المنثور في التّفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت، لبنان، (دط)، (دت).

✸ وغيره، شروح سنن ابن ماجة، تح: رائد بن صبري، بيت الأفكار الدولية، ط1، (دت).

✸ جميل حمداوي، الاتجاهات السيميوطيقية، التيارات والمدارس السيميوطيقية في الثقافة الغربية، المكتبة الشاملة الذهبية.

حسن حبنكة الميداني:

✸ البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 1416هـ-1996م.

✸ فقه الدّعوة إلى الله وفقه النّصح والإرشاد، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 1996.

✸ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق-بيروت، ط1، 1412هـ.

✸ رزان إبراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، دار الشروق للنشر والتّوزيع، ط1، 2003.

✸ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، (ثم صوَّرته دار المعرفة، بيروت، لبنان)، ط1، 1957.

✸ الزمخشري، الكشاف، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، ط3، 1978.

✸ الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، (دط)، 2000.

✸ زيد بن عبد الرحمان الزيد، الحكمة في الدعوة إلى الله: تعريف وتطبيق، المكتبة الشاملة الذهبية.

✸ سفر الحوالي، دروس للشيخ سفر الحوالي، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

✸ سلمان العودة، تفريغ محاضرة الإغراق في الجزئيات، موقع إسلام ويب .

✸ السمرقندي، بحر العلوم، تح: الشيخ علي مُحَّد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1993.

✸ سيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط10، 1982.

✸ الشافعي، الرسالة، تح: أحمد مُحَّد شاكر، مصطفى البابي وأولاده، مصر، ط1، 1938.

✸ الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تح: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1995.

✸ شهيدا خضر كريم ، لسانيات الخطاب الحجاجي في سور الحواميم، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2020.

✸ صابر الحباشة، من قضايا الفكر اللساني في النحو والدلالة واللسانية،

✸ الصنعاني، إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، الدار السلفية، الكويت، ط1، 1985.

✸ الطّاهر ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، (دط)، 1984.

✸ الطبراني، المعجم الكبير، تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر، ط2، دت.

✸ طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998.

✸ عادل عبد اللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط1، 2013.

✸ عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس "في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995.

✸ عبد العزيز بن باز، الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط4، 2002.

✸ عبد الفتاح الخالدي، الأتباع والمتبوعين في القرآن، دار المنار للنشر والتوزيع، فرع عمان، الأردن، ط1، 1996.

✸ عبد الفتاح لاشين، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، دار المريخ، الرياض، السعودية،(دط)،(دت).

✸ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود مُحَمَّد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ط3، 1996.

✸ عبد اللطيف عاشور، موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، (دط)، 1يناير 2000.

✸ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتّحدة، لبنان، ط1، 2000.

✸ علي الهروي، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ج1، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 2002.

✸ علي محفوظ، هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، دار الاعتصام، ط9، 1979.

✸ فتحي يكن، احذروا الإيدز الحركي، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1990.

✸ فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1981.

فريد الأنصاري:

✸ مجالس القرآن، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، ط3، 2016.

✸ هذه رسالات القرآن فمن يتلقاها، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط3، 2014.

✸ فضيلة قوتال، حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التّداولية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2017.

✸ الماوردي، النكت والعيون، تح: السيد ابن عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (دط)، (دت).

✸ مُحَمَّد البخاري، صحيح البخاري، تح: د. مصطفي ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، سوريا، ط5 1993.

✸ مُحَمَّد الشنقيطي، آداب البحث والمناظرة، تح: سعود بن عبد العزيز العريفي، دار عطاءات العلم، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط5، 2019.

✸ مُحَمَّد العوّاجي، موسوعة دليل الدّاعية: الدّعوة إلى الله: التّعريف والتّأصيل، مكتبة الملك فهد الوطنية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2022.

✸ مُحَمَّد الغزالي، مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط6، أفريل 2005.

✸ مُحَمَّد القاسمي، محاسن التأويل، تح مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998.

✸ مُحَمَّد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1964.

✸ مُحَمَّد أمين حسن، خصائص الدّعوة الإسلاميّة، مكتبة المنار، الأردن، ط1، 1983.

✸ مُحَمَّد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2009.

✸ مُحَمَّد رشيد رضا، تفسير القرآن الكريم(تفسير المنار)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، (دط)، 1990.

✸ مُحَمَّد مشبال، في بلاغة الحجاج: نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017.

✸ المراغي، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1،1964.

✸

✸ النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1396هـ.

✸ الواحدي، أسباب نزول القرآن، تح: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدّمام، المملكة العربية السعودية، ط2، 1996.

✸ يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1983.

❖ **القواميس والمعاجم باللّغة العربية:**

✸ ابن فارس، مقاييس اللغة، تح مُحَمَّد هارون، دار الفكر، دمشق، سوريا، (دط)، 1979.

✸ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ.

✸ الزبيدي، تاج العروس، تح: جماعة من المختصين، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، (دط)، (1965-2001).

✸ الزمخشري، أسرار البلاغة، تح: مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (دط)، 1998.

✸ الشريف الجرجاني، التعريفات، تح: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1938.

✸ عبد اللطيف عاشور، موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، (دط)، 1يناير 2000.

✸ الفيروز أبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تح: مُحَمَّد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، مصر، 1996.

✸ لطفي الشربيني، معجم مصطلحات الطب النفسي، مركز تعريب العلوم الصحية، مؤسّسة الكويت للتقدّم العلمي.

✸ الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، (دط)، (دت).

✸ قطب مصطفى سانو، معجم مصطلحات أصول الفقه، دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2000.

✸ مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، 1984.

✸ نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2004.

❖ **المقالات باللّغة العربية:**

✸ آمال مُحَمَّد حسن عتيبة، المتطلبات التربوية لتجديد الخطاب الدعوي لمواجهة التحديّات المعاصرة.

✸ أيمن فايز عطا الله، مقاصد الدعوة الإسلامية: دراسة تأصيلية، حولية كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة، جامعة الأزهر الشريف، مدينة نصر، مصر، 2023، مج:2، ع:37.

✸ بعزيز براهيم، تقنيات وأساليب التضليل الإعلامي المعاصرة بين تغييب الوعي وتوجيه اهتمامات الأفراد، مجلة ستراتيجيا[كذا]: مجلة دراسات الدفاع والاستقبالية، السداسي الثاني 2016، ع:06.

✸ ربيعة العربي، بلاغة الحجاج وتقنيات التأثير، الحوار المتمدن، 29-03-2013، ع:4046.

✸ عطية عدلان، تجديد الخطاب الدّعوي التّحديات والآمال، مجلة البيان، 2013/30/7، ع:314.

✸ المجلة التربوية، كلية التربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، نوفمبر2020، ع:79.

✸ مُحَمَّد السعيد مسعى، معوقات الخطاب الدعوي المعاصر وسبل معالجتها في ضوء الشريعة الإسلامية، مجلة المنهل، جامعة الوادي، الجزائر،2022/06/13، مج:08، ع:01.

✸ نعمان شعبان علوان، الأساليب البيانية والخطاب الدعوي الواعي، مؤتمر الدعوة الإسلامية ومتغيّرات العصر، الجامعة الإسلامية-كلية أصول الدين- غزة، فلسطين، 16-17أفريل 2005.

❖ **الرّسائل الجامعية باللّغة العربية:**

✸ بيان صالح حسن، أسلوب الإمامين القرطبي والقرافي في دعوة النّصارى إلى الإسلام (دراسة مقارنة)، قسم الدّعوة والاحتساب، كليّة الدّعوة والإعلام، جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلاميّة، المملكة العربيّة السعوديّة، 1420-1421هـ.

❖ قائمة المراجع الأجنبية:

✸ Chaim Perelman et Lucie Tyteca, Traité de l'argumentation, Editons de l'université de Bruxelles, 5eme ed, Belgique, 2000.

✸ Fabrice d'Almeida, la manipulation, Presse Universitaire de France ; Paris , 3ème édition,2011.

✸ Gardiner A. H., The Theory of Speech and Language, Oxford, Clarendon Press, 1932

✸ Hatzfeld, H. Légitimité , Dictionnaire critique et interdisciplinaire de la Participation, DicoPart (1ère édition). GIS Démocratie et Participation,2013.

✸ L.Bellenger , les techniques d'argumentation et de négociation, Entreprise Moderne d'Edition, Paris, 1978,

✸ Philippe PAL, « La désinformation : un concept rentable », Editions Fauxtroll, Lorient, 2006.

❖ الكتب المترجمة:

✸ هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية: نحو نموذج سيميائي لتحليل النصّ، تر: مُحَمَّد العمري، دراسات سال، الدار البيضاء، ط1، 1989.

❖ المواقع الإلكترونية:

✸ http://www.islamweb.net

✸ http://www.islamweb.net . https://ketabonline.com/ar/books/103271/read

✸ https://ketabonline.com/ar/books/96890/read?page=195&part=1#p-96890-195-2

✸ https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=351985

✸ https://www.facebook.com/elmoustakbel.net/videos/9087468584617268

✸ https://www.youtube.com/watch?v=0CnsfXl7kH4&ab_channel=Hossam Taha

✸ https://www.youtube.com/watch?v=VGoX7TLwLRA

✸ https://youtu.be/wlFCCPyzVXQ?si=z5H2TzX84Z9YNIij

مسرد المصطلحات

Persuasive discourse	الخطاب الإقناعي
Persuasive strategy	استراتيجية إقناعية
Shock-based argumentative strategy	استراتيجية الصدمة الحجاجية
Rational persuasion	الإقناع العقلي
New rhetoric	البلاغة الجديدة
Subordination / Dependency	التبعية
Pragmatic ignorance / Strategic ignoring	التجاهل التّداولي
Debate / Disputation	الجدال
Argumentation"	الحجاج
Preaching discourse / Da'wah discourse"	الخطاب الدّعوي
Misleading discourses / Disinformation discourses	خطابات التّضليل
Trusted discourses / Credible discourses	الخطابات المؤتمنة
Rhetorical shock / Discursive jolt	الرجّة الخطابية
Context	السياق
Social goals	الغايات الاجتماعية
Rhetorical purposes / Discursive aims	الغايات الخطابية
Cognitive goals / Epistemic aims	الغايات المعرفية
Emotional goals / Affective aims	الغايات الوجدانية
Decentering / Decentralization	لا مركزية
Speaker	المتكلّم
Receiver/Audience	المتلقّي
Historical exemplar / Historical model	المثل التاريخي
Addressee	المخاطَب
Speaker / Interlocutor	المخاطِب

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

نبض امتنان في مستهلّ الطريق.....

إهداء.....

جدول فكّ الرّموز .....

مقدّمة .....أ

مدخل تمهيدي

1- خواصّ سورة "ق": 1

2- أسباب النزول:..... 5

3- مناسبة السّورة:..... 7

4- هيكل سورة " ق": 11

الفصل الأوّل: خصائص الخطاب الدّعوي ورهاناته

المبحث الأوّل: التّأصيل النّظري لمسألة الدّعوة 17

1- الإطار المفاهيمي للدّعوة:.....20

أ. التّعريف اللّغوي: 20

ب. التّعريف الاصطلاحي: 22

2- حكم تبليغ الدّعوة:.....26

3- فضل الدّعوة إلى الله: 31

المبحث الثّاني: الخطاب الدّعوي مفهومه وخصائصه......38

1- الإطار المفاهيمي للخطاب: 39

أ. التّعريف اللغوي: 39

ب. التّعريف الاصطلاحي: 42

2- خصائص الخطاب الدّعوي في القرآن الكريم: 47
أ- خطاب ربّاني:.....47
أ)ربّانية الغاية والوجهة:... 48
ب)ربّانية المصدر والمنهج:.....48
ب. خطاب شامل: 49
ت. خطاب عالمي:.....50
ث. خطاب مرن وثابت:.....51
ج. خطاب واقعي: 52
ح. خطاب وسطي: 53
المبحث الثّالث: تحدّيات الخطاب الدّعوي و رهاناته.....55
1- انحراف الخطاب الدّعوي: 56
2- الأصول والفروع بين التّهوين والتّهويل: 57
3- تغييب البعد الواقعي والتّواصلي في الخطاب الدّعوي:.....58
4- تحزّب الخطاب الدّعوي:.....58
المبحث الرابع: التصوّر القرآني للخطاب الدّعوي. 61
1- الدّعوة بالحكمة: 63
أ. الحكمة لغة:.....63
ب. معاني الحكمة في القرآن: 64
ت. الحكمة اصطلاحا: 65
ث. مفهوم الحكمة في مجال الدّعوة : 67
2- الدّعوة بالموعظة الحسنة:.....68
أ. الموعظة لغة:.....68

ب. معاني الموعظة في القرآن: 69
ت. "الموعظة الحسنة" اصطلاحا:.....70
ث. مفهوم الموعظة الحسنة في مجال الدّعوة: 73
3- الجدال بالتي هي أحسن:.....74
أ. الجدال لغة: 74
ب. معاني الجدال في القرآن:.....75
ت. الجدال اصطلاحا:.....76
ث. الجدال كمصطلح غربي:.....78
ج. مفهوم الجدال بالتي هي أحسن في مجال الدّعوة:.....79
الفصل الثّاني: مقوّمات الخطاب الدّعوي في كنف السّورة "ق".
المبحث الأوّل: أطر الخطاب الدّعوي. 86
1- الموضوع بوصفه أولويّة خطابية: 89
أ. القرآن مرجعيّة تأسيسيّة للخطاب الدّعوي:.....91
ب. تفعيل الدّلالات الكونيّة في الخطاب الدّعوي: 93
ت. ثبات الخطاب الدّعوي:.....94
ث. يقين الخطاب الدّعوي: 96
ج. الحثّ على التبصّر في الخطاب الدّعوي: 97
2- لا مركزيّة المتكلّم:.....100
أ. عدم الانشغال بالأسباب:.....103
ب. عدم إلزامية الخطاب الدّعوي:.....105
3- التّجاهل التّداولي المقصود للمتلقّي: 108
أ. الخطاب الدّعوي يتجاهل تكذيب المتلقّي: 111

ب. تمثّلات متلقّي الخطاب الدّعوي في القرآن: 115
المبحث الثّاني: استراتيجيّات الخطاب الدّعوي. 119
1- الاستراتيجيّة الإقناعيّة: 120
أ. الإقناع العقلي في الخطاب الدّعوي: 121
ب. الإقناع باستحضار التّاريخ في الخطاب الدّعوي: 125
2- استراتيجية الصّدمة الحجاجية: 129
أ. الرجّة الخطابية وأثرها في المتلقّي: 131
ب. إلزامية تطويق الخطاب الدّعوي للمتلقّي: 133
المبحث الثّالث: غايات الخطاب الدّعوي. 139
1- الغايات المعرفية: 140
أ. تحقيق الهداية: 141
ب. تحقيق العلم: 142
2- الغايات الوجدانية: 144
3- الغايات الاجتماعية: 145
أ. وحدة الأمّة: 146
ب. الإصلاح الاجتماعي: 147
المبحث الرّابع: رهانات الخطاب الدّعوي في مواجهة خطابات التّضليل. 150
1- مواجهة تزييف الحقائق : 154
أ. فضح الشبهة الجماهيرية : 154
ب. تفنيد التّشكيك وتحصين الرأي العامّ: 156
2- التّحرير من التبعيّة والانهزام النفسي : 160
خاتمة 164

مكتبة البحث..... 170
مسرد المصطلحات 180
فهرس الموضوعات..... 182
ملخّص 187

ملخّص

تسعى هذه الدّراسة إلى إلقاء الضّوء على أهميّة مراجعة الخطاب الدّعوي، بوصفه من أبرز أنماط الخطاب الإقناعي، وذلك من خلال التّأكيد على دوره المحوري في بناء الوعي الدّيني وتشكيل المنظومة القيمية داخل المجتمعات الإسلامية، هذا من جهة، وبناء علاقة إقناعية متوازنة بين المرسل والمتلقّي، من جهة أخرى. كما أنّها تحاول تقديم تصوّر جديد لخطاب دعوي يستند إلى المرجعية القرآنية، ضمن سياق تداولي حجاجي، وذلك من خلال استثمار منجزات البلاغة الجديدة، والتّداولية، ونظريّات الحجاج، بما يعزّز فعّاليته في الإقناع والتّأثير دون التّفريط بأصالته. ولقد وقع اختيارنا على سورة "**ق**" موضوعا للتّطبيق لما تتّسم به من فرائد، وخصائص خطابية، وبلاغية تجعلها نموذجا مكتمل البنية للخطاب الدّعوي في أبعاده الإقناعية والتّأثيرية. فالسّورة تتّسم بكثافة الأساليب الإقناعية، وتدرّج الحقول الدّلالية، ممّا يمنحها قدرة خاصّة على استنهاض الوجدان، ومخاطبة العقل وزعزعة المواقف الساكنة.

الكلمات المفاتيح: الخطاب الإقناعي، الخطاب الدّعوي، سورة "ق"، أطر الحجاج، الاستراتيجيات الحجاجية، الغايات الخطابية، خطابات التّضليل.

Abstract

This study aims to highlight the importance of reassessing daawah discourse as one of the most prominent forms of persuasive communication, emphasizing its pivotal role in shaping religious awareness and constructing the value system within Islamic societies. It also seeks to foster a balanced persuasive relationship between the sender and the recipient. Furthermore, the study proposes a renewed vision of daawah discourse grounded in Qur'anic authority and framed within an argumentative-pragmatic approach. This vision draws on the insights of New Rhetoric, pragmatics, and argumentation theories to enhance the discourse’s persuasive effectiveness while maintaining its authenticity. Surah Qaf was selected as the case study due to its unique rhetorical and discursive features, which make it a fully structured model of daawah discourse in both persuasive and affective dimensions. The surah is characterized by a high density of persuasive techniques and semantic field progression, granting it a

distinct capacity to stir emotions, engage the intellect, and challenge static positions.

Keywords: persuasive discourse, daawah discourse, Surah Qaf, argumentative frameworks, argumentative strategies, discursive aims, misleading discourses.